ما لا تعرفه عن

الهجرة

قيم تربوية

عبد الجوَّاد السيوطي

راجع الكتاب وقدمه له
الكاتب الإسلامي الكبير
الأستاذ/ محمد عبد اللّه السمان



الطبعة الأولى
٢٠١٧م/ ١٤٢٨هـ

عبد الجواد السيوطي

ما لاتعرفه عن الهجرة

٢٢٠٨/ ٢٠١٧ط١

الترقيم الدولى / ٨- ٩٩ - ٣٥١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

ليليت للنشر والتوزيع

الإشراف العام / إيمان سعيد

مدقق لغوي أ/ محمد فهمي

غلاف / خديجة يونس

المراسلات : ٢٤ ش سيد درويش

كوم الدكة - إسكندرية

ت : ٠١٢٢٤٢٧٢٣٢٧

: ٠١٠٢٢٦٦١٦٣٢

Dar.lilitte@gmail.com

lilettepublishing@gmail.com

سلطان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] {يوسف:١١١}

الإهداء

إلى الشعوب الإسلامية المظلومة التي يتحكم فيها الطُّغَاة الظالمون.

إلى كلّ مَن يريد أن يتعرف على التخطيط المحكم في حياة الرسول .

إلى كل الدعاة المخلصين في كل مكان.

إلى كل مَن يريد فصل الدين عن السياسة .

إلى والدي ـ رحمه الله ـ ووالدتي الذَين تعبا كثيراً من أجلي.

إلى زوجتي وأولادي وأخي الذين ضحّوا براحتهم لأجل راحتي.

إلى كلّ أساتذتي الذين تعلمت منهم الكثير والكثير ولهم الفضل عَلَيّ.

بعد الله.

سلطان

سلطان

شكر

(لا شكر الله من لم يشكر الناس) أشكر ـ بعد الله ـ أساتذتي وأحبابي الذين تعلمت منهم الكثير والكثير.

في البداية: نصر الله قريب، ووعده سيتحقَّق.

نورٌ من القرآن الكريم:

{....فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ.} (الأعراف : ١٧٦).

{إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } {التوبة:٤٠}

قبس من السنة المطهرة.

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «إن الله عز وجل اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم». رواه مسلم

من الشعر العربي :

وأجمل منك لم تر قط عيني   وأفضل منك لم تلد النساء

خُلقت مبرءا من كل عيبٍ   كأنك قد خلقت كما تشاء

كلام من نور:

قال علي بن الحسن: «كنا نُعلَّم مغازي النبي صلى الله عليه وسلم كما نُعلَّم السورة من القرآن» وقال إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص: «كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدها علينا ويقول هذه مآثر آبائكم فلا تضيعوا ذكرها».

وبعد فهذا هو الكتاب الأول من هذه السلسلة المسماة بـ (وسائل البناء ومعاول الهدم) وهو المسمى بـ (مالا تعرفه عن الهجرة؛ قيمٌ تربوية). والكتاب الثاني وهو(شبابنا بين الواقع والمأمول) والكتاب الثالث هو (وقفات تربوية من حديث الغربة) أرجو من الله وحده ـ سبحانه وتعالى ـ أن يتمّم هذا العمل على ما يحب ويرضى، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله لي زُخراً يوم لقائه وحاجتي إليه، وأن ينفع به كل من قرأ أو سمع أو ساهم بقليل أوكثير في إتمامه.آمين..آمين..آمين ...

سلطان

تقديـــم

بقلم الكاتب الإسلامي الكبير

الأستاذ/ محمد عبدالله السمان

لا جدال في أن الهجرة النبوية – على صاحبها أفضل صلاة وأكمل تسليم – تمثل مرحلة من أهم مراحل الدولة الإسلامية وأخطرها في مرحلة انتقالية لإثبات وجودها سياسياً وعقائدياً، فالمرحلة المكية على مدار ثلاثة عشر عاماً، كانت لإثبات العقيدة بها وتثبيتها في أذهان أتباعها، من ناحية – ومن ناحية أخرى – لتعرية حقيقة الجاهلية – وبضدها تعرف الأشياء كما يقولون.

أضف إلى ذلك: أن المرحلة المكية، كان لابد منها، لصقل إيمان أتباعها، ليكونوا نواة المستقبل للدولة الإسلامية، وكانت توجيهات القرآن، وتوجيهات الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – للنواة من أتباع الدعوة، تقوم على اساس الثقة في الله – عز وجل – والتضحية في مواجهة ما يلحقهم من أذى بالغا ما بلغ من الضراوة والشراسة، ولعلنا نلتمس ذلك من مواقف لا نكاد نحصيها، حيث كان رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – يمر على آل ياسر وهم يعذبون فيقول لهم "صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة" واستجابوا وكانت أم عمار أول شهيد في الإسلام وفي صحيح البخاري عن خباب بن الآرت رضى الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة – فقلنا:

"ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعوا لنا؟ "فقال: "قد كان من قبلكم، يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض فيجعل فيها .. ثم يؤتىٰ بالمنشار فيوضع علىٰ أرسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه والله ليُتِمّنّ الله هذا الأمر، حتىٰ يسير الراكب من صنعاء إلىٰ حضرموت، لا يخاف إلا الله، والذئب علىٰ غنمه، ولكنكم تستعجلون".

إن إرادة الله ـ عز وجل – اقتضت أن يكون الإسلام: ديناً، يصحح مسار العقول التىٰ حادت عن الطريق السوىٰ، ويصحح مسار الحياة البشرية التىٰ شملت الفوضى، بعد أن تحولت إلىٰ غابة شاسعة يفترس القوي فيها الضعيف، وأن يكون الإسلام دولة تقيم العدل بعد أن اختلت موازينه، وتؤازر الحق، بعد أن أصبح مضغة في أفواه الباطل، فالعالم يومئذٍ تحكمه إمبراطوريتان، إحداهما صليبية تَنَكّبت مبادئ المسيحية، والأخرىٰ وثنية تمتهن العقل، أعني إمبراطوريتي: فارس والروم، وبذلك يكون الإسلام بدولته ضرورة لإنقاذ البشرية من الوَحل، وكانت الهجرة النبوية هي البداية لإقامة دولته.

يرىٰ الشيخ محمود شلتوت – شيخ الأزهر السابق– في دراسته:

"الإسلام والوجود الدولي للمسلمين" العدد الثالث من "سلسلة الثقافة الإسلامية" التىٰ كنت أصدرها (١٩٥٨– ١٩٦٥م)؛ أن حادثة الهجرة كانت نقطة تحول في تاريخ البناء الإسلامي، لتقوم فوق الأرض الجديدة – يثرب – دولة ذات منهج ونظام وهدف، والهجرة من الأحداث الفذة الفريدة التىٰ كانت تمهيداً لتثبيت البناء الإسلامي، وميلاد دولة داخل إطار من القوة، وبذلك

أصبحت (الهجرة) من الأحداث الإسلامية الكبرى، التى يجب أن تحمل العظمة في نفس كل مسلم".

ويضيف الشيخ:

"وقد عنى المؤرخون كثيراً – وهم يتكلمون على هذا الحادث – بذكر حوادث الإيذاء التي كانت تتصل بالرسول وأصحابه الذين لبوا دعوته ومن هنا ألبسه أرباب الهوى الخاص – وهم يكتبون سيرة (النبي العربي) ثوب الفرار وعدم الصبر والاحتمال في القيام برسالته، ولم يتورعوا – إمعاناً فيما يشتهون – أن يطلقوا عليه كلمة (النبي الفار) وقد ظنوا أن هذا الثوب المهلهل الذي خلفوه على هذا الحادث العظيم، يستطيع أن يستر الحقيقة التي يحملها بين جنبيه، والتي لم تلبث –بعد الوصول إلى المدينة- أن سطع نورها، وانتشر أريجها، وبدأت الغشاوة التى وضعها الجهل على العقل البشري حيناً من الدهر، والواقع أن هذه الهجرة (البدنية) لم تكن إلا أثراً من آثار هجرة القلوب، عما كان عليه القوم من عقائد فاسدة، وشرائع باطلة وعقائد وتقاليد، كان لها في هدم الإنسانية، ما ليس للمعاول القوية في تقويض البناء الشامخ العتيد"

وأقول: إن الهجرة كانت لتأكيد الإسلام، وهي حقيقة حاول بعض المستشرقين ذوي الأهواء أن يطمسوها، متجاهلين ما أقره القرآن- كتاب الله- الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مخلفه تنزيل من حكيم حميد- وقد تصدى عملاق الأدب الأستاذ العقاد- لهذه الشرذمة في كتابه "الإسلام دعوة عالمية" التى استندت إلى قوله تعالى: [**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ**

حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ] {الشُّورىٰ:٧}

يقول: "وأيا كان القول في اللغة التىٰ تكلم بها النبي صلىٰ الله عليه وسلم ـ ، وفي صلاح هذه اللغة للدعوة العالمية، فإن النوع الإنساني يشمل أم القرىٰ (مكة) وما حولها، ولا تعتبر هداية أهلها عزلاً لهم عمن يتحداهم من الناس، إذا كان خطاب الناس كافة يمنع أن يكون الخطاب مقصوراً علىٰ (أم القرىٰ) ومن حولها، ولكن خطاب (أم القرىٰ) ومن حولها لا يمنع أن يعم الناس أجمعين.. فكيف يسيغ العقل أن يكون صاحب الدعوة المحمدية- خاتم النبيين- إذا كانت رسالته مقصورة علىٰ قوم لم يأتهم من قبل نذير؟؟ إن طائفة من المستشرقين تسبغ ما لا يسبغه العقل في أمر القرآن وأمر الإسلام".

بين يدي القارئ، للشيخ عبدالجواد أحمد عبدالمولىٰ السيوطي: الإمام والخطيب والمدرس بالأوقاف كتاب يحمل عنوان:

"ما لا تعرفه ن الهجرة ؛ قيم تربوية" في زهاء مائة وخمسين صفحة من القطع الكبير، أشار في المقدمة إلىٰ أن ما أراده من كتابه: دعوة للتفكير والتدبر، لبعض صفحات التاريخ الإسلامي وبخاصة تاريخ الرسول ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ وجهاده في هجرته، لنتعرف علىٰ سنن الله في خلقه، وسننه في أرضه، وسنن الله الثابتة لا تقبل تبديلاً ولا تحويلاً، والهجرة تبين لنا كيف أخذ المصطفىٰ ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ بالأسباب الأرضية، وتوكل- في نفس الوقت- علىٰ الله، ولا تضاد بينهما وقد تفاعل سلف هذه الأمة مع السنن الكونية، فسادوا العالم، ولم يَعِ الخلف هذا المعنىٰ مما جعل الأمة اليوم في حال يرثىٰ لها..

ومما عرض له المؤلف:

أن الهجرة النبوية المحمدية لم تكن بدعة، بل سنة قديمة، فقد هاجر من أنبياء الله: إبراهيم ولوط وموسىٰ عليهم السلام.

أسباب الهجرة: ذكر المؤلف الأسباب التقليدية التىٰ سجلتها كتب السيرة، وكنت أود أن يهتم بمسألة ذات أهمية خاصة، وهي أن الهجرة كانت استجابة لأمر الله، ولم تكن مجرد خاطرة خطرت علىٰ بال الرسول ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ فراراً من الأذىٰ، فالله- عز وجل- وهو الذي قدر، بعد أن حققت الدعوة أهدافها في مكة التىٰ لم تكن تصلح لإقامة دولة.

بين الكاتب أن من عوامل نجاح الهجرة: وضوح الهدف، براعة التخطيط، اختيار الوقت المناسب، ولعامل التوقيت أهمية متنامية في عملية التخطيط، القدرة علىٰ مواجهة الظروف المتغيرة، إخلاص القائمين علىٰ التنفيذ، التهيئة والإعداد النفسي، ونسىٰ المؤلف: عناية الله – إلا قليلا – وهي الأساس وفوق كل شئ.

كما ذكر الكاتب أن من مظاهر نجاح الهجرة: خسرت قريش موازين القوىٰ التي توارثتها علىٰ مدىٰ قرون وزال عنها سلطانها، لم تعد قريش حاجزاً في وجه الدعوة الإسلامية: إذ أسقطت ـ الهجرة ـ هيبتها من نفوس المستضعفين والخائفين سلفاً.

ذكر المؤلف في شجاعة أن الكتاب: جمع وإعداد، وليس تأليفاً خالصاً، وهذا يعفيه من النقد، لكن يُحمد له أن قدم لنا معاني كانت في حاجة إلىٰ التحقيق الذي خلت منه بعض كتب التراث التىٰ اهتمت بسرد الأحداث، لكنها حفظت لنا أهم

حدث في تاريخ الدعوة الإسلامية أن الهجرة حفلت بالكثير من المؤلفات عدا ما دونته كتب السيرة قديما وحديثا، وهذا ما جعل مهمة من يكتب عن الهجرة شاقة، إذ لابد من أن يضيف جديداً ونجح المؤلف في ذلك جهد استطاعته.

ويؤخذ على هذه الدراسة: أن المؤلف خرج على الموضوع الأساسي أحيانا، صحيح أن ما زاده تضمن معاني جديرة بالاهتمام، لكن كنا نود أن يربط الهجرة النبوية بالمعاصرة، فقد أصبحت الأمة المسلمة التي أرادها الله خير أمة أخرجت للناس – عاجزة حتى عن الدفاع في مواجهة التحديات الشرسة، وذيلا بعد أن كانت رأس، وتابعا بعد أن كانت متبوعاً.

وبقي أن نقول: إن المؤلف بذل جهداً كبيراً وشاقاً، وقدم لنا دراسة قيمة يحتاجها الشباب قبل الشيوخ.

وبقي سؤال يطرح نفسه: وفي أسىً مرير: أين نحن اليوم من الهجرة التي لم تكن نقطة تحول في تاريخ دعوة الإسلام – وحسب – بل كذلك أرادها الله – عز وجل – منهجا ومعنى وبرنامج عمل للمسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ودرسا يجب أن يعين المسلم في كل زمان ومكان... فهل يليق بنا أن لا نذكر الهجرة إلا أياما معدودات في كل عام: أحاديث ومقالات يغلب عليها التكرار شبه الممل ثم ننساها بعد ذلك.

وحسبنا هنا أن نتوقف عند قضية لها أهميتها، أعني قضية – أو محنة – الأقليات المسلمة في شتى بقاع المعمورة، والعديد من هذه الأقليات تُشَنُّ عليها حروب

إبادة شرسة، كما في الفلبين وبورما وتايلاند وغيرها، إن الله تعالى كتب علينا الجهاد من أجل إخوة لنا في العقيدة مستضعفين في الأرض، وفي سورة النساء ٧٥

[وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ القَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا] {النساء:٧٥}

ولا جدال في أن الجهاد هنا فرض عين لا فرض كفاية، وإذا كان عِقد الأمة الإسلامية اليوم انفرط، ولم يكن للدولة الإسلامية وجود، صرنا نحمل السلاح لا لنقاتل به الأعداء، بل ليقاتل به المسلم أخاه المسلم دونما اعتبار لتحذير الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لنا في خطبة حجة الوداع، ولا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض وقوله في الحديث الصحيح المتفق عليه: "إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قالوا يا رسول الله: هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصا على قتل صاحبه.

أقول إذا كنا عاجزين عن الجهاد المُسَلّح، فلماذا لا نلجأ إلى سلاح آخر – أعني جهاد المقاطعة، وهو سلاح له خطورته، وإذا كان هذا السلاح تقرر بالنسبة للثلاثة الذين خُلِّفوا عن غزوة تبوك وهم مسلمون، فمن باب أولى المعتدون على إخواننا من غير المسلمين والفاجعة التي ترتج لها السماوات السبع هي أننا أصبحنا أصدقاء لأعدائنا، نمنحهم الولاء ضاربين عرض الحائط بقوله تعالى محذرا في سورة المائدة

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ] {المائدة:٥١- ٥٢}

وأخيراً وليس آخراً

فليتنا نعى اليوم كلمات للشيخ شلتوت – رحمه الله – كانت الهجرة من بين الأحداث كلها جديرة أن تتجه إليها الأنظار، ويتخذ منها مبدأ للتاريخ الإسلامي، ليكون للمسلمين من ذكراها في كل عام، ومن التوقيت بها في مكاتباتهم وعقودهم وأحداثهم العامة والخاصة درس متصل الحلقات يساير حياتهم كلها.

تقديم آخر

بقلم الكاتب الإسلامي

أ/ أشرف محمد إبراهيم عويدات

أبو حمص – بحيرة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله... أما بعد

فإن الهجرة النبوية تُعَدُّ نقطة تحوُّل فاصلة؛هي ميلاد فجر دولةٍ مُمَكنة تتصل بربها لتقوم على تحقيق الأُسس والأحكام التي هي مراد الله تعالى في خطابه للمكلفين، وقد كانت كذلك؛ ولكن الأمة سرعان ما تخلت عن دورها. ولن ينصلح حالها في هذا الزمان إلّا بما صلح به أولها برجوعها إلى المنبعين الصافيين الكتاب والسنة.

وقد جاء هذا الكتاب(التربية الإسلامية في أحداث الهجرة النبوية) للأخ عبد الجواد أحمد السيوطي. والأمة أحوج ما تكون إلى إعادة النظر في سيرة رسولها ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسيرة أصحابه الكرام، ومن ثم إنزال مواقفهم على واقعنا المعاصر .

وهذا جهد بشري يقرب لنا الأحداث تشعرك عندما تقرأها كأنك تراها وتعيش فيها. وقد أجاد الكاتب غي عرضها بسهولةٍ ويُسر وقرّب إلى القارئ مضامينها، وجدد في قلوبنا الأمل في عودة الماضي المجيد.

أعلمُ أنه لن يخلو أي عمل بَشَريّ من من تعليق أو نقص قد لا يهدم العمل ولا ينقضه. لكن أرجو من الله ـ تعالى ـ أن يزيد هذا العمل للمكتبة الإسلامية فكراً وعمقاً في الفكر والتصور الإسلامي.

وأخيراً اللهَ أسأل أن ينفع الأمة الإسلامية بهذا العمل وهذا الجهد، وأن يُمَكِّن لنا ديننا الذي ارتضاه لنا، وأن يُمتّعنا بالحياة في ظلّ دولةٍ تحكم بشرع الله وأن يَعُمّ شرع الله أرض الله. عندها يفرح المؤمنون بنصر الله، ويشعر أعداء الله بأن الإسلام ـ حقيقة ـ للعالمين،لعلّ ذلك يكون سبباً في النجاة من سخط الله والفوز برحمته إنه وليُّ ذلك والقادر عليه؛ آمين... آمين...

مقدمة المؤلف

منذ سنوات وأنا أراقب عن كثب أحوال الأمة الإسلامية التي لا تَسُرّ أحد ـ اللهمّ إلّا الأعداء ـ أننا قد نسينا أوتناسينا أن الله أراد بهذه الأمة أن تكون خير أمة أخرجت للناس.

نسينا هذا وتحولنا إلى ما نحن فيه من تدهورٍ سياسيٍ وأخلاقيٍ وتربويٍ ...... والعلّة في ذلك أننا فَرَّطنا في جنب الله وانحرفنا عن منهجه، ولو أننا التزمنا المنهج الرباني لحققنا قول الله تعالى {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} {آل عمران:١١٠}

ـ ولم أكن ـ ولا غيري ـ في حاجة إلى جهد لكي نتعرف على ما فينا من علل، إذ أن الأمة الإسلامية اليوم لم تَعُد تهتم بالتربية الإسلامية المنشودة، والتي تضمنها كتاب الله عز وجل وأحاديث نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسيرة السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين – إلّا مَن رحم ربي –.

ـ والحق أن أحداث الهجرة النبوية تعتبر مرجعا عظيما للتربية الإسلامية بشتى ألوانها، وهذه التربية كانت العامل الأساسي في نجاح الهجرة، – ومن قبلها نجاح الدعوة في مكة– ففي هذه الأحداث نجد الثقة بالله أنبتت التضحية والبذل والفدائية والأمل المعقود في نصر الله لأوليائه ..

ـ الهجرة أيها المسلمون كانت بأمر الله عز وجل وتوجيهاته، وظل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أيّاماً وأيّاما ليتلقى الأمر بالهجرة التي تاقت نفسه إليها.

إن الهجرة الأولى والثانية إلى الحبشة لم تكن اعتباطا أو لمجرد فرار الأقلية المسلمة المستضعفة بدينها، ولكن هناك ما هو أسمى وأعلى، ألاوهو نيل رضا الله تبارك وتعالى وكذلك لأن يتعود المسلمون الأوائل على التمرس لما سيكون بعد ذلك..

أمّا لماذا اخترت الحديث عن التربيةالإسلامية من خلال حادثة الهجرة النبوية؟ فمرجع ذلك لأسباب منها:

١) أنني أردت دعوة المسلمين اليوم إلى التفكُّر والتدبر لبعض صفحات التاريخ الإسلامي وبخاصة الصفحات المضيئة ـ وتاريخنا كل صفحاته مضيئة ـ في تاريخ الهجرة النبوية، لكي يتعرفوا على سنن الله في خلقه وسننه في كونه، هذه السنن التي لا تتبدل ولا تتغير ولا تُحابي أحداً مهما كان...

٢) من الجدير بالذكر أن الهجرة تبين لنا الرابط بين التوكل على الله والأخذ بأسباب الحياة، ومرونة الإسلام حين ترى أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ استعان بمشرك ليكون دليله في مسيرة الهجرة، وهذا مما ينفي على الإسلام أي دور من التعصب وفي نفس الوقت أن الإسلام يرى أن الكفاءة مقدمة على كل شئ...

٣) النظر في تاريخ الإسلام وبخاصة سيرة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجعلنا كأننا ننظر في المستقبل فإذا ما قرأنا موضوعا كالهجرة نكون علمنا بأن الله قد حدد لنا العواقب المترتبة على الأحداث، والمؤمن

الناجح يعرف أن النبي وأصحابه تعاملوا مع سنن الله الكونية، حتى يسود المسلمون العالم كما ساده الأولون...

٤) أن الإنسان يحتاج دائما إلى التذكير بشئون دينه ودنياه ليعمل جاهداً بدَأب وَهِمّة عالية، لكي يصل إلى هدفه الذي خلقه الله من أجله يقول الله تعالى: [**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**] {الذاريات:٥٥}

والله الموفق

أبو محمود عبدالجواد أحمد السيوطي

أسيوط – ديروط – نجع سويلم

الهجرة النبوية

أولاً صفة الهجرة إجمالاً كما حدثت مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "لما اقبل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة، وهو مردف أبا بكر، وأبو بكر شيخ يعرف، ونبي الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شاب لا يعرف قال: فيلقي الرجل أبا بكر رضى الله عنه، فيقول يا أبا بكر من هذا الذي بين يديك؟ فيقول هذا الرجل يهديني السبيل، قال: فيحسب الحاسب أنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير فالتفت أبو بكر فإذا هو بفارس قد لحقهم فقال: يا رسول الله: (هذا فارس قد لحق بنا) فالتفت نبي الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: اللهم أصرعه فصرعه الفرس ثم قامت تحمحم فقال: (يا نبي الله مرني بما شئت) فقال: فقف مكانك لا تَتْرُكَنّ أحدًا يلحق بنا فكان أول النهار جاهدًا على نبي الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان آخر النهار مسلحة له"رواه البخاري وغيره ..

أقول:

(١)

لم تكن الهجرة من مكة إلى المدينة مجرد رحلة انتقل بها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بلد إلى بلد، ولكنها خُطة وفكرة غيرت مجرى التاريخ، بل ورسمت للحياة وجها جديداً، وبها فرق الله بين الحق والباطل، فكل خطوة من خطوات الهجرة

تعتبر مَعْلماً واضحاً على طريق النضال والجهاد في سبيل المبادئ الإسلامية خاصة والإنسانية عامة، والمُثُل العُليا، وأحداثها الجليلة منار هدى لعشاق الفضيلة والباحثين عن مكارم الأخلاق، ولقد كانت وقائع الهجرة تجري بعين الله تعالى وتتم خطواتها في حراسة السماء، وكان المهاجر العظيم – صلوات الله وسلامه عليه – معصوماً من كل سوء ورَدى، أنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم ترها العين، فقد أجمعت قريش أمرها على قتل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وذلك بأن يأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلداً فيضربوه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه بين القبائل، وفي الليلة التى اعتزموا فيها تنفيذ مؤامراتهم، أتاه جبريل – عليه السلام – فقال: له لا تَبِت على فراشك الذي كنت تبيت عليه، فأسر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى علي بن أبي طالب بهذا السّر الخطير لكما يعلم من شهامته وشجاعته، وحبه لله ولرسوله، أسَرّ له النبيّ أن يتسجى (يتغطى)ببردته الحضرمية الخضراء، وأن ينام على فراشه، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينام في بردته تلك إذا نام، وقال: له: "إنه لن يُخلَصَ إليك بشيء تكرهه منهم".

(٢)

ثم خرج الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخذ الله أبصار الأعداء فلم يروه ثم اتجه – صلوات الله وسلامه عليه – وصاحبه أبو بكر إلى غار ثور، وخرج القوم يبحثون عنهما في كل اتجاه حتى وصلا إلى الغار، وأحاطوا به فلما شعر أبو بكر بدنو الباحثين، رأى أقدامهم تخفق على باب الغار، قال: للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هامساً: "لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا" فأجابه

الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في إيمانٍ بالله وثقة بوعده: "يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!!! وبهذه العناية عصم الله نبيه، فمن الذي أخذ بأبصار المشركين فلم ينظروا تحت أرجلهم ولو فعلوا لرأوا طلبتهم المنشودة؟!! ومن الذي سَمّر أرجلهم في الأرض، فلم يتقدموا نحو فم الغار؟ ومن الذي صرفهم عن الغار وقد هَمّ بعضُهم بدخوله؟ أليست هي الوقاية من الله؟ وهي لعمري ركن شديد، قال الشاعر:

وقايةُ الله أَغنت عن مُضَاعَفةٍ   من الدُّروعِ ومن عالٍ من الأطمِ

أليست هي العناية؟ أليس هذا هو لطف الله الدقيق الذي يحول أسباب الهلاك إلى فوز ونجاة؟[١]

واختفى منهم على قرب مرأى   ومن شدة الظهور الخفاءُ!!

(٣)

ومن المواقف الخالدة التي يزدحم بها طريق المهاجر العظيم، أن التقى بهذا الموكب المَهيب، رجلٌ من المشركين، يَعرف أبا بكر،ولا يعرف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان أبو بكر معروفا لأهل الجهات لتردده في التجارة بخلاف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقال: الرجل لأبي بكر: من هذا الذي معك؟ ولم يشأ أبو بكر أن يُخبر بغير الصدق، أو يسمي الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بغير اسمه، فأخذ بالتورية أو المعاريض، وذلك تَرَفُّعاً عن الكذب، وتَنَزُّهَاً عن مخالطته أدنى مغالطة، وتحاشياً عن الوقوع فيه ولو في أبسط صورة قد تُمْلِيهَا المصلحة العامة،

---

١ مجلة الوعي الإسلامي ص ٧ عدد ١٢١ سنة ١٣٩٥هـ ، ١٩٧٥م.

فقال: هذا الرجل هادٍ يهديني السبيل!، ومن هذا الحوار الذكي من أبي بكر الصّديق، فَهِم السائل أن المصاحب لأبي بكر، دليلٌ ماهر، يجيد التعرف على مسالك الصحراء ودروبها، بينما يقصد أبو بكر أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يهديه سبيل الرُشد والفلاح وتلك هي المعاريض التي أرشد إليها الإسلام ليتحصن بها المسلم من الوقوع في الكذب ـ إن اضطُرّ المرءُ لذلك ـ، وفي الأثر عن عمر بن الخطاب وعمران بن الحصين "إن في المعاريض ما يغني عن الكذب"[1] قد استخدمها أبوبكر الصديق رضي الله عنه، وهو في طريق الهجرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. روى الإمام البخاري في صحيحه والإمام أحمد في مسنده عن أَنَس بن مالك رَضيَ الله عنه قال أَقبَلَ نَبيُّ الله إلى المَدِينَةِ وهوَ مُردِفٌ أبا بَكر، وأَبو بكر شيخ يُعرَف، وَنَبيُّ الله شابٌّ لَا يُعرَف، قال فَيَلقَى الرَّجلُ أبا بكر فَيَقول يا أبا بكر مَن هَذا الرَّجُل الذِي بَينَ يَدَيك؟ فَيَقول هَذا الرجُل يَهديني السَّبيل، قال فَيَحسِبُ الحاسِبُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَعني الطَّريقَ، وَإِنَّما يَعني سَبِيلَ الخيرِ.

وقد حدث مثل هذا في غزوة بدر، فقد خرج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه بعض أصحابه (لعله أبوبكر)، ليستطلع أمر الأعداء، فوقف على شيخٍ من العرب، فسأله عن قريش، وعن محمد وأصحابه؟ وما بلغه عنهم؟ فقال: الشيخ لا أُخْبِرَكما حتى تُخبِراني ممن أنتما؟

---

[1] رواه البيهقي في السنة.

فقال: الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: "إذا أخبرتنا أخبرناك"، قال: "أو ذاك بذلك"؟ قال: نعم، قال: الشيخ: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني قد صَدَقني، فهُم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حقيقةً ، قال الشيخُ: وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان الذي أخبرني قد صدقني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا، فلما فرغ من خبره قال: للرسول وصاحبه: وممن أنتما؟ فقال: له رسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ "نحن من ماء" وتركه النبي وانصرف، يعني صلوات الله وسلامه عليه الماء الذي خُلِق منه كل إنسان، ثم انصرف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الرجل، والرجل يقول في نفسه: من ماء؟ أيُّ ماء؟ أَمِن ماء العراق؟ أم من ماء كذا وكذا؟[1]

(٤)

وقد أوى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى غار "ثور" ومعه صاحبه أبو بكر – رضى الله عنه – استعداداً للهجرة، أمّا مشركوا مكة فهم يبحثون عنهما في كل فج، ويترصدون لهما كل طريق، ولما داخلهم اليأس من العثور عليهما، قفلوا راجعين، يتجرعون مرارة الخيبة وقسوة الحرمان!

فمكث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الغار ثلاث ليال، ثم استأنف المهاجران العظيمان رحلتهما الشاقة في أرجاء الصحراء المترامية، ولم يَسلُكا الطريق المألوف متجهين إلى الشمال حيث المهجر، بل سار الركب منحدراً إلى الجنوب

---

[1] زاد المعاد لابن القيم ج٣ وسيرة ابن هشام الوعي الإسلامي ص ٩

أسفل مكة، موالياً شطر اليمين، ثم هو يتجه إلى تِهامة، حتى يقترب من شاطئ البحر الأحمر، ثم يتجه شمالاً في محاذاة الساحل، ثم يوغل في الصحراء صوب يثرب، كل ذلك أخذا للحذر وصرفاً للأنظار، وتعمية على الباحثين الطالبين من المشركين، (والأهم من ذلك والأعظم أنّ هذا إنما هو تشريعٌ لنا في كلّ زمانٍ ومكان وأَخْذَاً بالأسباب المادّية مع حسن التوكل على الله) غير أن المشركين وقد شَقّ على نفوسهم أن تَبُوءَ محاولتهم بالفشل، لجأوا إلى المكافأة السَّخِيّة، يبذلونها لمن يقبض على المُهاجِرَين الكَرِيمين، ومعناه أن مَن قَتَلَهما أو أَسَرَهُما مَعَاً كان له مائتان من البعير، وتلك مكافأةٌ مُغرِيَة تجلب لها أشداق الطامعين، وتحملهم على اقتحام المخاطر للظفر بها، وفي هذا ما فيه من استنهاضٍ للهِمَم لِتَجِدّ في البحث والطَّلب لتظفر بالغنيمة المرصودة، وكان النبي - صلوات الله وسلامه عليه - يعلم أن الأعداء سيتعقبونه في كل مكان يُتوقع أن يكون مهرَباً للنبيّ وصاحبه، فالتزم في سيره – كما ذكرنا – جهة الساحل، وسلك طريقا غير مألوفٍ للقوافل والمارّة، ومر في طريقه على "حي بن مُدلج" وهناك رآه رجل منهم فمضى إلى مكة يذيع الخبر يقول سراقة بن مالك بن جُعشم المُدْلجي: "بينما أنا جالس في مجالس بني مُدلَج "بقرير" مكان قريب من (محافظة رابغ الآن) إذ جاءتنا رُسُل من قريش، يُجعِلُون ـ يرصدون أموالاً ـ في رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبي بكر دية كل واحد منهما وهي مائة ناقة لمن قتله أو أسره، ثم أقبل رجلٌ من عشيرتي فقال رأيت أسودة أي أشخاصاً بالسواحل، أراهم محمداً وأصحابه، فعرفت أنهم هم، فأومأت إليه يعني أن اسكت، ثم قلت: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت

فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا في طلبٍ لهم، قال: لعله كما تقول ثم سكت.. فمكثت قليلاً، ثم قمت فدخلت منزلي، فأمرت جاريتي أن تخرج فرسي خِفيَة إلىٰ بطن الوادي وتحبسها عليٰ، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت، وحاول سراقة في مغامرته أن يبالغ في إخفاء أمره علىٰ الناس، حتىٰ لا ينكشف سره، فيتبعه أحد، فيشاركه في قتلهما أو أسرهما، فخرج من بابٍ خلفي يأخذ طريقه نحو فرسه الذي قد أعده في مكان بعيد، وحين أمسك برمحه، لم يجعله قائماً في يده لئلا يظهر بريقه لمن بَعُد عنه، بل خفض عاليه وجعل يخط بزجه في الأرض ومضىٰ يجره وراءه، حتىٰ وصل إلىٰ فرسه فركبها، كلُّ ذلك مبالغة في الإحتياط لنفسه حتىٰ لا يعلم به أحد، ثم انطلق بها وهي تنهب الأرض نهباً، يدفعها غرور صاحبها الذي كانت تساوره الأحلام في إدراك الغنيمة والظفر بالأجر، وفجأة عثرت به فرسه، فألقت به علىٰ الأرض، فنهض كالمحموم وهو يقول: ما هذا! ثم أخرج قِداحه يستقسم بها، ليستكشف من أنبائها حُجُبَ الغيب، فيرىٰ ماذا يُخَبِّئ له المستقبل؟ ـ كما كانوا يدّعون ـ فخرج السهم الذي يَكْرَه، فأبىٰ إلّا أن يمضي في طريقه ولم يأخذ بالأزلام، ثم عاد إلىٰ فرسه فركبها، وهو يحاول أن يجمع عزيمته المغلولة! ثم مضىٰ حتىٰ اقترب من الرسول الكريم وصاحبه الصديق.

وكان الرسول ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ مشغولا بقراءته ودعائه، يسير إلىٰ الأمام ولا يلتفت، وأبو بكر رضى الله عنه يكثر الالتفات حذراً من الطّلَبِ وخوفاً علىٰ الرسول، فقال: يا رسول الله: "هذا فارس قد لحقنا" فقال: ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ "اللهم أكفناه بما شئت.. اللهم اصرعه، فساخت قوائم فرسه حتىٰ بلغت

الركبتين.. وتدحرج الفارس الجسور- سُراقة - على الأرض، وفرسه بجانبه يحمحم، يقول سراقة "فركبت في أثره فلما بدا لي القوم ورأيتهم عثر بي فرسي، فذهبت يداه في الأرض بل إنّه قيل إنها ساخت قدما فرسه في الصخر حتى بطنه إكراماً لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وسقط سُراقة عنه، ثم انتزع يديه من الأرض وتبعها دخان كالإعصار[1] يقول سُراقة فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد مُنِعَ مني وأنه ظاهر.

ولما وقع في نفس سراقة أن الرسول حق، اعتذر إليه، وطلب الأمان منه، وصاح قائلا: أنا سراقة بن جُعشم انظروني أكلمكم، فوالله لا يأتيكم مني شئ تكرهونه فقال: رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبو بكر "وما تبغي منا؟!"

قال: سراقة قلت يا محمد لقد فَعَلت قريشٌ كذا وكذا من أجلكما ـ يعني ما رصدته من مالٍ لمن يأتي بهما ـ فقال النبيّ الواثق بربه لسراقة: لا يا سُراقة إن الله ناصري عليهم ومُظهرٌ أمره هذا، فقال سُراقة يا محمد اصدُقني آالله ناصرك على هؤلاء جميعاً قال النبيّ نعم ياسُراقة، فقلت له : اكتب لي كتاب أمانٍ بهذا ، وذلك ليأمن على نفسه وماله، لما رأي من ظهور أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال سراقة أوَ ناصرك الله على قريش والعرب جميعا، قال نعم: ثم قال له الرسول: كيف بك يا سُراقة إذا تسورت بِسُوارَي كسرى" ؟ لم يصدق سراقة أذنيه وهو يتلقى هذا النبأ المذهل؛ فقال: يا محمد كسرى بن هرمز ؟ قال: الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ نعم ،فكرّرها ثلاثاً، والنبيّ في كلٍّ يقول له نعم

---

[1]) الإعصار: ريح شديدة معها غبار.

كسرىٰ بن هرمز، لقد أحس الرجل أن كيانه يوشك أن يذوب من هول ما يسمع وأنه لأمرٌ يدعو إلىٰ العجب حقا .. سراقة بن جُعشم، العربي البدوي الذي لا يجول بخاطره أن تواتيه لحظة في حياته، يستطيع فيها أن يقترب من ديوان كسرىٰ، يُبَشَّر الآن بأنه سيلبس سواري كسرىٰ الملك العظيم!! الذي يركع الداخل عليه من أول البساط الموضوع علىٰ بعد مسافاتٍ كبيرة حتىٰ يصل إلىٰ المكان الذي يجلسُ عليه كسرىٰ ولا يرفع الداخل عليه رأسه حتىٰ يقول له كسرىٰ ارفع رأسك، سُراقة يُبَشّرُ بأنه يلبس سواري كسري، ومِمَن؟ من رجلٍ وحيد طريدٍ شريد ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ ولكن لماذا العجب؟ أليس الخبر خبر السماء؟ أليس من نبيٍّ يثق في موعود الله ويُبلغ عن الله سبحانه وتعالىٰ؟ والأعجب أن سراقة صدق ما قاله له النبي وطلب أن يكتب له بهذا كتاباً!! لأنه الصادق المصدوق ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ ثم عرض سراقة عليهما الزاد والمتاع، فلم يقبلا شيئا منه وقالا: لا حاجة لنا إلىٰ زادك وطعامك، ولكن عَمّ عنا الطلب، فقال: قد كُفِيتُم! ثم قال الرسول لأبي بكر ـ رضى الله عنه – اكتب له كتاب يا أبا بكر.

فكتب له عامر بن فهيرة، كتابا في رقعة من أَدَم – بفتح الدال – ثم ألقاه إليه، فأخذه فجعله في كنانته ثم رجع فوجد الناس جادين في البحث عن الرسول ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ وصاحبه، فجعل لا يَلقىٰ أحدا من الناس يُقابله ويعلم أنه يريد النبي وصاحبه إلّا قال له: كُفيتم هذا الوجه، لقد اختبرت هذا الطريق فلم أجد أحداً"

(٥)

ودارت الأيام وتحققت المعجزة، يقول سراقة: "لما كان فتح مكة على يد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وفرغ من حنين والطائف، خرجت ومعي الكتاب لألقاه، فلقيته بالجِعِرّانة([1]) فدخلت في كتيبة من خيل الأنصار فجعلوا يقرعونني بالرماح ويقولون: إليك.. إليك، ماذا تريد؟ فدنوت من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو على ناقته، فرفعت يدي بالكتاب، وقلت يا رسول الله ، هذا كتابك لي، أنا سراقة بن جعشم فقال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يوم وفاء وبر.. فدنوت منه وأسلمت..

وبعد أعوامٍ تلتها أعوام فُتحت بلاد فارس في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وجئ له بأموالها وبسواري كسرى وتاجه وبساطه، قال عمر بن الخطاب انظروا رجلاً طويلاً من المسلمين حتى نُلبِسَهُ ملابس كسرى حتى نرى كيف كان كسرى في ملكه وسلطانه، فبحثوا فلم يجدوا أحداً أطول من سراقة وكان يعمل في حقله فطلبوه، إن أمير المؤمنين عمر يريدك في حاجة، فأسرع سُراقة إلى عمر، فقال: إلبس يا سراقة هذه الكُسوة واجلس على هذا العرش فقام عمر وألبسه بيديه فلما لبس سُراقة سواري كسرى وتاجه ولباسه وجلس على العرش الذي كان يجلس عليه كسرى بكى سراقة، فقال له عمر مايُبكيك يا سُراقة في مثل هذا اليوم؟ قال: يا أمير المؤمنين لقد اتبعت الرسول وهو مهاجر إلى المدينة ....

---

[1]) بالجعرانة: بكسر الجيم وسكون العين بين الطائف ومكة: وهو إلى مكة أقرب. وقد نزلها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرجعه من حنين لما قسم غنائم هوازن.

وحكىٰ ماحدث له مع النبي وصاحبه أبو بكر الصديق وقد أعطاني بذلك كتابا وأخرج سراقة الكتاب الذي معه من النبي لعمر، ثم قال: الحمدلله الذي سلب ملك كسرىٰ وأعطاه لنا فبكىٰ عمر والصحابة رضي الله عنهم جميعاً،وفي رواية أخرىٰ، أن سيدنا عمر قال أين سراقة ؟ قال سراقة فلما وقفت بين يديه قال: له ارفع يديك.. ثم ألبسني السوارين وقال له : قل الحمد لله الذي سلبها كسرىٰ بن هرمز الذي كان يقول: أنا رب الناس، وألبسهما سراقة ابن مالك وأخذ عمر يرفع صوته بهذا النداء تحقيقاً لوعد الله، ووفاء بعهد رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ هذا ...

ـ يُستفاد من هذا الموقف من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

١ ـ الثقة التي لامنتهىٰ لها عند رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ في نصر الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ له دائماً يجب علينا الإقتداء به.

٢ ـ إن الله ناصرٌ دينه ومُعِزٌّ أهله علىٰ مرّ الزمان والدهور.

٣ ـ قد يأتي الخير الكثيرُ من الشّرِّ ـ فيما يظهر للناس ـ كما حدث للنبيّ في هجرته معه سُراقة بن مالك.

٤ ـ قد يكون من جنود الله الذين يَنصرُ الله بهم دينه ودعوته ـ في كلّ زمان ومكان ـ من غير المسلمين كما كان سُراقة الذي لم يكن مسلماً آنذاك (وانظر الآن في عصرنا من الذين يمنعون الحجاب أو المآذن ومَن يُضيّقون علىٰ الدُّعاة المسلمين في كثير من بلاد العالم، أليس كلّ هذا الذي يحدث يجعل الكثير من غير المسلمين

يسألون عن الإسلام بل ويدخلون فيه ؟) إن الله لينصر هذا الدين بالرجل الفاجر – أو قال الكافر.

٥ ـ الذنوب سبب الهلاك دائماً ومن أعظم أسباب السَّلب بعد العطاء فقد سلب الله مُلك كسرىٰ فارس وأعطاه لسراقة بن مالك ؟ والسبب عصيان كسرىٰ وطاعة سراقة ـ فما نزل بلاءٌ إلّا بذنبٍ وما رُفع إلّا بطاعة ـ.

٦ ـ ليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب، إلّا طاعته والعمل بما أمر والإجتناب عمّا نهىٰ عنه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ فما الذي حدث لكسرىٰ فارس وغيره إلّا لفعلهم المنكرات وعدم طاعتهم لله وهكذا يحدث مع مَن يعمل بعملهم.

٧ ـ سُنّةُ التّشريع في شخص النبيّ ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ في كيفية الأخذ بالأسباب مع التوكل علىٰ الله تعالىٰ ـ فكما قيل: عدمُ الأخذ بالأسباب قدحٌ في الشّريعة والاعتماد عليها قدحٌ في العقيدة ـ

٨ ـ حُبّ الصحابة الشّديد ـ وعلىٰ رأسهم أبو بكر الصّديق ـ للنّبيّ ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ إذ كان يمشي من خلفه ومن أمامه وعن يمينه ويساره كما كان كثير الالتفات والنبيّ لا يلتفت، ولما سُئل عن هذا قال أتذَّكر الرّصد فأمشي أمامه وأتذكر الطّلب فأمشي خلفه ، وقال يا رسول الله إنما أنا إن مِتُّ فأنا فرد واحد ، إنّما أنت أمّةٌ يا رسول الله ـ فرضي الله عن أبي بكر وعن الصحابة أجمعين ـ .

٩ ـ ثقة الجنديُّ في القيادة، وحب القيادة للجنود وخوفه عليهم وحرصه علىٰ سلامتهم، تمثّل ذلك في أبي بكر مع الرسول والرسول مع أبي بكر، إذ لو لم يكن هذا الأمر متوفراً عند كليهما لفسدة الخطة ولاكتشف الكفار الأمر .

١٠ ـ حُسن اختيار الصّدِيق، المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يُخالل، وكما قيل ـ الصّديق وقت الضّيق ـ وصديقك قطعةٌ من ثوبك فانظر بأيّ شيءٍ ترقع ثوبك،تمثّل ذلك في النبيّ وصديقه أبوبكر الصّديق، وأعظِم بها من صُحبة وصداقة في الله وعلى الله .

١١ ـ صدق الداعية في قوله وعمله مع الله ومع الناس يجعل الجميع يصَدّقونه حتى ولو كانوا من الكافرين، لذلك صدّق سراقة بن مالك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كلّ ما أخبره به مع أن النبيّ وقتها كان وحيد مهاجراً(مع أنّ سراقة كان على الكفر يومها) كيف لا والنبي كان يُلَقّب بينهم بالصّدق المصدوق، وهذا درس هامٌّ لكل داعية، نسأل الله أن يُبصّرنا بعيوبنا وأن يُفقّهنا في ديننا، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه .

(٦)

أقول: ومع أن الهجرة قد تَجلّت فيها سياسته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكياسته، وحسن تدبيره للأمور وتقديره لها، فقد خطط للهجرة تخطيطاً دقيقاً وقدّرَ لكل خُطوة فيها أسباب نجاحها، وما تُفضي إليه من غاية، ووضع كل جندي من جنود الهجرة، في مكانه المناسب، وأناط به العمل الذي تظهر فيه قدرته وخبرته، وبذلك نجحت الهجرة، ومنحها الله التوفيق، إذ الأخذ بالأسباب مأمورون به شرعاً. قال تعالى [**إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ**

بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] {التوبة: ٤٠}

ثم سار حتى وصل إلى المدينة المنورة وعمل بها أعمالا منها، أنه بدأ ـ صلى الله عليه وسلم ـ منذ دخوله المدينة، يسعى إلى إنجاز المهام الملقاة على عاتقه في مطلع المرحلة الجديدة من الدعوة الإسلامية، المسمّاة تاريخياً بالمرحلة المدنية، والتي تستهدف إنشاء (الدولة الإسلامية) على أسس راسخة واضحة المعالم، وتهيئة وتذليل كافة الصّعاب، والمتطلبات والوسائل التي يقوم عليها تحقيق هذا الهدف السامي الكبير، فماذا فعل ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟

لقد كان بناء المسجد هو الخطوة الأولى على هذا الطريق ثم أعقب هذه الخطوة المباركة خطواتٍ وخطوات منها المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ثمّ إصدار الوثيقة (القانون الدولي الآن) بين المسلمين وغير المسلمين (يهود المدينة) وتشكيل(جيش) إسلامي قويّ قادر على حماية الدولة الإسلامية الناشئة من المعتدين، ويساعد على تحقيق أهدافها في الوقت نفسه([1]) أو إن شئت فقل: عندما وطِئت قدماه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يثرب ـ المدينة المنورة، بدأ بما لابد منه وهو تحقيق ثلاثة أهداف كبرى، لابد منها لقيام أي دولة إسلامية حقيقية في أيّ عصرٍ من العصور، فما هي هذه الأهداف؟

هذه الأهداف هي:

(١)علاقة المؤمن بربه، فبَني المسجد.

---

[1] انظر الوعي الإسلامي ص ١٢ بتصرف.

(٢) علاقة المسلم بأخيه المسلم:

فكانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، كما كان قبلها المؤاخاة بين المهاجرين والمهاجرين.

(٣) علاقة المسلم بغير المسلم (اليهود في المدينة وقتها)

كانت الوثيقة بين المسلمين واليهود، أو ما يُسمّىٰ بالعلاقات الدولية أوالقانون الدولي الآن.

ـ أولاً:علاقة المسلم بربه (بناء المسجد):

دخل رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ المدينة في ضُحي يوم الإثنين الموافق الثاني عشر من شهر ربيع الأول بعد ثلاث عشرة سنة من مبعثه، وكان راكباً ناقته (القصواء)، وكلما مر بعشيرة من الأنصار رَجَوْه أن ينزل فيهم وأمسكوا بخطامها، وقالوا: يا رسول الله عندنا العَدد والعُدة والمَنَعة، فيجيبهم: خلوا سبيلها – أي الناقة – فإنها مأمورة، فجاوزت به ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ بني سالم بن عوف، وبني بياضة، وبني ساعدة، وبني الحارث بن الخزرج، وبني عدي بن النجار، حتىٰ إذا أتت دار مالك بن النجار بَرَكَت في المكان الذي بَنىٰ فيه الرسول ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ مسجده، وكان يومئذ مربداً لغلامين يتيمين من بني النجار يربيهما معاذ بن عفراء، فنزل عنها الرسول ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ وحمل أبو أيوب "خالد بن زيد" رحله ووضعه في بيته حيث نزل الرسول ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ ضيفاً عنده لحين إتمام بناء المسجد والحجرات التي أقام فيها الرسول ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ وأهله بعد قليل، وعندما سأل عن المربد لمن هو؟ أجابه معاذ بن عفراء: هو يا رسول الله لسَهل وسُهَيل ابني عمرو، وهما

يتيمان لي، وسَأُرضيهما عنه فأبى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأخذه إلّا بثمنه، فاشتراه منهم فاتخذه مسجداً[1] .

عند ذلك أصدر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمره في البدء ببناء المسجد، وأسهم بنفسه في العمل جنباً إلى جنب مع المهاجرين والأنصار ـ وانظر إلى حكّامنا ومسؤلينا الآن الذين لا يُرونَ إلّا عند وضع الأساس وعند الإنتهاء، وانظر للباسهم وما أدراك ما يلبسون، والعمال يعملون ولا يرون أحداً من هؤلاء المسؤلين ـ وعندما رأي الصّحابة رسولهم الكريم يجهد كما يجهدون، ويعمل كما يعملون بل وأكثر، نشَطوا في أداء المهمة وراحوا ينشدون:

لئن قعدنا والرسول يعملُ لذاك منا العملُ المضللُ

لا عيش إلا عيش الآخرة ... اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة

فيجيبهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللهم ارحم المهاجرين والأنصار

وسرعان ما غدا (المسجد) رمزا لما يَتَّسِم به الإسلام من شُمُوليّة وتَكامل، فقد أصبح مركزاً روحياً لممارسة الشعائر وأداء العبادات، ودائرة سياسية عسكرية لتوجيه علاقات الدولة في الداخل والخارج، ومدرسة علمية وتشريعية يجتمع في ساحتها أصحاب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتُدارُ في باحاتها الندوات والدروس العلميّة، وتُلقى على منابرها المتواضعة التعاليم والمواعظ، كما صار مؤسسة اجتماعية يتعلم المسلمون فيها النظام والمساواة والعدل، ويمارسون التوحيد والإخاء والانضباط في السّلوك والأخلاق والعبادات، ومما لا ريب فيه

---

[1] السيرة النبوية للصلابي ج١ ص٤٩٤ وما بعدها. رواه البخاري كتاب بدء الخلق باب هجرة النبي وأصحابه ص ٧٨.

أن (نقص) أموال الدولة الإسلامية في سنينها الأولى، وانشغالها الدائم في الداخل والخارج، لم يمكنها من بناء وإنشاء مزيد من المؤسسات المتخصصة لكي تمارس كل منها المهمة التي عهدت إليها، الأمر الذي جعل المسجد يزدحم بالوظائف والمهام ويغدو ـ على بساطته ـ (مُجَمّعا) تُلتَقَي فيه وتصدر منه كافة فاعليات الحكومة وجزءاً من نشاطات الجماعة المسلمة في علاقتها الداخلية والخارجية على السواء. فمتى ترجع مساجدنا الآن لسابق عهدها؟ (ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا).

إذن: لقد كان بناء المسجد هو الخلية الأولى للبناء الإجتماعي للأسرة والجماعة المسلمة، بوصفه أداة ينصهر فيه المسلمين بالإسلام في وحدة فكرية واحدة، من خلال حلقات العلم والقضاء والعبادة والبيع والشراء وإقامة المناسبات المختلفة، فلم يكن المسجد أبداً في الإسلام معبداً أو مقراً للصلاة وحدها وفقط، بل كان شأنه شأن الإسلام نفسه، متكاملاً في مختلف جوانب الدين والسياسة والاجتماع وغيرها[1].

يُستفاد مما سبق على سبيل الإجمال:

١ ـ أن المسجد في الإسلام ليس مكان للعبادات وفقط، فهذا ما يُريده الأعداء المتربصون بهذه الأمة، ألّا يخرج الإسلام من المسجد ليكون واقعاً عمليا في حياة المسلمين.

---

[1] الوعي الإسلامي ص ١٢ السيرة النبوية د/ على الصلابي ج١ ص ٥٣٩ بتصرف.

٢ ـ يُعرف الرّجال بكثرة تردّدِهم على المساجد وذلك لأنها مصنع الرّجال الحقيقيون، الذين ينتصر بهم الإسلام فعلاً لا المقاهي ولا آلات اللّهو واللّعب كم نرى.

٣ ـ المسجد بالنسبة للمسلمين هو صلةٌ بين العبد وربّه، ومكان التقاء المسلمين بعضهم بعضا، ومن ثمّ شُرِعت الجماعة للصلاة بالمسجد وفضلت على الفرد.

٤ ـ المسجد تَخرّج منه الصحابة الأوائلُ كأبي بكر وعمر وعثمان، وتدرب فيه العمالقة المجاهدين من سلفنا الصالح كخالد بن الوليد، وعمر بن العاص وعليّ بن أبي طالب، وفيه تعلّم تُرجُمان القرآن ابن عباس وعالم الفرائض زيد، وعالم الحديث أبوهريرة، وتربى فيه شباب الإسلام كسلمة بن الأكوع والأرقم بن أبي الأرقم وغيرهم وغيرهم.... رضي الله عنهم أجمعين.

٥ ـ يُراد لأُمّة الإسلام أن تبتعد عن سرّ نهضتها، وهو المسجد الذي تخرّج فيه ومنه الرّجال من سلفنا الصّالح، فلنتنبّه جميعاً لهذا، ولنُرَبّ أبناءنا فيه، ولنأخذهم إليه، ولنعلّمهم كتاب الله في بيت الله.

٦- - من وقائع الهجرة من مكة إلى المدينة تبين لنا أنه صلى الله عليه وسلم ما أقام بمكان إلا كان أول ما يفعله بناء مسجد يجتمع فيه المؤمنون، فقد أقام مسجد قباء حين أقام فيها أربعة أيام، وبنى مسجدا في منتصف الطريق بين قباء والمدينة لما أدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن الوادي « وادي رانوناء».

فلما أن وصل إلى المدينة، كان أول عمل عمله بناء مسجد فيها.

وهذا يدلنا كما يقول - الدكتور مصطفى السباعي- على أهمية المسجد في الإسلام، وعبادات الإسلام كلها تطهير للنفس، وتزكية للأخلاق، وتقوية لأواصر التعاون بين المسلمين، وصلاة الجماعة والجمعة والعيدين، مظهر قوي من مظاهر اجتماع المسلمين، ووحدة كلمتهم، وأهدافهم، وتعاونهم على البر والتقوى، لا جرم أن كان للمسجد رسالة اجتماعية وروحية عظيمة الشأن في حياة المسلمين، فهو الذي يوحد صفوفهم، ويهذب نفوسهم، ويوقظ قلوبهم وعقولهم، ويحل مشاكلهم، وتظهر فيه قوتهم وتماسكهم.

(٧)

ثانياً: علاقة المسلم بأخيه المسلم (المؤاخاة):

خَطا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطواته الأخرى التي أراد أن يحل بها الأزمة المعيشية التي اجتاحت المهاجرين بعد مغادرتهم بلدهم العزيز عليهم مكة، وينظم علاقاتهم الاجتماعية بإخوانهم الأنصار، وريثما يستعيد المهاجرون مقدّراتهم المالية، ويتمكنون من بلوغ مستوى الكفاية الاجتماعية، فماذا فعل حبيبنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ اعتمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسلوب المؤاخاة والمشاركة بين الطريفين وقال: تأخوا في الله أخوين أخوين، فكانت مؤاخاة أبو بكرالصّديق مع خارجة بن زيد وعبدالرحمن بين عوف مع سعد بن الربيع[1] وغيرهم وغيرهم... ـرضي الله عنهم أجمعين.

[1] السيرة النبوية للصلابي ج ١ ص ٥٢١ نقلاً عن بن هشام.

إذن لقد كان (الإخاء) في الإسلام تجربة رائدة في تاريخ العدل الاجتماعي، ضرب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيه أروع الأمثلة على مرونة الإسلام وانفتاحه ـ على الآخر ـ في الوقت المناسب، وعلى أفضل أشكال العلاقات الاجتماعية مساواة وعدلا، فقد وَرَد فيه المنطق الإلهي الذي لا يُحابي أحداً، ولِيَرُدّ على كل القائلين بأن الإسلام جاء لكي يمثل إصلاحاً جزئياً للمسألة الاجتماعية، لأن العصر الذي تصوغه وسائل الإنتاج لم يتح له أن يتحرك لصياغة عالم جديد من العلاقات لم تسمح (المرحلة الإنتاجية) بَعدُ صياغته، ولم تأمر بها فهناك المزيد من التجارب الاجتماعية التي تصفع هذا التحليل الخارجي الصارم.. تلك التجارب التي لا تقل خطورتها ودلالتها عن تجربة المؤاخاة[1] ..

لقد نجحت التجربة الإسلامية في المؤاخاة أفضل نجاح على مرّ التاريخ، لماذا؟ لأنّ الأرْضِيّة التي أقيمت عليها ـ وهم المهاجرين والأنصار ـ، والقيادة التي خططتها ونفذتها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد استكملت كل شروط النجاح، في مجتمعٍ شَابٍّ جديدٍ في بادِئ أمره ـ هو المُجْتَمَع المسلم ـ لكنه مجتمعٌ يحكمه مبدأ العطاء قبل الأخذ، وتُشيّدهُ أواصر العقيدة وحدها، ويُوَجّهه الإيمان العميق في كل حركاته وأعماله وفاعليته.. ويقوده الرسول الأسوة الحسَنَة الذي ضَرَب ـ بتجرده، وآثاره وانسلاخه عن الأخذ وعطائه الدائم ـ، مثلاً عالياً ومؤثراً يُحَرِّك حتى الحجارة الصُّمّ لكي تنبجس فيتدفق منها الماء .. وَأَنَّي لتجربة كهذه أن تفشلَ أوتتعثر والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخوض مع أصحابه تجربة الفقر والجوع

---

[1] مجلة الوعي الإسلامي ص ١٣.

في سنة الهجرة الأولى، ويعاني كما يعانون .. دون أن يفكر يوماً أن يمتطي (وهو صاحب المنصب الأعلى) ليسلك طريقا آخر غير الذي يسلكه أتباعه، فيغتنى ويفقرون، ويشبع ويجوعون، ويأخذ ويُعطون.. لكن لم يحدث هذا أبداً من معلّم البشرية ـ صلى الله عليه وسلم ـ خذ مثلاً من كثيرٍ لا يُحصى عن نبينا وحبيبنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، يَشْكوا له أصحابه يوماً الجوعَ، ويكشفوا له عن بطونهم التي شَدَّ كلُّ واحدٍ منهم عليها حجراً؟، لكي يؤكدوا له ما يعانونه، فإذا به يبتسمُ، وقبل أن يتكلم ـ صلى الله عليه وسلم ـ يَكشِفُ لهم عن بطنه فإذا بحجرين قد شُدّا على بطنه الشّريف[1].

إخواني في الله: إن تجربة المؤاخاة نجحت نجاحاً منقطع النظير، وكان لابد لها أن تنجح،(لماذا؟) ما دامت قد استكملت الشروط وتهيأت لها أسباب القيادة والقاعدة على السواء، وبغض النظر عن عدد الذين تأخوا عشرات كانوا أم مئات أم ألوفاً.. فالمهم أن التجربة كانت ناجحة وليس لها نظير على مرّ العصور والدّهور.

يُستفاد مما سبق على سبيل الإجمال:

١ ـ يُراد لأُمّة الإسلام أن تبتعد عن سرّ قوتها، وهو الوحدة فيما بينها والأخوة التي تجعلنا لا نفشل ولن تذهب ريحنا – بإذن الله –.

٢ ـ لا إسلام على الحقيقة – كاملاً – إلّا بالأخوة الصّادقة الكاملة التي يحْيا عليها المسلمون ويعيش بها الصادقون في أخوّتهم.

---

[1] انظر محمد رسول الله محمد الصادق عرجون ج٢ ص ٦٢٠ وما بعدها.

٣ - إنّ الأُخوّة أختُ الإيمان وإن الفُرقة والتفرُّق أخُ الكفر، وإنما المؤمنون إخوة، وإنما يأكل الذِّئب القاصية من الغنم.

٤ ـ إنّ الأخوة الإسلامية أصلٌ وسببٌ لكل خير، وهي نعمة ما أعظمها من نعمة، بل إنّ الأخوة ذُكر بعدها الجهاد في سبيل الله تعالى، لأنها سرُّ قوة المسلمين في حربهم ضد أعدائهم في قوله تعالى(ياأيها النبي حرّض المؤمنين على القتال......).

.٥ ـ إن الأخوة والحُبّ نعمةٌ وفضلٌ من الله، لا دخل للإنسان فيه اللهمّ إلّا عن طريق الإكتساب الزائد عليها، ومن ثمّ فالاتحاد والوحدة بين المسلمين سبب انتصار المسلمين على مدار الزمان، لذا قال الله تعالى في سورة الأنفال (.... هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين* وألّف بين قلوبهم لوأنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفتّ بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم إنه عزيزٌ حكيم*....) بعدها وفي نفس السورة يقول سبحانه (ياأيها النبي حرّض المؤمنين على القتال.......) فتأمّل أخي الحبيب: بعد أن ألّف الله ـ بفضله ـ بين قلوب المؤمنين، أمر النبي بأن يُحرضهم على القتال.

٦ ـ الخيرُ كلّ الخير في اتّباع النبيّ فيما شرع وفعل فلقد شرّع لنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأمرٍ من الله تعالى ـ (فريضة المؤاخاة بين المسلمين). وما نحن فيه من الشّرّ والهزيمة النفسيّة، حتى صارت أمّتنا تُلقّب بالعالم الثالث اليوم، إلّا لتفرقنا وتمزُّقنا، كما فعل المحتل المغتصب بأُمّتنا المسلمة، بمبدأ (فرّق تسُد) والعياذ بالله.

(٨)

ثالثاً: علاقة المسلم بغير المسلم (الصحيفة):

بعد أن أرسى رسول الله- صلى الله وعليه وسلم - قواعد مجتمع جديد وأمة إسلامية جديدة، عن طريق المسجد والمؤاخاة، بدأ بتنظيم علاقاته بغير المسلمين، وكان قصده بذلك توفير الأمن والسلام والسعادة والخير للبشرية جمعاء، فسَنّ في ذلك قوانين السماح والتجاوز التي لم تعهد في ذلك العالم الملئ بالتعصب والأغراض الفردية والعرقية.

وأقرب من كان يجاور المدينة من غير المسلمين هم اليهود - كما أسلفنا - وهم وإن كانوا يبطنون العداوة للمسلمين، لكن لم يكونوا أظهروا أية مقاومة أو خصومة بعد، فعقد معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم معاهدة قرر لهم فيها النصح والخير، وترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال، ولم يتجه إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام.

ومن أهم بنود هذه المعاهدة:

١ - إن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، وكذلك لغير بنى عوف من اليهود.

٢ -وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.

٣- وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

٤- وإن بينهم النصح والنصحية، والبر دون الإثم.

٥- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. إلى غير ذلك من بنود المعاهدة، لكن اليهود مع كلّ هذا نقضوها فيما بعد كعادتهم دائماً.

ما يُستفادُ من قصّة الصّحيفة (المعاهده)

١ ـ قررت الصحيفة أن المسلمين أمة واحدة من دون الناس.. وبهذا التقرير ألغي النبي الحدود القبلية، أوعلى الأقل لم يجعل لها وجوداً رسمياً بالنسبة للدولة أو بلفظ آخر، ارتفع هو عن المستوى القَبَلِيّ المحدود وبهذا أصبح الإسلام ملكاً لمن دخل فيه، فدخل بناءً على هذه القاعدة شعوب كثيرة في الإسلام دون أن يضع الرسول أمامها عقبات تحول بينها وبين الاشتراك في الدولة الإسلامية.

٢ ـ لقد أقرت الصحيفة مفهوم الحرية الدينية وما يترتب عليه من حقوق لمواطنيها من الأديان الأخرى، فها هوالإسلام مع أنه لم يقرهم على دينهم إلّا أنه لم يُكره اليهود على الدخول فيه .

٣ ـ كما أنها لم تكن المسألة مناورة مرحلية ريثما يتسنى للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تصفية أعدائه في الخارج، لكي يبدأ الموقف السمح المنفتح عن اعتقاد كامل بأن اليهود ـ باعتبارهم أهل الكتاب ـ سيتجاوبون مع الدعوة الجديدة ـ الإسلام ـ ، وينهضون لإسنادها في لحظات الخطر والصراع ضد العدو الوثني المشترك، ـ كما أكدت بنود الصحيفة نفسها ـ أو أنهم على أسوأ الاحتمالات سيكفُّون أيديهم عن إثارة المشاكل والعقبات ووضع العراقيل في طريق الدعوة وهي تبني دولتها الجديدة وتُصارع قوى الوثنية التي تتربص على الحدود[1] .

---

[1] مجلة الوعي الإسلامي ص ١٣.

٤ ـ (اليهود هم اليهود دائماً ينقضون العهود) وهذا الذي حدث بعد قليل من إصدار الوثيقة وطيلة سِني العصر المدني من اليهود ما غير مجري العلاقات بينهم وبين المسلمين ، وجمد البنود المتعلقة بهم، لا لشئ إلا لأنهم اختاروا (النقض) على الوفاء، والخيانة على الالتزام، والانغلاق على مصالحهم القومية على الانفتاح على الأهداف العامة الكبيرة لكلّ رسالة أنزلها الله من السماء[1] وهذا هو ديدنهم على مرّ العصور.

٥ـ إن إصدار الوثيقة يمثل تطوراً كبيراً في مفاهيم الاجتماع والسياسة، فهذه جماعة تقوم لأول مرة في الجزيرة العربية، على غير نظام القبيلة وعلى غير أساس رابطة الدم، حيث انصهرت قبيلتا الأوس والخزرج (الأنصار) في جماعة المسلمين، ثم ترابطت هذه الجماعة المسلمة مع اليهود الذين يشاركونهم الحياة في المدينة إلى أمد، ولأول مرة يحكم القانون، حيث تُردّ الأمور إلى الدولة[2] وذلك من خلال تغيير شامل وتحول سريع.

٦ ـ طوى الدستور الإسلامي صفحة اجتماعية بطابعها القبلي، وفتح صفحة جديدة أكثر إيجابية وأقرب إلى الترابط والتكافل والوحدة الفكرية للمجتمعات، وجعل لغير المسلمين حقوق وعليهم واجبات، وأين نحن الآن من الأقليات المسلمة في بورما والفلبين بل ودول العالم الذي يدّعي التحضُّر والمدنية، والذين لا يستطيعون إظهار شعائرهم في هذه البلاد[3].

---

[1] السيرة النبوية للصلابي ج ١ ص ٥٣٩.

[2] السيرة النبوية للصلابي ج ١ ص ٥٤٣.

[3] مجلة الوعي الإسلامي ص ١٣ وسيرة بن هشام ص ٥٥٠ ج١.

٧ ـ وخلال هذه الفترة من هذا العهد أخذت الصلاة تشريعها النهائي، وفرضت زكاة الفطر، وكتب الصيام، ورسمت الحدود، وفرض الحلال والحرام، وحدد الأذان كنداء يُدعي به المسلمون إلى الصلوات الخمس.

أما القبلة فقد كانت لأول أمرها متجهة صوب بيت المقدس، ثم حولت إلى الكعبة بعد سنة ونصف من الهجرة[١].

(٩)

وماذا بعد؟

كان لزاماً على النبي القائد المُشَرّع أن يقوم بخطواتٍ أخرى ومهمّة. من هذه الخطوات التي فعلها رسولنا، ومن ثمّ هي تشريع لنا في كلّ زمان زمكان.

إعداد القوة التي تحمي الحقّ (الجيش):

بعد وصوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة وما حققه كان لابد عليه أن يُعدّ جيشاً يحمي الدعوة الجديدة، فالحق لابد له من قوة تحميه قال: تعالي [**وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ**] {البقرة:٢٥١}

إلا أن الظروف الجديدة التي بدأ الإسلام يجتازها، وتصاعد الموقف الحربي بينه وبين القوى الوثنية ـ الكفّار المحيطين بالمدينة ـ وبخاصة في أعقاب الهجرة إلى المدينة، ونزول الآيات القرآنية تؤذن ببدء القتال المُسَلّح حتّم على الرسول ـ صلى

---

[١] الوعي الإسلامي ص ١٤ السيرة النبوية د/ الصلابي ج١ ص ٥٩٣ وتفسير الظلال وغيره.

الله عليه وسلم ـ أن يُنمّي هذه القدرات، وأن يَدفع أتباعه إلى مزيد من التدريب والمهارة العسكرية في مواجهة الأعداء الذين يحيطون بالدولة الجديدة إحاطة السوار بالمعصم، وراح الرسول القائد طيلة العصر المدني، يعمل دونما وَهَن على تعليم أتباعه فنون القتال وتدريبهم على استعمال السلاح، رافعاً شعاراً واضحاً لا غموض فيه.

[وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ] {الأنفال:٦٠}

معتمداً في سعيه لتكوين (المقاتل المسلم) على أسلوبين متوازيين:

التربية المعنوية، والتدريب العملي:

الأول: كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسعى إلى رفع معنويات المقاتلين، بمنحهم أملا يقينا بالنصر أو الجنة ومنذ تلك اللحظات، وفيما بعد، ظل هذا الأمل يحدو الجندي المسلم في ساحات القتال، ويدفعه إلى بذل كل طاقاته وقدراته النفسية والجسدية والفنية، من أجل كسب المعارك أو الموت تحت ظلال السيوف، مجتازاً باستشهاده الخاطف السريع، الجسر الذي يصل أرض المعركة بالجنة، حيث الخلود الدائم والنعيم المقيم، ولذة القرب من الله سبحانه الذي قال مخاطباً المؤمنين **[وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ]** {آل عمران:١٦٩}

وهذا البذل الذي شهده تاريخ الإسلام منذ عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الذي كان يُفجر طاقات المسلم القتالية كلاً منهم إلى عشرة مقاتلين، وينادي الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه دوما في لحظات المصير الحرجة بين النصر والهزيمة، لكي يهرعوا إلى إحدى الحسنين النصر أو الجنة.

أما الأسلوب الثاني الذي اعتمده الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو التدريب العملي، فقد سعى من خلاله إلى اعتماد كل طاقات الأمة القادرة على البذل والعطاء رجالاً ونساء، كباراً وصغاراً، شباباً وشيوخاً، وإلى التّمرُّس على كل مهارة في القتال طعناً بالرمح وضرباً بالسيف ورمياً بالنبل ومناورة على ظهور الخيل، كما أكد على ضرورة تعلم القتال في كل ميدان براً وبحراً، تنفيذاً لشعار الإسلام الدائم [**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ**] {الأنفال: ٦٠} على إطلاق القوة[١] قال: ـ صلى الله عليه وسلم ـ (...ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي) رواه مسلم وغيره، والرمي يعني إصابة الهدف.. وحتى في العصر الحديث والحروب (التقنية) تجني الانتصارات – بالدرجة الأولى – بمقدار قدرة الجندي على إصابة هدفه بالرصاص أو القنبلة أو الصاروخ... وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (الخيل معقود على نواصيها الخير إلى يوم القيامة والأجر والمغنم) رواه

---

[١] انظر مجلة الوعي الإسلامي ص ١٥ ، ١٦ .

البخاري. وذلك دفعاً لأصحابه إلى التّمرس على الفروسية وتعلم ركوب الخيل في قتال يلعب فيه الفرسان دوراً كبيراً.

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: وهو يمزج بين خَطَّي التربية العسكرية المتوازيين (التوجيه والتدريب)_ الأمل بالنصر أو الجنة وتقديم كلّ ما في الجُهد في ساحة القتال أو في الخطوط الخلفية، صنعاً للسلاح أو إمداداً به (إن الله عز وجل ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، ومُنْبِله" رواه أحمد والثلاثة[1].

وشاهد رجلٌ في أطراف المدينة، عقبةَ بن عامر يحمل السلاح ويمارس التهدف راكضاً من مكان إلى مكان وهو شيخٌ كبير، فسأله (تختلف بين هذين الموضعين وأنت رجل كبير؟) أجاب الشيخ: لأمر سمعته من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: وما ذاك؟ أجاب الشيخ (سمعته يقول من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا) بهذه اللهجة الحاسمة (ليس منا) ذلك أن الذي لا يعرف السلاح ابتداءً أوالذي يعرفه حينا من الوقت ثم ينساه، سواء ... على العكس إن هؤلاء الذين يذهبون إلى ساحات القتال وهم يحملون سلاحاً لا يعرفون كيف يضربون به، سرعان ما يتعرضون للارتباك والرعب فتُحصد رؤوسهم ويكونون كارثة على رفاقهم الذين يشل الموقف قدراتهم على استخدام السلاح.

بهذه الاجراءات الأربعة وضع القرآن الكريم والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ القواعد الأولى لدولة الإسلام في المدينة، وأخذت التشريعات المنبثقة عن هذين

---

[1] السيرة النبوية للصلابي ج١ ص ٥٣٩ نقلاً عن تفسير بن كثير والظلال.

المصدرين (القرآن والسُّنة)، تنمو وتتسع يوما بعد يوم، لا بطرائق نظرية تجريدية منفصلة عن الحياة والواقع، وإنما وفق نفس الأسلوب الذي كانت الآيات المكية تتنزل فيه لكي تبني العقيدة في أذهان ونفوس الإنسان والجماعة المسلمة، وهو أسلوب يرتبط ارتباطاً عضوياً حيوياً بالواقع الحركي، والتجربة الحيّة المُعاشة، ومن ثمّ تجيئ معطياته أشدّ التصاقاً بحركة المسلمين ونمو دولتهم، وأكثر التماساً بتجربتهم المحسوسة ودوافعهم المُعاشة، وأعمق فهماً وإدراكاً لمتطلباتهم وأبعادها الأخلاقية والسلوكية، نظراً لمواكبتها لمشاكلهم وتجاربهم اليومية ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم[1]

لقد كان من حسن حظ البشرية جمعاء أن الإسلام تبرأ من أول يوم من حواجز الجنس والأرض واللغة وانظر التقسيمات التي نراها اليوم على أساس القبيلة أو الجنس أو اللون وما إلى ذلك من تقسيمات موجودة بين الناس.

ولما كانت دعوة الإسلام لم تأت من البداية إلى بلد مُعيّن، فإنها كانت خطوة تَقدُّمية إلى الأمام نحو تحقيق ما بُذلت المحاولات لتحقيقه من بعد، وهو تدويل المجتمع الإنساني .. وبجانب عالمية الدعوة فإن الإسلام أقام نظام (الحج) ونظام (الخلافة)، كما أقام الشعائر والعبادات، والأخلاق والسلوك، كما أمر بالسِلم أمر بالجهاد، كل ذلك من أجل تحقيق هذا الهدف الأسمى، ألا وهو دولة الإسلام دولة العقيدة التي يعيش فيها الجميع متساوون لا فضل لأحد على أحد إلّا بالتقوى، فهذا سلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، والعباس

---

[1] انظر مجلة الوعي الإسلامي ص ٢٦ وما بعدها.

القرشي، وغيرهم ممن قامت على أكتافهم نواة الدولة الإسلامية الأولى، الدولة التي صنعتها السلطة الحاكمة العُليا وهي المتمثّلة في الله ـ سبحانه وتعالى ـ ... والقوة المحايدة التي تقرر المبادئ والوِجهات العامة، إذ هي لا تميل مع فرد أو جماعة ولا تنحاز لحاكم أو محكوم ([**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا**] {النساء:٥٩}

لماذا .. الهجرة في حدّ ذاتها ... ؟!

قبل الإجابة على هذا السؤال يجب أن يستقرّ في أذهاننا جميعاً عالمية دعوة الإسلام وماهيته، وأيضاً نعرف طبيعة المرحلة (المكية) التي عاشها الرسول وأصحابه قبل الهجرة، ومن ثمّ المرحلة التي أعقبت الهجرة – مرحلة بناء الدولة المسلمة، وأنا لن أخوض في كلّ هذا فهذا مما يطول الكلام فيه ومكانه كتب السيرة المطولة والمفصّلة، فليراجع هناك وحسبي هنا الكلام عن الهجرة فقط وما يُستفاد منها.

إذن لماذا الهجرة نفسها؟ أليس من الأفضل أن يعيش النبي بين أهله وأقربائه حتى تكون الفائدة أشمل وأعم؟... أقول الأمر أكبر من ذلك وأهمّ. فقد كانت هناك أشياء أخرى منها...

أولاً: المُهمّة الثقيلة (مهمّة تبليغ دعوة الإسلام):

المهمّةُ التي لم تستطع حملها السماوات والأرض والجبال، بل تحتاج إلى أمّةٍ تَكونُ قد تَرَبّت على مبادئ هذه المهمة، ورجال عاشوا من أجلها، وتجرّدوا لها، وماتوا في سبيلها، وبذلوا في سبيل علُوّها كل غال ورخيص، إذن فلابد وأن تتكون مجموعات من هؤلاء الرجال، ليقوموا بتبليغ هذه الدعوة إلى الناس أجمعين، ولكن لا يستطيعُ هؤلاء الرجال (الدُّعاة إلى الله) أن يُبلّغوا دعوة ربهم إلّا إذا كان هناك مكاناً آمناً ـ على الأقل ولو في بداية الدعوة ـ، خاصّة أنهم قبل الهجرة كانوا في بلدٍ مثل مكة، وهي التي وقفت ضد دعوة الإسلام بكلّ ما تملك، في حين أن الباطل موجودٌ على أشُدِه في مكة وانظر إلى حالها وحال أهلها.. حتى نعلم لماذا هاجر أصحاب الدعوة الناشئة من بلادهم وعلى رأسهم النبي ـ صلى الله عليه

وسلم ـ فقد جاءه الحق الذي كان يَتَلَمّسه ويبحث عنه، وألقي عليه الوحي أثقل مهمة تلقي على عاتق بشر، وأهاب به أن يقوم لينذر الناس ويدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد العلي الكبير، وهَجْر ما هم عليه من عبادة الأوثان ومن ارتكاب الإثم والعدوان، وأمره أن يكون قدوة صالحة للناس في ظاهره وباطنه، وأن يُخلص نفسه ووجهه لله، وأن يصبر على ما يلاقيه في دعوته إلى الله من مشقة وأذيً وعَنت، فكيف يدعو قريشا إلى الحق وهو يعلم أنهم أحرص ما يكونوا على باطلهم؟ وأي طريق يسلكه لإقناعهم بأن ما هم عليه هو الباطل، وأن ما جاءهم به هو الحق...؟ وكيف يبطل عقائدهم، ويهدم كل ما يتطاولون به على غيرهم، وما يستمتعون به في الحياة من لذة ومتاع..؟ والحق الذي يدعو إليه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يمكن أن يقوم إلّا على تقويض هذه العقائد الباطلة التي يعتقدها أهل مكة، وأن تقتنع قريش بأن آلهتهم من الأصنام، لا تنفع ولا تضر... كيف هذا وقد نشأوا يعبدونها؟ ... كما كان يعبد آباؤهم من قبل، وكما أن العرب جميعا يدينون لأهل مكة عامّة وقريش خاصة بالولاء والسيادة، ويعترفون لهم بالفضل ويمدونهم بمدد عظيم من الأموال والأنعام والأرزاق، لأنهم هم سَدَنة البيت الحرام وخُدّام الآلهة حين يقدمون عليهم في موسم الحج وغيره كالتجارة في أسواق مكة، أو لزيارة البيت الحرام، أو لاستخارة الآلهة أو.. الخ. هذه الأمور التي تجلب لهم المنافع وتمنع عنهم الأذى من أعراب البادية الذين كانوا يقطعون الطريق على القوافل الغادية والأتية إلا قريشا، فإن قوافلها تروح وتغدو آمنة لأنها قوافل الحرم، فكيف للكفار أن يُضحُّوا بهذا كله؟ إذا

فلابد من مكان آمن لهذه الدعوة غير هذا المكان المليء بالعصبيات والأمراض النفسيّة الطموحة بأن لا يكون هناك سيّدٌ غيرها..

من أجل هذا كان لابد من الهجرة إلى مكان آخر، أضف إلى ذلك شيئ آخر هام جدّا ألا وهو عالمية الرسالة التي بعث الله بها محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ فالإسلام جاء ليصل إلى كل البشر فهي رسالة الإسلام العالمية على حد قوله تعالى [**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**] {سبأ:٢٨}

وفي قوله تعالى في [**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآَمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**] {الأعراف:١٥٨}

قال: صاحب الظلال في هذه الآية: "إن الله يأمر في هذه الآية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يواجه برسالته الناس جميعاً، وأن هذه الآية المكية، وفي سورة مكية أيضا، وهذا يرد ما قال: المزورون من أهل الكتاب وأبواقهم في بلاد المسلمين، ويزعمون أن محمداً لم يكن يدور في خلده وهو في مكة أن يمد بصره برسالته إلى غير أهلها، وأن هذه الآية تَرُدّ على المشككين في عالمية الرسالة الإسلامية، فها هو يعلن رسالته للناس جميعا، ونجد بقية تكليف الناس جميعاً بالإيمان بربهم الحق سبحانه وتعالى فيقول: [**...الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ...**] {الأعراف:١٥٨}

أي أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسول للناس جميعا من ربهم الذي يملك هذا الوجود كله وهم أفرادٌ من هذا الوجود، وهو سبحانه الذي ينفرد بالألوهية وحده، فالكل له عبيد وهو الذي تتجلى قدرته وألوهيته في أنه هو الذي يحي ويميت .. هو الذي يستحق أن يدين الناس بدينه الذي يبلغه إليهم رسوله، فهو تعريف للناس بحقيقة ربهم لتقوم على هذا التعريف عبوديتهم له وطاعتهم لرسوله.. إن هذا الدين يعلن عن طبيعته وعن حقيقته في كل مناسبة أنه ليس مجرد عقيدة تستنكف الضمير، وأنه ليس مجرد شعائر تؤدي أوطقوس تُقام بلا روح

وهو كما قال: الزمخشري (بُعث كل رسول إلى قومه خاصة، وبعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الناس كافة إلى الإنس والجن)[1]

فلو أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يهاجر ولم يخرج من مكة إذن فمَن الذي سيبلغ الناس في جميع الدنيا هذا الدين بهذه الطبيعة التي أرسل بها وكما أراد جلّ في علاه، يقول: ابن كثير في قوله تعالى [**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**] {سبأ:٢٨}

قال: محمد بن كعب: يعني إلى الناس عامة، وقال: قتادة: (أرسل الله تعالى محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى العرب والعجم جميعاً فمحمدٌ أكرمهم على الله تعالى وهو أطوعهم له عز وجل، وقال: ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس قال: إن الله تعالى فضل محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أهل السماء والأرض وعلى

---

[1] الزمخشري الكشاف جـ ٢ ص ١٦٦.

الأنبياء قال: وقيل لابن عباس فيم فضله على الأنبياء؟ قال: إن الله قال [**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ**] {إبراهيم:٤} وقال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ [**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**] {سبأ:٢٨} فقد أرسله تعالى إلى الجن والإنس[١]

وكما ثبت في الصحيحين أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: (أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، وذكر منها... وكان النبي يرسل إلى قومه خاصة وأرسلت إلى الناس عامة)[٢].

وفي الصحيح أيضا أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: (بعثت إلى الأسود والأحمر) والأحاديث كثيرة عن عالمية الرسالة الإسلامية.

وكما يقول الأستاذ محمد الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ .... وتمتاز رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنها دائمة وعامة، والله سبحانه وتعالى كان من الممكن أن يبعث في كل قرية نذيرا، ولكل عصر مرشدا، وإذا كانت القرى لا تستغني عن النُّذُر، والأعصار لا تستغني عن المرشدين، فَلِمَ إذن استعاض ـ سبحانه وتعالى ـ عن ذلك كله برجل فذ؟ الحق أن هذا الاكتفاء أشبه بالإيجاز الذي يحصل به المعنى الكثير في اللفظ اليسير، وبعثة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورسالته كانت عوضا كاملاً عن إرسال جيش من الأنبياء والمرسلين، يتوزعون على الأعصار

---

[١] ابن كثير جـ ٣ صـ ١٤ بتصرف.

[٢] البخاري ومسلم عن جابر بن عبدالله.

والأمصار.. وكيف ذلك؟ .. والله عز وجل عندما بعث محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهداية العالم، انظر فسترى أنّ رسالته قد ضمت الأصول والفروع التي تفتق للألباب منافذ المعرفة بما كان ويكون[1] .

والكتاب الذي أنزله على قلبه هو كتاب من رب العالمين إلى كل حي، ليوجهه إلى الخير ويلهمه الرشد...

أليس هذا يدلنا دلالة واضحة على ثقل المهمة الصعبة، والتي تحتاج إلى مثل هذا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي يرسل إلى الناس عامة، فهل سيقتصر على أهل مكة أو العرب جميعا ويترك الناس غرقى في الشهوات والظلام الذي رانِ على الأفئدة وأعمى العقول في غيبة أنوار التوحيد، وأي خير يرجى في أحضان وثنية كفرت بالعقل ونسيت الله ولانت في أيد الدجالين.

لقد شملت الدنيا قبل بعثة محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيرة وبؤس ناءت بها الكواهل وصدق الإمام البوصيري لما صور مثل هذا الطوفان من الشرك أبدع تصوير فقال:

أتيت والناس فوضى لا تمرُّ بهم إلا على صَنَم قد هَامَ في صنمِ
فعاهل الروم يطغى في رعيته وعاهل الفرس من كبر أصمِّ

عمى هؤلاء حتى تأذن الله لمحو هذه الآثار، وساق هدايته الكبرى إلى الأمام فأرسل إلى الأمة جميعاً محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهل يترك محمد البشرية حائرة ويتقوقع في مكة وحدها؟ لا وألف لا؛ بل يهاجر إلى الله تعالى، ويؤسس

---

[1] انظر صـ ٢١ وما بعدها ن فقه السيرة للغزالي.

دولة جديدة تتحمل عبء الخلافة الإسلامية – إذن فلابد من الهجرة وهذا سبب من أسبابها.

ومن هنا نكون قد علمنا لماذا هاجر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة إلى المدينة المنورة ؟ ولننظر إلى رسالة الإسلام نجدها قامت على دعائم من القواعد والأصول العامة المُحكَمَة، جعلها هادية للعقل في سيرته مع الحياة، يسترشد بها ويستخرج من أصولها أحكام الأحداث والوقائع المتجددة التي لا تتناهي، دون حاجة إلى الوقوف عند نص قد لا يفيد أولا يفي بالمقصود، ومن ثم كانت حقيقة هذه الرسالة الخالدة في خلودها كالحياة في تآخيها مع العقل الإنساني والذي لابد وأن يصل إليه الإسلام والدعوة الإسلامية[1].

ثانياً: إقبال السادة والمستضعفين على الإسلام بروح عالية.

مما جعل الهجرة لابد منها الإقبال المكثف من الناس عليها، فبعد صيحة الصفا التي جمع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المشركين وأنذرهم وبين لهم أنه نذير مبين لهم وبعد قوله تعالى [**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**] {الشعراء:٢١٤} أخذ الناس يتحدثون عن هذا النبأ العظيم الذي جاءهم به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى صار ذلك حديث الغادي والرائح في مكة بل وخارجها، وجعل الناس يتحدثون به في مجالسهم العامة والخاصة، في بيوتهم وأنديتهم، وفي أوقات جَدّهم ولَهوِهم وشُغلهم وفراغهم وسفرهم وإقامتهم، ومن ثم أخذ المستضعفون من العبيد

---

[1] انظر محمد رسول الله ﷺ الصادق (عرجون) جـ ٢ ١٣٣، ١٣٤.

والإمراء ومن المساكين والفقراء ومن الأتباع والموالي يستمعون إلىٰ أنباء هذه الدعوة من أسيادهم فيتنسمون منها روح الأمل، فقد كان الضعفاء يعيشون في غمرة من الإهمال والظلم تجلعهم أحط درجة من الحيوان الأعجم، وكم كانوا مرغمين علىٰ أن يقبلوا عيشة الذل والهوان والبؤس حتىٰ يموتوا، ولا يُبالي بهم أحد، فهم يقطعون أيامهم بلا أمل ولا رجاء، فجاءهم الإسلام بمبادئه القويمة، لينقذهم من ذلك اليأس القاتل، ويفتح لهم باب الأمل في حياة أخرىٰ ـ بعد هذه الحياة الفانية ـ في رحاب الإسلام، ومنها السعادة الدائمة التي لا انقطاع لها، وهون عليهم أمر الحياة الدنيا وما يلاقون فيها من شدة العيش وقوة الظلم، فما هي إلا فترة قصيرة يستطيع المرء أن يحتمل ما يعانيه فيها من المشقة، وأن يصبر علىٰ ما يلاقيه فيها من الظلم، حتىٰ يصير إلىٰ الحياة الأبدية الآمنة المطمئنة فيستمتع بما فيها من السعادة الدائمة، وكل ما يبذله ثمنا لهذه السعادة أن يعمر قبله بالإيمان بالله، وأن يملأ أيامه العمل الصالح، أما عن هؤلاء الذين يظلمونهم من الأقوياء والسادة فليس الله غافلا عنهم [**وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ**] {إبراهيم:٤٢} [**مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ**] {إبراهيم:٤٣} [**يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا للهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ**] {إبراهيم:٤٨} [**وَتَرَىٰ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ**] {إبراهيم:٤٩} [**سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ**] {إبراهيم:٥٠} [**لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ**] {إبراهيم:٥١} لهذا فقد بعثت هذه المبادئ السمحة الأمل في

نفوس المستضعفين، فأقبلوا يتدافعون إلىٰ الإسلام إقبال الظمآن علىٰ زلال الماء، فيتلقاهم رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ بالبر والتكريم، ويبسط لهم وجهه وقلبه ومجلسه، ويسوىٰ بينهم وبين الذين يؤمنون من السادة والأشراف، ولا يُفَرّق في ذلك بين الغني والفقير، ولا بين القوي والضعيف، ولا بين الحر والرقيق، ويقف منهم جميعاً موقف الأخ الشقيق، والوالد الرحيم [**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آَمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ**] {الأعراف:١٥٧}

ويضرب لهم المَثل الكامل بِخُلُقه ودينه، وهم يتبعونه ويقلدونه ويترسمون خُطاه فيما يقول ويفعل، ويطيعونه طاعة الإكبار والإجلال والإخلاص والحب.

أضف إلىٰ ذلك أن قريشاً في أول الأمر لم تكن تدرك ما في هذه الدعوة من خطر علىٰ سيادتها ودينها، فكانت تنظر إلىٰ الرسول ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ وصحبه فلا تأبه لهم، ولا تلقىٰ إليهم بالاً ، ولا ترىٰ فيما يفعلونه شيئا تنكره عليه ، لأنّها كانت تنظر إلىٰ ما يفعلونه علىٰ أنه مثل ما يفعل السابقون كورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل وغيرهم ممن كانوا يُسمَّون بالحنفاء.

أما هؤلاء من المستضعفين فقد أقبلوا علىٰ الإسلام بروح عالية وثابة فهل يتركهم أهل الباطل من أهل مكة يعبدون ربهم؟ هل يتركهم أعداء الدعوة ليصلحوا أحوال أنفسهم أو حال غيرهم ؟ لا.. بل سيقفون أمام الدعوة الإسلامية

الإصلاحية بكل ما يملكون من قوة، سيحاربونهم بكل أنواع الأسلحة المتوفرة لديهم في هذا الوقت.. كما هو مفصل في أمهات الكتب، فهل يا ترىٰ يمكثون في مكة حتىٰ يقتلوا جميعا أم يهاجروا منها لأرض أفضل منها؟ فعليهم بالهجرة من مكة حتىٰ يبلغوا دعوة ربهم، وهنا يتبادر إلىٰ أذهان بعض الناس سؤالٌ مفاده، هل كان كل المقبلين علىٰ الدعوة هم الضعفاء من أهل مكة فقط؟ .. وللإجابة علىٰ هذا السُّؤال نقول ليس الأمر هكذا .. إذ أن الدعوة قد أقبل عليها وهي في الفترة السرية الفرد بعد الفرد، وكان من أوائل مَن أقبلوا علىٰ الدعوة من أشراف مكة وساداتها وذووا الشّأن فيها، بل إنّ بعضاً من هؤلاء كانوا من العشرة الذين انتهىٰ إليهم الشّرف قبل الإسلام، فإذا نظرنا إلىٰ كتب السيرة والتاريخ لوجدنا منهم أبو بكر الصّديق رضى الله عنه انتهىٰ إليه الشرف في علم الأنساب عند العرب وعنده كانت توضع الديات والأمانات لأهل مكة وباعتراف الجميع وهذا أول من أسلم من الرجال في مكة.

وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه من العشرة الذي انتهي إليهم الشرف عند العرب وكانت إليه السفارة لأهل مكة، إذا ما كانت بينها وبين غيرها من القبائل أو البلاد مشاجرة أو غيرها، وهذا ممن اسلموا من الأوائل، وهذا حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه الذي لما أسلم حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب وهما من أشد فتيان أهل مكة جرأة وشجاعة، حزنت بإسلامهما قريش أشد الحزن، وغَضّ بهذا الخبر ساداتها من غطاريف الكفر وأحلاس الوثنية، واشْرَأَبّت أعناق المسلمين بالعزة والقوة فخرج المسلمون من اختفائهم بدعوتهم وأعلنوا عن

إيمانهم وأظهروا إسلامهم وجهروا بتوحيد الله ، وغيرهم كثير كعثمان بن عفان، وعلى ابن ابي طالب ومصعب بن عمير رضى الله عنهم جميعا وغيرهم ولكن بعد هذا اشتدت الأزمات وتفاقمت الأحداث ، واستشرى الأمر بين الطغيان الوثني وبين رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ [1].

وتطاول المشركون على المسلمين ، فها هو أبو بكر رضى الله عنه فقد نال منه المشركون من الأذى ما نالوا، وهذا بلال بن رباح وغيرهم حتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يسلم من أذاهم، المعنويُّ كتطليق بنتيه من ابنا أبي لهب، أو حسّيّ كما كانت تفعل زوجة أبي لهب .

وهنا لما رأي المشركون إقبال الناس على الإسلام ولم يقدروا على مواجهته وصد الناس عنه، بعد هذا الإقبال على الإسلام بهذه الروح العالية والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ – لم يأمره ربه بقتال – هل يمكث هو وأصحابه في مكة حتى تفنى الدعوة بفناء من يحملها؟ أم يبحثون عن أرض خصبة تنبت فيها الدعوة وتثمر رجالاً يَقدِرون على حملها وتتحمّل تبعاتها الثقيلة؟

إن كان ولابد فلا مفر من الهجرة إلى الله تعالى وبخاصة أن الله أمر في كتابه الكريم، الجميع بقوله [**فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ**] {الذاريات:٥٠} وهي سورة مكّية.

[1] انظر ص وما بعدها من كتاب محمد رسول الله لمحمد الصادق عرجون.

ثالثاً: أنّ الهجرة سُنّة قديمة من سنن الأنبياء...

لم تكن هجرة الحبيب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدعا من الرسول بل إنها كانت سنة ماضية لإخوانه من الأنبياء السابقين ولقد قص الله علينا ذلك في القرآن الكريم ـ خاصّة السور المكية ـ كثيراً من قصصهم فقال جلّ ذكره وعظم ثناؤه: على لسان نبيه شعيب [**قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ**] {الأعراف:٨٨}

ولننظر إلى ما كان من الأنبياء عندما يقومون بأدآء فريضةالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ماذا يكون من الطواغيت ؟ يقول الأستاذ سيد قطب في ظلاله عند تفسيره لهذه الأية "لقد دعاهم شعيب إلى أعدل خطة، ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة.. نقطة الانتظار والتريث والتعايش بغير أذى وترك كل ما اعتنق من دين ، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .. ولكن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان في الأرض وجود، وتَمثّل هذا الوجود في جماعة من الناس لا يدينون للطواغيت، إن وجود جماعة مسلمة في الأرض ، لا تدين إلا لله ولا تعترف بسلطان إلا بسلطانه ، ولا تُحكِّم في حياتها شرعاً إلا شرعه، ولا تتبع في حياتها منهجا إلا منهجه، في وجود جماعة مسلمة كهذه تهديد للطواغيت، حتى لو انعزلت هذه الجماعة في نفسها، وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتي موعدهم، لن يتركهم هؤلاء أيضاً.. إن الطاغوت أيها الأخوة يفرض

الهجرة والمعركة فرضا على الجماعة المسلمة حتى لو آثرت هي ألا تخوض معه المعركة، وذلك لأن وجود الحق في حد ذاته يزعج الباطل.. وهذا الوجود ذاته هو الذي يفرض علينا المعركة مع الباطل لأنها سنة الله لابد أن تجري هكذا، وفي تبجح سافر وفي إصرار على المعركة لا يقبل المهادنة أوالتعايش .. لأن هذا هو فيض من العطاء الجزيل، يتجلي فيه رضوان الله بكلمته" وهذا سيدنا إبراهيم ـ عليه وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام ـ الذي أجمع الطغيان علي حرقه بالنار، فكان كل شئ من حوله بردا وسلاما ، وعطفا وإنعاما جزاءاً وفاقا.

وتأتي قصة لوط عقب قصة إبراهيم بعدما هاجر هو الآخر مع عمه إبراهيم فهاجرا معاً حتى نزلا إلى وادٍ بالأردن وهل هذا وفقط؟ لا؛؛ بل عاش لوط وحده بعد هجرته في إحدى القبائل على ضفاف البحر الميت أو بحيرة لوط كما سيمت فيما بعد ، فها هي الهجرة سنة قديمة في الأنبياء إخوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الرسالة ، فهذا لوط وهذا إبراهيم وهذا شعيب وهذا موسى عليهم والسلام وغيرهم من الأنبياء، ويزيد الأمر وضوحا ما ورد في سورة مريم في قوله تعالى: عن إبراهيم وحواره مع الطاغية(أبيه) [**قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا**] {مريم:٤٦} [**قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا**] {مريم:٤٧} [**وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا**] {مريم:٤٨} [**فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا**] {مريم:٤٩}

إذ يقول بعض المفسرين ومنهم الأستاذ سيد قطب (إن أبا إبراهيم قابله بالاستنكار والتهديد والوعيد: لئن لم تنته لأرجمنك وهذا إنذار من الباطل لأهل الحق بالموت والموت الفظيع إن هم أصروا على حقهم، وبهذه الجهالة تَلَقّى هذا الرجل- ومَن على شاكلته في كل زمان ومكان - الدعوة إلى الحق والهدي وبهذه القسوة الشديدة قابل القول من ابنه إبراهيم الحليم، ولكن القلب الذي أفسده الكفر ولم تخالطه بشاشة الإيمان لابد أن يكون هكذا، فهل غضب سيدنا إبراهيم؟ لم يغضب إبراهيم الحليم ولم يفقد بره وعطفه وأدبه مع أبيه، بل قال له بلسان الحال والمقال، إذا كان وجودي إلى جوارك ودعوتي لك إلى الإيمان تؤذيك فسأعتزلك أنت وقومك، وأعتزل ما تدعون من الآلهة، وهكذا اعتزل إبراهيم أباه وقومه وعبادتهم وآلهتهم، وهجر أهله ودياره إلى مكان فيه استجابة لدعوته بدلا من هذه الأرض التي فيها أبوه وقومه، وهذه هي سنة الهجرة في الأنبياء السابقين، وبهذه الهجرة وتركه أهله وقومه وأرضه ووطنه، عوضه الله خيرا منهم فلم يتركه الله وحيدا بل وهب له الله اسماعيل وإسحاق، وجعل في ذريتهما النبوة والكتاب بسبب أنه هاجر بدعوته ليُبلغها للناس جميعا.

ولهذا فقد كانت هجرة النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ سنة من سنن الأنبياء من قبله فرارا بدعوتهم حتى يبلغوها إلى الناس كافة ..

ويزيد الأمر وضوحا ما جاء في قصة موسى عليه السلام ، وهو من الأنبياء الذين هاجروا بدعوتهم ، وقد ذُكرت هذه القصة وغيرها في القرآن المكي خاصة، ليربي

النفوس في مكة على أن الهجرة هي سنة قديمة في الأنبياء والصالحين من قبل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والنبي محمد ليس بدعا من الرسل.

ومن هذا القصص القرآني ما يحكي لنا عن موسى وفرعون، قال تعالى: [**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ**] {الشعراء:٥٢} يقول صاحب الظلال "لقد أوحي الله إلى موسى إذَن أن يسري بعباده وأن يرحل بهم ليلا وذلك بعد تدبير وتخطيطٍ ونظام، وأخبر الله موسى أن فرعون سيتبعهم بجنوده، لذا أمره الله أن يهاجر من بلده وموطنه ويقود قومه ويخرج ناحية البحر، وهذا هو الواقع بين أهل الحق والباطل دائما وعلى مر الزمان والعصور- والقرآن يحكي عن هلاك الطاغية فرعون وجنوده فقال جلّ في علاه [**كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *وزروعٍ ومقامٍ كريم * ونَعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوماً آخرين**] {الدُخان:٢٥- ٢٨} [**فأخرجناهم من جنات وعيون * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيم * كذلك وأورثناها بني إسرائيل**] {الشعراء:٥٧- ٥٩ } ثم بين الله سبحانه وتعالى أنه نجاهم من بطشه فقال: [**فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**] {الشعراء:٦٣} [**وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ**] {الشعراء:٦٤} [**وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ**] {الشعراء:٦٥} [**ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ**] {الشعراء:٦٦}

ولهذا يقول الأستاذ سيد قطب(... وهذه الحلقة من قصة موسى عليه السلام تجئ في هذه السورة متناسقة مع موضوع السورة، ومع اتجاهها إلى بيان عاقبة المكذبين بالرسالة، وعلى طمأنة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتعزيته عما

يلقاه من إعراض المشركين، وتكذيبهم لدعوته، وإلى رعايته والمؤمنين بها، ولو كانوا مجردين من القوة وأعداؤهم أقوياء جبارون في هذه الأرض، مسلطون عليهم بالأذى والتنكيل، وهو الموقف الذي كان فيه المسلمون بمكة عند نزول السورة المباركة، وقد كان القصص القرآني إحدى الرسائل التربوية في القرآن الكريم في هذه الفترة العصبية مع النبي وأصحابه، ودليل على أن الهجرة كانت سنة في الأنبياء السابقين وبعد أن أهل القرآن المكيّ النبيّ وأصحابه نفسيا، جاء التصريح في القرآن بأن هذا هوديدن الطغاة ودأبهم فقال الله تعالى [**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ**] {إبراهيم:١٣} وقال الله تعالى [**فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**] {النمل:٥٦} وقوله سبحانه [**فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**] {العنكبوت:٢٦}

فانظر يا محمد أنت وأتباعك إلى هؤلاء الرسل قد هاجروا من المكان الذي قد باتت لا تنبت فيه الدعوة أي نبات، ولا تثمر أي ثمرة، إلى مكان آخر تثمر فيه الدعوة من بين أيدي هؤلاء الظالمين.

رابعاً: تنوع أساليب أهل مكة لمحاربة الدعوة وإماتتها في مهدها:

من دواعي هجرة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والصحابة من مكة إلى المدينة، إجماع المشركون على محاربة الدعوة التي عَرّت واقعهم الجاهلي، وعابت آلهتهم وسفهت أحلامهم (أي أفكارهم وآراءهم) وتصوراتهم عن الحياة والإنسان وعن

الله وعن الكون فاتخذوا العديد من الوسائل والمحاولات لإيقاف الدعوة وإسكات صوتها أو تجميدها أو تحديد مجال انتشارها بين الناس ومن هذه الأساليب:

أ- المحاولات المتكررة من قريش لإبعاد أبي طالب عن حماية ومناصرة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فقد جاءت قريش إلى أبي طالب وقالت: يا أبا طالب والله إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا فانههُ عنا فقال: أبو طالب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا محمد إن بني عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم، وذكر من شأنه معهم فحَلَّقَ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ببصره إلى السماء فقال: (ترون هذه الشمس قالوا: نعم قال: فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشعلوا منها بشعلة) وفي رواية (والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحد من هذه الشمس شعلة من نار) فقال: أبو طالب (والله ما كذب ابن أخي قط فارجعوا راشدين فوالله لن أتركه ولن أسلمه لكم وأنا حي، وقد حاولت قريش مرات عديدة الضغط على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بواسطة العائلة ـ وهذا ديدن الطغاة دائماً وفي كلّ زمان ومكان ـ ولكنها فشلت، ولهذا فقد ذاع أمر حماية أبي طالب لابن أخيه وتصميمه على مناصرته وعدم خذلانه ، فاشتد ذلك على قريش فأتوا إلى أبي طالب بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالت: والله : يا ابا طالب هذا عمارة بن الوليد أَنهَد فتي في قريش وأجملها فهو لك ولدا ، واترك لنا ابن أخيك الذي خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه أحلامنا، فنقتله فإنما رجل برجل ، فرد عليهم أبو طالب قائلا (والله لبئس ما تساومونني

عليه، أتعطونني ابنكم أغذيه لكم وأعطيكم ابن أخي كي تقتلوه ؟ هذا والله ما لا يكون أبداً[١])

ولكن هل تركوه؟ لا،ـ وهكذا أهل الباطل في كلّ زمان ومكان ـ بل ظلوا يقومون ضده بكل الوسائل حتى أنهم أجبروه فيما بعد بالتفكير في الهجرة حتى إلى أي مكان، حتى يستطيع أن يبلغ دعوته التي خلق من أجلها.

ب) من الوسائل أيضاً: محاولتهم تشويه دعوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

فماذا فعلوا ؟ قام المشركون من أهل مكة بتشويه دعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولذلك نظمت قريش حرباً إعلامية شرسة ـ والإعلام كما نرى هو آلة يستخدمها الحُكام المستبدّين الظالمين لتشويه الداعين إلى الله الذين يبينون مدى ظلمهم وفسادهم للناس ـ ضد النبي ودعوته لتشويهه وما يدعوا إليه، وكان من قادة هذه الحرب هو الوليد بن المغيرة ، حيث اجتمع مع نفر من قريش لمّا حضر موسم الحج وكان ذا سِنٍّ بهم ومكانة، فقال: لهم يا معشر قريش: إنه قد حضر الموسم، وإن وفود العرب ستَقدُمُ عليكم وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذّب بعضكم بعضا ويرد بعضكم قول بعض ، فقالوا له : فأنت يا أبا عبد شمس قُل وأقم لنا رأياً نقول به، فقال: بل قولوا وأنا أسمع، فقالوا إذن نقول: (كاهن) فقال: ما هو بكاهن لقد رأيت الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه فقالوا: نقول (مجنون) فقال كلا ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بمجنون ولا تظهر عليه علاماته فقالوا نقول (شاعر)

---

[١] انظر البداية والنهاية لابن كثير ص ٤٧ ، فقه السيرة ص ١٨٤ ، السيرة النبوية لابن هشام ٢٦٩.

قال: ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر برَجَزه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر، فقالوا: نقول (ساحر) فقال: ما هو بساحر لقد عرفنا السَّحَرة وسِحْرِهم فما هو بالسحر، فقالوا: فماذا نقول إذن يا أبا عبد شمس فقال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وإنه ليعلوا ولا يُعلَى عليه، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عُرف إنه باطل،وإن أقرب القول لأن تقولوا سحرٌ يفرق بين المرء وأبيه، وبين الأخ وأخيه ، وبين الرجل وزوجه، والرجل وعشيرته ، فأنزل الله في حق الوليد [**ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦)**] {المدَّثر:١١: ٢٦}[١]

ويتضح من هذه القصة أن الحرب النفسية المضادة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم تكن توجه إليه اعتباطاً، إنما كانت تعد وتحكم بتخطيط ودقة مسبقة بين زعماء الكفر، وحسب قواعد معينة – وهي نفس الأُسس والقواعد المعمول بها في العصر الحديث في التخطيط للحرب النفسية ضد الدعاة المصلحين–، كاختيار الوقت المناسب،فها هم اختاروا وهو وقت تجمع الناس في موسم الحج ، كما أنهم بدقة تخطيطهم أعدوا خطة لهذا، فقرروا الإتفاق وعدم التناقض ، وغير ذلك حتى

[١] انظر السيرة النبوية للصلابي ج١ ص ٢٤٠ ، تهذيب سيرة بن هشام ج١ ص ٦٤.

تكون حملتهم (منظمة) ، وبالتالي يكون لها تأثير على وفود الحجيج ، ومع اختيار الزمان المناسب اختاروا المكان المناسب أيضا، وهو مكان تجمع الحجاج،فأخذوا على أنفسهم تشويه دعوة الإسلام بتشويه شخص النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتراهم لم يكتفوا بتنفير سكان مكة منه، بل تعدوها إلى تلقي الوافدين إليهم ليَحُولوا بينهم وبين سماع كلام النبي ، أو الإنصات إليه وحتى لا يتأثر أحد من القادمين بدعوته صلى الله عليه وسلم ـ كان هذا وغيره مما جعل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبحث عن مكان آخر يأمن فيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على تبليغ دعوته وتوصيلها إلى الناس جميعاً.

خامساً : من أسباب ودواعي الهجرة ما تعرض له النبي والصحابة من الأذى والتعذيب:

فلم يفتر المشركين عن إيذائهم النبي منذ أن صدع بالحق إلى أن خرج من بين أظهرهم وأنزل الله عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الآيات التي كانت تنزل على النبي في مكة تصبره وتَدُلُّه على وسائل الصبر ، وتنهاه عن الحزن وتضرب له الأمثلة من واقع إخوانه من المرسلين السابقين ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى [**وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا**] {المزمل:١٠}

وقوله تعالى تصبيرا للنبي وتسليةً له [**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا**] {الإنسان:٢٤} وقوله تعالى [**وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ**] {النمل:٧٠}

ومنها قوله تعالىٰ: **"ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك وإن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم"** {فصلت:٤٣} ومنها قوله سبحانه **"فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم"** {الطور:٤٨} هذه الآيات وغيرها في القرآن يدل علىٰ مدىٰ المعاناة التي كان يعانيها الأنبياء السابقين والنبي ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ منهم. ومن الأمثلة التي تدل علىٰ ما تعرض له النبي من الإيذاء في السيرة النبوية منها.

قال: أبو جهل لمن حوله من كفار مكة (هل يعفر محمد وجهه في التراب بين أظهركم؟ فقيل له نعم قال: واللات والعزىٰ لئن رأيته يفعل ذلك لأطأَنّ رقبته بقدمَيّ هاتين، ولأعفرن وجهه في التراب " فأتىٰ أبوجهل رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ وهو يصلي فقال: له ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف عنه النبي ونهره فقال: أبو جهل إنك لتعلم ما بها من نادٍ أكرم مني فأنزل الله تعالىٰ [**فليدعُ ناديه سَنَدّعُ الزَّبَانِيَةَ**] {العلق:١٧:١٨ } فقال: ابن عباس لو دعا ناديه لأخذته الزبانية وفيه قال: النبي لو دنا منىٰ لاختطفته الملائكة عضواً عضواً) .

ومنها ما يرويه البخاري عن ابن مسعود فيما يرويه عن شدة الإيذاء الذي تعرض له النبي فقال: بينما رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ قائم يصلي عند الكعبة وجمعٌ من قريش في مجالسهم، إذ قال: قائل ألا تنظرون إلىٰ هذا المرائي؟ أيكم يقوم إلىٰ جزور آل فلان فيعمد إلىٰ فرثها ودمها وسالهِا، فيجئ به ثم ينتظره حتىٰ إذا سجد وضعه بين كتفيه قال: ابن مسعود فانبعث أشقىٰ القوم (عقبة بن أبي مُعيط) فلما سجد رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ وضعه بين كتفيه وثبت النبي

ساجداً فضحكوا حتى مالَ بعضهم على بعض من الضحك، فانطلق منطلقٌ إلى فاطمة رضي الله عنها وهي جويرية ـ أي صغيرة ـ فأقبلت تسعى ورفعته عن أبيها ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما قضى رسول الله الصلاة قال: (اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش) ثم سمى وهو يرفع وجهه إلى السماء يدعو قائلاً: اللهم عليك بعمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد، قال: ابن مسعود فو الله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر ثم سحبوا إلى القليب (البئر الذي دفنوا فيه) قتلى يوم بدر ثم قال: رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واتبع أصحاب القليب اللعنة[1] .

ومن الأذى النفسي والبدني أيضاً. اجتماع الملأ من قريش على ضربهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والسير خلفه في كل مكان وضربه بالحجارة إلى غير ذلك مما فعلوه بالرسول، فقد اجتمع أشراف قريش يوماً في الحِجّرِ فذكروا رسول الله وقالوا ما رأينا مثل صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا وسب آلهتنا، وظلوا يتحدثون عنه فبينما هم على ذلك إذ طلع عليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقاموا إليه ووثبوا عليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به من كل جانب فأخذوا يضربونه وهو يقول: نعم أنا الذي أقول ذلك، حتى أخذ رجل منهم بمجمع ردائه فقام أبو بكر دونه وهو يبكي، ويقول "أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله؟!"

---

[1] البخاري مع الفتح ج ١ ص ٥٩٤ ، مسلم ص ١٤١٨.

و مما فعله المشركون مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان ذلك أشد على نفس النبي[1] أن عمه أبو لهب كان من أشد الناس عداوة له وكذلك كانت امرأته أم جميل، وقد كانت تسعى بالإفساد بينه وبين الناس بالنميمة، حتى لا يسمع له الناس ويكرهونه، وكانت تضع الشوك في طريقه والقذر على بابه، فلا عجب أن أنزل الله فيهم سورة كاملة تسمت باسمه [**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ**] {المسد:١} ولما جاء عند الكعبة ومعه أبو بكر ، جاءت أم جميل وفي يدها فهر ـ مجموعة من الحجارة الصغيرة ـ من حجارة ، فلما وقفت عليهما قالت: "يا أبا بكر أين صاحبك ؟ فقد بلغني أنه يهجونني والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه" ثم انصرفت ولم تر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: أبو بكر يا رسول الله أما تراها رأتك؟ فقال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقد أخذ الله ببصرها عني ، وكانت تنشد:

مذمم أبينا ودينه قلينا وأمره عصينا[2]

وقد بلغ من أمر أبي لهب أنه كان يتبع رسول الله في الأسواق، وفي المجامع ومواسم الحج ويكذبه وهو يقول هذا ابن أخي لو كان صادقاً لاتبعناه، هذا مع ما للنبي من عظيم القدر ومنتهى الشرف بَيدَ أنه قد حظى بالحمل الثقيل والعناء الطويل، منذ أول يوم صدع فيه بالدعوة ولقد لاقى النبي من سفهاء قريش أذى كثيراً، فكان إذا مر على مجالسهم بمكة استهزءوا به وقالوا ساخرين هذا ابن أبي كبشه يُكَلّمُ من السماء؟ ، وكان أحدهم إذا مر على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ

---

[1] انظر ص ٢٥٤ ج٣١ السيرة النبوية للصلابي.

[2] البخاري مع الفتح ج٦ رقم ٥٥٤ وبعدها.

يقول له ساخراً مستهزئاً أما كلمتك السماء اليوم ؟ وهكذا كانوا يفعلون مع النبي وأيضاً يُفعل هذا مع أتباع الأنبياء في كل عصر ومصر، حتى أن عدو الله أمية بن خلف بصق في وجه النبي الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يتوقف مسلسل المحن والعذابله ولأصحابه أبداً في مرحلة مكة.لكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أراد ان يقول لأمته عامة وللدعاة –الذين يلاقون في سبيل الله ما يلاقون –خاصة، حديثاً صححه الألباني في صحيح الجامع قال حبيبنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأبي هو وأمي "لقد أُخِفتُ في الله ولم يُخف أحد مثلي، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد مثلي، ولقد أتت على ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولا لبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شئ يواريه إبط بلال"[1] يا لها من شدة بعد شدة ! ويا لها من متاعب لا يصبر عليها إلا أفذاذ نذروا حياتهم لدينهم ودعوتهم، ولكن كان ذلك على قدر الرسالة التي حملها ليكون قدوة للدعاة والمصلحين من بعده، فها هو أفضل مخلوق على وجه الأرض يفعل به الأعداء هكذا، وإذا كان الاعتداء الأثيم قد نال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هل هناك أحد يَعُدّ كرامته أكبر من كرامة النبي ولكن تلك سنة الله في الدعوات، فهذا سعد بن أبي وقاص قال: قلت يا رسول الله أيّ الناس أشد بلاء قال (الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة سهل بلاؤه إن كان في دينه رقة ابتلي[2]

---

[1] صححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٠٠٠ وانظر الروض الانف للسهيلي ج٢ ص٣٣ السيرة النبوية للصلابي ج١ ، ج٢ ص٢٥٥.

[2] ابن ماجة بالبر على البلاء رقم ٤٠٢٣.

حسب دينه، فلم يبرح البلاء بالعبد المؤمن حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة) وهذا يسير مما تعرض له نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ولكن هل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقط هو الذي تعرض لمثل هذا الإيذاء؟ لا؛ ولكن الصحابة أيضاً تعرضوا لما تعرض له نبيهم، فقد غُلبوا على أمرهم في مكة، فهل يتركون دعوتهم تضيع أم يفروا بها ليبلغوها.

شئ يسير مما لاقاه الصحابة من الأذى في مكة:

أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

وما لاقاه من الأذى في سبيل الدعوة، فلقد تحمل الصحابة جميعا رضوان الله عليهم من البلاء العظيم وقد بذلوا أموالهم ودماءهم في سبيل الله، ولم يسلم حتى أشراف المسلمين من هذا الابتلاء، فلقد أوذي أبو بكر الصديق ووضع على رأسه التراب وضرب في المسجد الحرام بالنعال حتى ما يعرف وجهه من أنفه. فلقد روت عائشة رضى الله عنها فقالت: اجتمع أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلا.. فألحّ[1] أبو بكر على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الظهور فقال له النبي (يا أبا بكر إنا قليل) فلم يزل يلحّ عليه حتى ظهر رسول الله ونفر من المسلمين في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته فقام أبو بكر خطيباً في قريش فكان أبو بكر أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله وثارت ثورة المشركين على أبي بكر وعلى المسلمين فضربوه في نواحٍ من جسده

[1] ألح: طلب بالإلحاح وكثرة.

ضرباً شديداً ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين[1] ويجرهما على وجه أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وجاءت بنو تيم (قبيلة أبي بكر) تدافع عنه فأَجْلَت المشركين عن أبي بكر وحملوه حتى أدخلوه منزله وهم لا يشُكّون في موته ثم رجعت بنو تيم إلى المسجد فقالوا والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، ورجعوا إلى أبي بكر وجعلوا يكلمونه ويلومونه فما تكلم إلا آخر النهار، فكان أول ما تكلم به: هو ما فعل رسول الله ؟ فسبوه وقالوا لأمه أم الخير: انظري أن تطعمي أبا بكر شيئاً أو تسقيه، فلما خَلَت أمه به، قالت له وألَحّت عليه فلم يزد أن يقول ما فعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهي تقول والله مالي علم بصاحبك ثم قال لها: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عن رسول الله.. فما سكت حتى حملوه وأوصلوه إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم، وفيه من الجراح ما يجعله لا يستطيع أن يمشي وحده ، بل يتهادي بين أم جميل وأمه حتى وصل إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما رآه النبي والصحابة حتى انكب عليه وأخذ يقبله والصحابة فعلوا مثل ما فعل النبي بأبي بكر ، ورق له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رقة شديدة.

لكن هذا الرجل الذي خالطت الدعوة لحمه وشحمه ووصلت إلى شِغاف قلبه لا يتكلم عن ما حدث له بل قال: للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأبي أنت وأمي يا رسول الله ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي بارة بولدها وأنت مبارك فادعها إلى الله عله يستجيب منك فتسعد في الدارين، فدعا لها النبي

[1] مخصوفتين أي مدببتين بها في النعال كالأمير والمسامير.

ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم دعاها إلى الإسلام فأسلمت،[1] فرضي الله عنها وعن ابنها وعن الصحابة أجمعين ، مع كل ما لاقاه هذا الرجل من الضرب والإهانة في سبيل دعوته ولكنه أول ما يتكلم يسأل عن رسول الله ، إنها فكرة استقرت في القلب واستحقت الدفاع عنها،

ومع كل ما هو فيه، إلّا أنه لا يترك دعوته انظر إليه ماذا يقول عن أمه التي كانت على الكفر وقتها، قال يا رسول الله وهو لا يتمالك نفسه يا رسول الله هذه أمي وهي بارة بولدها فادعها إلى الله فدعاها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الله فأسلمت، وهذا ببركة دعوته التي استقرت في قلبه، فها هو يدعو إليها مهما كانت الظروف، ولهذا نعرف أن الدعوة غير محدودة بزمان ولا مكان، ولا يستطيع أحد كائنا من كان أن يُضيق عليها.

ومنهم بلال بن رباح رضى الله عنه : فقد تضاعف أذى المشركين لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولأصحابه حتى وصل إلى ذروة العنف، وخاصة مع المستضعفين من المسلمين فلقد نكلت بهم قيادات الكفر لتفتنهم في دينهم ولتردهم عن دينهم ولتجعلهم عبرة لغيرهم فما ستطاعوا، يحدثناعبدالله بن مسعود رضى الله عنه عن بلال بن رباح فيقول: أول من أظهر الإسلام سبعة وهم رسول الله وأبو بكر وعمار بن ياسر وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد فأما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمنعه الله بعمه أبي طالب وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه وعشيرته، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع

---

[1] البداية والنهاية جـ ٣ صـ ٢٠٢٣.

الحديد وصهروهم في الشمس ، فما منهم من أحد إلا وقد أجابهم على ما أرادوا إلا بلال ، فقد هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه فأعطوه للولدان[1] والعبيد وأخذوا يطوفون به في شعاب مكة ويضعون على صدره الحجارة الثقيلة ويجردونه من ملابسه ويجرونه في بطحاء مكة في الشمس المحرقة وهو لا يزيد على قوله (أحد، أحد) ولم يكن لبلال رضى الله عنه سند من البشر ولا ظهير ولا عشيرة تحميه ، ولا سيوف تذود عنه. هذا المجتمع الذي لا يعرف إلا طبقة الحكام وطبقة المحكومين، فالطبقة العليا تحكم وتتحكم بما تراه مناسبا لها ولمصالحها، وهذا المجتمع موجود في كل زمان ومكان ليس في مكة فحسب، [**وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ**] {البروج:٨} فما أصبَرَ بلال وما أصلَبه، فقد كان صادق الإسلام طاهر القلب، ولذلك صبر، ولم يتزعزع أمام التحديات وأمام صنوف العذاب وكان صبره وثباته أشد الغيظ لهم، ويزيد همهم ويزيد حنقهم عليه خاصة أنه كان الرجل الوحيد من ضعفاء المسلمين الذي ثبت على الإسلام فلم يعط الكفار ما يريدون منه[2] فلما سئل لماذا كنت تقول (أحد، أحد) وهذه الكلمة تغيظهم وتجعلهم يزيدون عليك في العذاب؟ فأجاب بقوله: "والله لو وجدت كلمة تغيظهم أكثر من هذه الكلمة لقلتها ، والله لقد اختلطت مرارة العذاب وحلاوة الإيمان فزادت حلاوة الإيمان فصرت لا أشعر بالعذاب" يا له من صبر في المحن مما جعل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحدثنا عن مقامه

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ ص ٣٩٤.

[2] السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ ٣٩٣.

الرفيع في الجنة، ففي صحيح مسلم (أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: لبلال إني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة" فهذا مقامه عند النبي وعند الله في الجنة ومقامه عند الصحابة ما قاله الفاروق عمر بن الخطاب "أبو بكر سدينا أعتق سيدنا، يعني بلالا.

ومن أمثال ذلك عمار بن ياسر وأهل بيته الذين كان يقول لهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـوهو يمر عليهم وهم يعذّبون فلا يملك إلّا أن يقول لهم "صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة" وهذه أم عمار بن ياسر السيدة الطاهرة سمية بنت خياط رضي الله عنها التي ضربها أبو جهل بحربته فأرداها قتيلة فهي أول شهيدة في الإسلام ومن قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيهم ولهم "اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت"[1] ثم ما لبث أن مات ياسر تحت وطأة العذاب في سبيل عقيدة تمكنت من قلبه.

وهذا مصعب بن عمير: الذي كان يلقب بفتى مكة المدلل ، ثم يخبرنا سعد بن أبي وقاص عنه وهو يقول "لقد رأيته جهد في الإسلام جهداً شديداً، حتى لقد رأيت جلده يتحشف (يتطاير) تحشف جلد الحية عنها ، حتى إن كنا لنمر عليه فنحمله مما به من الجهد، وهو ثابت لم يتزحزح عن عقيدته أبداً[2].

ومنهم أيضا: خباب بن الأرَتّ: وهو ذا يذكر لنا ما حدث له فقد سأله عمر بن الخطاب في خلافته عما لاقي في الله فقال: خباب انظر يا أمير المؤمنين فكشف عن

---

[1] صحيح الجامع ج٢ والتربية القيادية جـ١ ص ٣٤٢ انظر.

[2] انظر الروض الأنف جـ٢ ص١٩٥.

ظهره فإذا هو قد بَرُص، فقال: عمر ما هذا يا خباب؟ قال خباب: لقد أوقدوا لي ناراً ـ يا أمير المؤمنين ـ ثم وضعوني عليها، ثم وضع رجل منهم رجله على صدري فما اتقيت الأرض إلا بظهري، وما أطفأ تلك النار إلا شحمي[1]" وقد وصل به العذاب على يد صناديد قريش فالصقوا ظهره بالأرض على الحجارة المحماة، ولما اشتد عليه العذاب إلى درجة لا تطاق جاء إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسأله يا رسول الله ألا تستنصر لنا ربك، ألا تدعو لنا؟ فقعد وقال: "قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيؤتي بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويُمَشّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظمه أو عصبه ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون[2]".

ومنهم عبدالله بن مسعود وسعد بن أبي وقاص وغيرهما ممن ناله العذاب في مكة على يد أهلها، فهل يمكثون فيها أم يبحثون عن مكان آخر غيره لا يضطهدون فيه ويأمنون فيه على أنفسهم ودعوتهم حتى يبلغوها للناس؟ من أجل ذلك بحثوا عن المدينة المنورة ولذلك هاجروا.

سادساً:من دواعي الهجرة الحصار الظالم(في شعب أبي طالب):

[1] ما ينزل من اللحم لما يوضع على النار (الودق).

[2] صحيح البخاري.

وكان ذلك من المحرم من العام السابع إلى المحرم من العام العاشر من البعثة النبوية.

ازداد إيذاء المشركين من قريش أمام صبر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحابته من الإيذاء وإصرارهم علي الدعوة إلى الله، ثم بلغ الإيذاء قمته في الحصار المادي والمعنوي، الذي ضربته قريش ظلماً وعدواناً على النبي وأصحابه وليس هذا فحسب بل تعداه إلى كل من عطف عليهم من قرابتهم حتى ولو كانوا من المشركين، وهو المسمي بالمقاطعة أو الحصار الاقتصادي والاجتماعي وهذا من الأساليب التي يلجأ إليها الأعداء كثيراً عندما يصعب عليهم الوقوف أمام الدعاة كثيراً وحينما يجدوا منهم صلابة فيقومون بتفعيل هذا الدور كوسيلة ضغط على الدعاة من الأقرباء والأهل. [1]

ذكرت كتب السيرة أن الإمام الزُّهْرِي قال: "...ثم إن المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا حتى بلغ المسلمون الجهد واشتد عليهم البلاء، واجتمعت قريش في مَلَئِهَا على أن يقتلوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما رأى أبو طالب عمل القوم وغدرهم خاف على النبي منهم، فقام بجمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا برسول الله شِعبِهم ويمنعوه ممن أرادوا قتله، فاجمعوا على ذلك مسلمهم وكافرهم فمنهم من فعله حمية ومنهم من فعله إيماناً ويقيناً، فلما علمت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله منهم وأنهم سيحاربون من حاربهم، أجمعوا أمرهم على أشياء وكتبوها في صحيفة ووضعوها عند الكعبة، زيادةً في التأكيد

---

[1] السيرة النبوية للصلابي ج١ ص٢٦٩.

وحتى لا يقدر أحد على نقضها من العرب" ولنذكر هنا شيئاً مما كتبوه منها حتى نعرض له بشئ من الدراسة والتحليل. بعض ما ذُكر فيها .. كُتب في الصحيفة، (...وجمع العرب أمرهم فيما يخص بني هاشم قوم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ألّا يجالسوهم ولا يناكحوهم، سواء منهم لغيرهم ولاغيرهم ينكح منهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم، ولا يَدَعوا شيئاً من أسباب الرزق يصل إليهم أبداً، ولا يقبلوا منهم صلحاً، ولا تأخذهم ببني عبد المطلب رأفة ولا رحمة، ولا يخالطوهم ولا يكلموهم ولا يدخلوا بيوتهم، حتى يُسلموا إليهم محمداً ليقتلوه ، ثم تعاهدوا ووضعوا على أنفسهم العهود والمواثيق الغليظة على ذلك، ثم علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة زيادة في تأكيدها على أنفسهم. (كما في السيرة النبوية لابن هشام، وابن القيم في زاد الميعاد).

فلبثت بنو هشام في شِعبِهم ثلاث سنوات، وقد اشتد عليهم البلاء والجُهد حتى بلغ بهم ذروته، وقد قطع العرب عنهم الأسواق وكل شئ فلا يتركون لهم طعاماً يَقدُم من مكة ولا بيعاً إلا بادروهم إليه فاشتروه، وهم يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد خاف أبو طالب على النبي عَنَتَ قريش خوفاً شديداً[1] .

هذا وقد اشتد الحصار على الصحابة وبني هاشم وبني عبدالمطلب، حتى اضطروا إلى أكل أوراق الشجر، وحتى أصيبوا بضيق العيش وشدته إلى أن أحدهم قام للبول كعادته فإذا هو يسمع قعقعة شئ يقعقعها البول فبحث عنها

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ صـ ٣٩٤ وما بعدها والسيرة النبوية للصلابي.

فإذا هي قطعة من جلد بعير مختلطة بدم وكانت تسمى عند العرب (بالعُلهُث) فأخذها فوراً لشدة جوعه ثم غسلها ثم حرقها ودقها وسَفَّهَا، وشرب عليها الماء، وتقوت بهذه القطعة ثلاثة أيام ، وقد كان أشد من ذلك على المسلمين المحاصرين لما يسمعون من صوت الصبية والأطفال وهم (يتضاوون) من الجوع والنساء التي كانت تذهب هنا وهناك لتجد ما تأكله حتى ترضع طفلها فلا تجد فكان يزيد ذلك من هزالها وحزنها وحزن رجالهم فليس لديهم من شئ يقومون به تجاه هذه المأساة التي وقعوا فيها بغير ذنب أو جريرة إلا أنهم تركوا عبادة الأحجار وعبادة غير الله [**وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ**] {البروج:٨} ، وهذا ما يحدث مع أهل غزة بفلسطين، أولأهل أفغانستان، أوبورما، أولغيرهم من المسلمين في كل مكان، ولا ذنب لهم إلّا لأنهم مسلمون لا يعبدون إلّا الله سبحانه، وكل همهم إصلاح مجتمعاهم الفاسدة.

فأيّ عذاب وشدة عاشها المسلمون الأوائل ؟ فها هم يواجهون الصعاب بكل صبر وبلاء ، وكلما وجد فيهم أهل مكة صبراً غيروا معهم أسلوب التعذيب من صنف لآخر حتى يهنوا أو يضعفوا، ولكن أنّى لقوم رباهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على يديه،وصنعهم الله على عينه أن يضعفوا أو يلينوا، ليس شئ من هذا يخطر ببال أحد منهم، بل إنهم بحثوا عن مكان يبلغون فيه ومنه دعوتهم التي طالما عُذّبوا من أجلها ، حتى قيض الله سبحانه وتعالى، خمسة كانوا على دين قومهم من الكفر هم: هشام بن عمرو الهاشمي ، وزهير بن أمية المخزومي، والمطعم بن عدي ، وأبو البختري بن هشام ، وزمعة بن الأسود بن المطلب بن

أسد، وقد عملوا انقلاباً على دولة الكفر آنذاك ، المتمثلة في قريش وأهل مكة، وقد كانت عندهم نخوة ورجولة ـ وللأسف الشديد ـ ليست في بعض من قيادات المسلمين هذا العصر، فهاهم لم يفعلوا شيئاً تجاه إخوانهم المحاصرين سواء في العراق، وموت أكثر من مليون طفل عراقي مسلم أو في فلسطين (المحاصرة منذ عشرات السنين ولا حياة لمن تنادي) أو في الشيشان أو في أفغانستان أو في كشمير المسلمة، في الهند وفي غيرها من دول الإسلام في العالم ولا أحد يحرك ساكنا من المسلمين، فهاهم أهل الكفر قاموا بمحاصرة المسلمين ثم قيض الله جنداً من جنوده وما يعلم جنود ربك إلّا هو.

ولنا هنا وقفات مع هذه الحادثة الأولى من نوعها عند أهل الكفر وضد المسلمين وما قام الكفار وقتها من شرفاء قومهم، وللأسف فقد قام بها أعداء الإسلام الآن ولكن المسلمين لم يفعلوا شيئاً.

١) الدروس والعبر المستفادة من هذا السبب في الهجرة النبوية لأنه مرتبط بقضية مماثلة في هذا العصر وهي (الحصار من المسلمين للمسلمين ولا حول ولا قوة إلّا بالله):

٢) إن المسلم إذ تأمل بنود هذه الاتفاقية الظالمة يجد أن قريشاً في مكة ـ دولة الكفر المحاربة للإسلام آن ذاك ـ، قد أحكَمَت بنود هذه الاتفاقية ولم تدع فيها من ثغرة يمكن النفاذ من خلالها مما يؤكد لنا كمسلمين تمام التأكيد أنها قد وُضِعت بعد مداولات ومشاورات على نطاق واسع، وقد شارك في وضع هذه البنود الظالمة (النُّخب وكبار المفكرين

والمتخصصين والعديد من الخبراء أصحاب الذكاء المفرط وأهل القلوب الحاقدة على الإسلام[1]).

٣) نرى نحن كمسلمين، ونحن ننظر في شروط الصحيفة أنها قد وضعت قيداً مهماً للتضيق وهو عدم الزواج بين أهل مكة كلهم من جانب وبين المحاصرين من جانب آخر، وهذا الزواج جانب اجتماعي مهم عند الجميع ، فالزواج غالباً ما يؤدي إلى التآلف والتآخي والتراحم والتواصل والتزاور بين أهل الزوجين، فلو تم شئ من هذا سيؤدي حتماً إلى فشلِ وَفَكِّ الحصار وهذا غير مراد للكفار، ولهذا نَصّت الوثيقة الظالمة على عدم الزواج بين الطرفين وهذا في عصرنا عدم استخدام الأجواء وعدم وصول أي إمدادات أو استيراد أو تصدير أو ... أو ... إلى غير ذلك وعدم اختراق الحصار لأي ممثلين رسميين من أي دولة إلى هذه الدولة المحاصرة عن طريق الأجواء ، وهذا إمعان في الذل والهوان عند المحاصِرين أو إخوانهم من باب أولى وهذا ما يحدث الآن عند المسلمين.

٤) هناك بند في الصحيفة هو: النهي عن البيع والشراء منهم، وهذا يُظهِر لنا الجانب الاقتصادي وأهميته إذ البيع والشراء عادة ما يكون هو عصب الحياة الاقتصادية، ويقوم بعملية تبادل المنافع بين البشر، فلو انعدم هذا التعامل فسينهار البناء الاقتصادي وتكون الحياة الاقتصادية مهددة

---

[1] انظر السيرة النبوية للصلابي ، فقه السيرة المنهج الحركي للغضبان ، السيرة النبوية للندوي ، السيرة النبوية لابن هشام.

بالانهيا، وبالتالي يصبح الإنسان فاقدا لضروريات الحياة مما يعرض حياة المحاصرين للخطر المحقق، ومن ثمّ يظهر أثر ذلك واضحاً للرضوخ والانصياع أو الانبطاح، لأوامر من يملك هذه الضروريات ومعلوم أثر ذلك على حياة الفرد والجماعة والشعب والحكومة المحاصرة، ولهذا أرادت قريش من هذا البند تجويع المسلمين وإذلالهم وجعلهم أداة في يد دولة الكفر، وهذا قد يحدث لولا إرادة الله وحده، ثُمّ حسن تربية النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهذا الجيل الفريد من المسلمين فقد مر علينا أنهم أكلوا أوراق الشجر والجلود[1] وغيرها .. وهذا ما يفعله الكفار الآن مع المسلمين وها نحن نرى انبطاح القيادات وركوعها أمام الشيطان الدولي المسمى (بالامم المتحدة ـ والتي لا تتحد إلّا على المسلمين) فاعتبروا يا أولى الأبصار.

٥) ومن الدروس تعليق الكفار للصحيفة الظالمة ووضعها في جوف الكعبة وهذا مما يضفي ويزيد على الظلم الذي في الصحيفة القُدُسِّية والشّرعيّة، ويجعل بنودها تأخذ طابع القداسة والتي تقيد بها جميع العرب، لأنهم يقدسون الكعبة ويعظمونها مما يجعلها مُلزِمةً للجميع، وهذا ما يفعله المسلمون الآن ـ حينما سموها "منظمة الأمم المتحدة" ضد المسلمين ، وهو ما يجعل كل ما يفعلونه ضد الإسلام والمسلمين مشروعاً من عند

---

[1] الرحيق المختوم للمبار كفوري ، ص ١٢٩ سيرة ابن هشام ج١ ص ٣٧٦ وبعدها ، وانظر السيرة النبوية للصلابي ج١ ص ٣٠٩.

هذه المنظمة، حتى أنهم يجعلون الدول الإسلامية المتجاورة الحدود لا تفتح حدودها أمام شعوب الدولتين بحجة أنها ملتزمة بقرارات (الأمم المتحدة) وإذا ما فعلت الدول الكافرة أي شئ فإنهم يخدمون قراراً يُقنّن الظلم، على المسلمين ولكن [**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**] {الزُّخرف:٥٤}.

٦) من أهم الدروس في هذا المقطع من السيرة قولهم في بنود الصحيفة الجائرة عدم المجالسة والمخالطة ولا يدخلون على بن هاشم بيوتهم.....إلخ، فلماذا؟ لأنه قد يأتي الفشل على المقاطعة بسبب هذه الأمور وهذا ما لا يريده الكفار، فالمجالسة والمخالطة ووجهات النظر والحوار والأخذ والردّ قد يقنع المسلمون بعض من يميلون إليهم من أهل الصحيفة بما فيها من ظلم كبير، وأنهم قد أخطأوا مع المسلمين وهم يعلمون ما عند المسلمين من الحق والأدلة التي يقتنع بها غيرهم حتى لا يتم هذا ومن ثّمّ قد تفشل الخطة، لذا نَصّت الصحيفة صراحةً على عدم المخالطة والمجالسة.. وأنهم لا يدخلون عليهم بيوتهم فلماذا؟ لأن الدخول إلى بيوت المحاصرين قد يحرك الجانب الإنساني في النفس، وهذه طبيعية في الإنسان عندما يرى بيتاً يخلو من أبسط مقومات الحياة وقد أصيب أهله بالجوع والمرض وليس لهم ذنب إلا اختيار دين غير الدين الذي يعتنقه أهلهم، فلا شك أن العاطفة قد تتحرك عند هذا الشخص وفطرته قد تقوم وضميره قد يصحو، ومن ثم فسيحاول

جاهداً رفع الظلم والمعاناة عن المظلومين المتضررين، لهذا السبب نصّت الصحيفة على عدم دخول البيوت على المحاصرين حتى لا تفشل خطتهم وحتى لا يحدث ما لا تحمد عقباه بالنسبة لأهل الصحيفة، الذين يريدون أن يتحقق لهم ما أرادوا من تسليم أهل محمد لهم وهم يريدون قتله.

٧) من الدروس المستفادة التي يجب على المسلمين عامة والدعاة خاصة أن يعوها ويعملوا بها وهو الدخول في الأعراف والمواثيق والعادات المعاصرة بشرط عدم مخالفتها للشرع أواصطدامها به، مع اغتنام الفرص بالنسبة لدعوتهم. فها هو العرف عند مشركي بني هاشم وبني المطلب، فقد تضامنوا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ "صاحب الدعوة" حميّةً له فحموه كعرف من أعراف الجاهلية، ومن هنا يجب أن نعلم أنه يسَعِ المسلم أن يستفيد من قوانين الكفر فيما يخدم الدعوة، على أن يكون ذلك مبينا ومبنيّاً على فتوى صحيحة من أهل الفتوى، فمثلاً ما يتغنى به أهل الكفر وتردده أبواقهم من العرب والمسلمين في عصرنا الحاضر، ما يسمى بحقوق الإنسان والمواطنة، ففيه ـ أحياناً ـ ضماناً ولو بعض الشئ للمسلم والحرية الدينية في بعض من البلدان الأخرى، ولابد أن يستفيد منها المسلمون الآن في واقعهم، وكذلك غيرها من القوانين الكثيرة في كثير من أقطار العالم، فقد تعطي فرصة للمسلمين أن يستفيدوا منها وذلك من خلال موازنات محددة يحددها العلماء بالشريعة، وها هو النبي

ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ نرىٰ أن الذين قاموا بحمايته من القتل والأذىٰ هم أقاربه وإن لم تكن الحماية للرسالة، وإنما هي الحماية لشخص رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ حتىٰ لا يُعَيّر العرب أهله بقتله، فإذا أمكن المسلمين أن يستغلوا من هذه الحماية وسيلة طالما كانت مشروعة ، فهي كوسيلة من وسائل الجهاد وذلك لحماية دعوتهم.

٨) ومن الدروس أيضاً قد يأتي من المحنة الشديدة منح كثيرة. فحادثة المقاطعة هذه كانت من أكبر الأسباب في خدمة دعوة الإسلام في مكة، فقد قامت الدعاية لها بين القبائل والعرب، وقد ذاع الخبر في كل الأوساط في مواسم الحج، وقد لفت هذا الأمر الأنظار في أرجاء الجزيرة العربية إلىٰ الدعوة الإسلامية، والتي قد تَحَمّل صاحبها وأصحابه كل هذه الآلام والمشَقة سنوات طويلة أثرت في نفوسهم، إذن لابد وأن تكون دعوة حقة ولولا ذلك لما تحملوا كل هذا في سبيلها ،كما أثار الحصار سخط العرب علىٰ كفار مكة قسوتهم وشدتهم علىٰ بني هاشم وبني المطلب، وبالتالي آثار العطف والحب علىٰ النبي ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ وأصحابه فلما انفك الحصار المفروض حتىٰ أقبل الناس علىٰ الإسلام وحتىٰ ذاع أمرها في جميع الأوساط وتردد صداها في كل مكان وسمع بها من لم يسمع بها أبداً قبل ذلك،(وليس أدلّ علىٰ ذلك في هذا العصر من قضية الحجاب أو قضية منع بناء المآذن أو منع الآذان في بعض الدول.....الخ فإنها كانت خيراً وبركة علىٰ الإسلام وسط المحنة حيث

أسلم الكثير والكثير لهذا السبب) كما كانت هذه السنوات تربية لهذا الجيل من المسلمين تربية صحيحة، فقد لجمت الشهوات والعواطف وتخرج جيل من هذه المحنة قادرا على تحمل المسئولية...[1]

ولا يفوتني هنا أن أذكر دليلاً من الواقع المعاصر، فقد كانت هناك دعوة عالمية(المسماة بدعوة أوجماعة الإخوان المسلمين) وقد أراد لها مؤسسها الأول ـ الأستاذ حسن البنا وحمه الله تعالى ـ أن تخرج من النطاق الإقليمي ـ مصر الدولة التي نشأت بها هذه الجماعةـ إلى النطاق الدولي حتى تتم ـ كما يقولون ـ عالمية الإسلام ولكن كيف نخرجها من محيطها فما كان من حاكم هذه الدولة إلا أن قَلَب لهذه الجماعة المسلمة ظهر المَجَنّ فقتل من قتل اغتيالاً وغير ذلك، ثم أَعدَم مَن أَعدَم، واعتقل مَن اعتقل، وسام أهل هذه الدعوة سوء العذاب حتى كادت أن تهلك ـ لولا عناية الله لها ـ فقد حاصرها في كل مكان، حتى فر أهلها من هذه الدولة ـ مصر ـ، من تحت وطأة التعذيب والقتل، وقد شُرِّد أهلها في كل مكان من العالم: "والله إذا أراد شيئاً هيأ له الأسباب" فلما أراد الله أن يجعل هذه الدعوة في كثير من دول العالم سبَّبَ لها هذا الحاكم (جمال عبد الناصر الحاكم وقتها) يُشرِدُ أهلها وينكل بهم أشد التنكيل ، فخرجوا حاملين دعوتهم في قلوبهم وفكرهم وساروا بها في كل مكان حَلّوا فيه ، حتى صارت في أظلم الأوقات عليها وأحلك الظروف وقسوة الزمان على أهلها، فما مرت سنوات تزيد قليلاً حتى انتشرت هذه الدعوة في أكثر من ثلاثين دولة وصارت في ازدياد يستمر حتى غزت العالم

---

[1] المنهج الحركي للغضبان ، التربية القيادية للغضبان ج١.

كله إلا قليلاً، وهذا إن دل فإنما يدل على أن الدعوات لا تتوقف أبداً، ولا تموت بموت أصحابها، مهما كانت الظروف فكلما اشتد الأذى والعذاب على أهل الدعوة يزداد البعيدين منها سؤالاً عنها ويدخلون فيها على ما سمعوا عنها، وعن عذاب أهلها والله أعلم حيث يجعل رسالته.

ومن هنا لابد وأن تعلم تمام العلم أنه على كل فرد وفي أي وقت أن يسعى لتطبيق شرع الله على أهله، ولابد أن يضع أهله في حساباتهم احتمالات الحصار والمقاطعة من أهل الباطل، والكفر كله ملة واحدة وليس بعد الكفر ذنب، ونداء إلى جميع المسلمين عامة وقاداتها خاصة لتهيئة نفوسهم وشعوبهم وأتباعهم لمثل هذه الظروف، ولابد وأن يضعوا الحلول المناسبة لها إذا حدثت وأن تفكر بمقاومة الحصار بالبدائل المناسبة ـ وعلى رأسها العمل بشرع الله وتطبيقه عليهم ـ كي تتمكن الأمة من الصمود في وجه أي نوع من أنواع الحصار..[1]

إنه الحل ولا حل غيره ألا وهو الرجوع إلى الكتاب والسنة ولتطبيق شرع الله علينا ثم نترك الأمر إلى الله تعالى..

---

[1] انظر دراسات إسلامية لسيد قطب ص٩٧ وبعدها بتصرف دار الشروق، انظر الطريق إلى جماعة المسلين ص٣١٨ حسين بن محمد على جابر.

سابعاً: من دواعي الهجرة النبوية وأسبابها:

وفاة أهم شخصين مدافعين عن النبي ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ في مكة (كان ذلك في سنة ١٠ من البعثة ـ وهوالعام المسمىٰ تاريخياً بعام الحزن) وهما، عمه أبو طالب وزوجته البارّة السيدة خديجة.

ـ فعمه أبو طالب الذي كان يحوطه في خارج بيته ويغضب له، ولا يقدر أحد أن يقربه بأذىٰ من أهل مكة هيبة لأبي طالب، إذ كانت قريش وأهل مكة تقدر أبا طالب وتحترمه، فلما مات أبو طالب زادوا له نصيبه في العذاب والأذىٰ، فقد مات من كانت تحترمه وتقدره قريش ثم توفيت بعد عمه أبو طالب مباشرة السيدة خديجة وهو نفس العام الذي توفىٰ فيه عمه أبو طالب حتىٰ سماه بعض المؤرخين بعام الحزن فقد كان أبو طالب هو السند الخارجي الذي يدافع عن النبي ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ ويدفع عنه الأذىٰ من الكفار في مكة، وكانت خديجة هي السند الداخلي الذي يخفف عنه الأزمات والمحن عندما يرجع مهموماً، وبالتالي فقد تجرأ أهل مكة عليه ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ ونالوا من النبي ما لم يكونوا يطمعون فيه في حياة أبي طالب، أو السيدة خديجة.

وبهذا بدأت مرحلة عصيبة في حياة النبي ، وواجه فيها كثيراً من المصاعب والمشكلات والمحن والفتن، وذلك حينما أصبح النبي وحيداً في الساحة لا ناصر له من البشر، لكنه مضىٰ في تبليغه للرسالة التي بعثه الله من أجلها، وهكذا قد أُغلقت مكة وأعرض أهلها عن هذا الدين، فماذا عساه أن يفعل ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ لما رأىٰ ذلك؟ كان عليه أن يبحث عن مكان آمن ليهاجر إليه.

ثامناً:من الأسباب إعراض أهل الطائف وغيرها عن الدعوة:

ولما تكالبت المحن والفتن على النبي في بلده مكة التي نبت فيها، قرر النبي وعزم على الانتقال إلى بلدة أخرى وقوم غير قومه، حتى يعرض عليهم دعوته ويلتمس منهم نصرته رجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به ، فخرج إلى الطائف وأهلها، لكنهم كانوا كأهل مكة أيضاً بل وأشد، فقد أفاضت كتب السيرة فيما فعله أهل ثقيف مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن أغروا به سفهاءهم وصبيانهم ليضربوه، وقد اصطفوا صفين وهو يسير وسطهما حتى أدموا قدميه الشريفين، وكان زيد بن حارثة رضى الله عنه مولاه - وكان يُعرف بزيد بن محمد- يحاول أن يحميه أويدافع عنه وهو شاب صغير وقد أخذه ـ صلى الله عليه وسلم ـ معه في هذه الرحلة العصيبة، ثم في النهاية جاءه ملك الجبال وأخبره بأنه مستعد ليقضي عليهم فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الرؤوف الرحيم "عسى الله أن يخرج من أصلابهم من يوحد الله سبحانه وتعالى".كان هذا حال الطائف مع الدعوة الناشئة وصاحبها ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يدخل في الإسلام أحدٌ في هذه الرحلة الشّاقة إلّا عداس غلام عتبة بن ربيعة، وبهذا فقد أُغلقت أبواب الطائف هي الأخرى كما أُغلقت مكة قبلها، فلما رأى ذلك كان عليه أن يبحث عن مكان آمن ليهاجر إليه.

بعد كل هذه المعاناة؛ هل أخلد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الراحة؟ أم تُراه هبطت همّته واستسلم؟ أبداً ماحدث هذا بل أخذ يَجِدّ في البحث عن سبيل أو مخرجٍ لتبليغ دعوة الإسلام، فماذا فعل؟ غيّر النبي من خطته حسب ما يقتضيه

الزمن فقام من توّه وأخذ يطوف على القبائل العربية خارج مكة، وفي مواسم الحج والتجارة من هذه السنة طالباً للنصرة منهم، فتحرك ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المواسم التجارية ومواسم الحج التي تجتمع فيها القبائل وذلك وفق خطة سياسية دعوية محددة الأهداف واضحة المعالم ، وكان يصاحبه في رحلاته هذه ـ المؤرخ نسّابة العرب ومؤرخهم ـ أبو بكر الصديق، المتحدث بلسان النبي في رحلاته فكان يذهب معه إلى غُرُر الناس ـ أعيانهم ـ ووجوه القبائل، وكان أبو بكر يسأل وجوه القبائل ويقول لهم: كيف العدد فيك؟ وكيف المنعة عندكم ؟ وكيف الحرب فيكم؟ [1] وهكذا كان قبل أن يتحدث إليهم النبي ويعرض دعوته عليهم، وكان يقول "من يحملني إلى قومه فيمنعني حتى أبلغ رسالة ربي ، فإن قريشاً منعتني أن أبلغ رسالة ربي؟ وكان أبو لهب لعنه الله يمشي خلفه وهو يقول للناس: "لا تسمعوا له فإنه كذاب"

فكم من القبائل دعاها النبي إلى الإسلام؟ قال المباركفوري، قال الزهري: وكان ممن يسمى لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعاهم وعرض نفسه عليهم: بنو عامر بن صَعْصَعَة، ومُحَارِب بن خَصَفَة، وفزارة، وغسان، ومرة، وحنيفة، وسُليم، وعَبْس، وبنو نصر، وبنو البَكَّاء، وكندة، وكلب، والحارث بن كعب، وعُذْرَة، والحضارمة، وغيرهم من القبائل ولم يجد ـ

---

[1] انظر سيرة ابن هشام ج٢ / ٧٨ وبعدها ، جوانب الحذر والحماية ص ١٠٨ وبعدها وانظر السيرة النبوية للصلابي ج١ وبعدها.

صلى الله عليه وسلم ـ من هذه القبائل جدوي في نصرة دعوته الوليدة ومن ثم فلابد أن يبحث عن مكان آخر أيضاً.

تاسعاً:من أهم أسباب الهجرة إسلام أهل المدينة(الأنصار).

وهنا عدة عوامل يجدر بنا ذكرها وتحليلها حتى تكون لنا نورا في طريقنا وعبرة وموعظة لنا على مر الأزمنة والعصور، من هذه العوامل هي وصول نبأ دعوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أهل المدينة وانتشارها بينهم بعد المقابلة الأولى لبعض أهل المدينة (يثرب) لذا اتجه التخطيط النبوي المحكم، ليركز همه على المدينة المنورة بالذات، فكان النبي لا يسمع بقادم يقدم من العرب عامة ومن المدينة خاصة، إلّا وتَصَدّى له وكلمه ودعاه إلى الإسلام.

وفي موسم الحج من سنة ١١ من النبوة ـ يوليو سنة ٦٢٠م ـ وجدت الدعوة الإسلامية بذورًا صالحة، سرعان ما تحولت إلى شجرات باسقات، اتقى المسلمون في ظلالها الوارفة لفحات الظلم والعدوان حتى تغير مجرى الأحداث وتحول خط التاريخ.

وجاء أول موكب من مواكب الخير من المدينة وكانوا ستة نفر، كانوا هم البذرة الأولى وكانت تلك هي البداية المثمرة مع وفد المدينة في موسم الحج، فعند عَقَبة مِنَى قال لهم رسول الله "من أنتم"؟ قالوا: نفر من الخزرج قال: "أمن موالي يهود"؟ قالوا نعم فقال النبي لهم "أفلا تجلسون أكلمكم"؟ قالوا بلى: فجلسوا وجلس النبي معهم، ودعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم شيئاً من

القرآن، فلما فرغ النبي من دعوتهم إلى الله قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون والله إنه هو النبي الذي تتوعدكم به اليهود ويقاتلونكم معه، فلا يسبقونكم إليه، وسبحان الله أجابوه إلى الإسلام دون تلعثم أو تفكير، وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا وبينهم من العداوة والشر ما بينهم، وإنا سندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم ما أجبناك إليه من هذا الدين، فعسى الله أن يجمعهم بك فلئن جمعهم الله عليك فلا رجلٌ أعز منك، ثم انصرفوا إلى يثرب راجعين إلى قومهم وهم يحملون الإسلام معهم، وقد كانوا ستة نفر وهم:

١ـ أسعد بن زُرَارة [من بني النجار].

٢ ـ عوف بن الحارث بن رفاعة ابن عَفْراء [من بني النجار].

٣ ـ رافع بن مالك بن العَجْلان [من بني زُرَيْق].

٤ ـ قُطْبَة بن عامر بن حديدة [من بني سلمة].

٥ ـ عُقْبَة بن عامر بن نابي [من بني حَرَام بن كعب].

٦ ـ جابر بن عبد الله بن رِئاب [من بني عبيد بن غَنم].

فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم الإسلام ودعوهم إليه، فاستجاب لهم الكثير من قومهم، حتى فشا ذلك في المدينة فلم تبقى دار من دور الأنصار إلا وقد ذُكر فيها أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمر الإسلام، أسلموا أم لم يسلموا..[١] وكان هذا هو أول موكبٍ للخير وصل إلى المدينة. ولنتأمل معاً أمر هؤلاء النفر الذين أسلموا، فهؤلاء لم يكتفوا بالإيمان فقط ، بل أخذوا على أنفسهم العهد أن

---

[١] انظر السيرة النبوية جوانب الحذر والحماية ص ٨٠ وبعدها.

يَدْعُوا قومهم إلى الإسلام الذي آمنوا به، وقد وفوا جميعا بهذا العهد، فقد نشطوا في الدعوة حتى سَمِعت المدينة كلها أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ .. وأمرالإسلام، أكان من المعقول في لحظة يسيرة مثل هذه أن يتحول هؤلاء من وثنين متعصبين لما كانوا عليه من اعتقاد خاطئ إلى أنصار للدعوة متفتحين، وجنود للحق مخلصين، وعنه مدافعين، ودعاة إلى الله مسلمين متجردين، يذهبون إلى أقوامهم وبين جوانحهم نور وعلى وجوههم نور، وإنهم لعلى نور..؟

ومن الجدير بالذكر أن من حكمته صلى الله عليه وسلم إزاء ما كان يلقى من أهل مكة من التكذيب والصد عن سبيل الله، أنه كان يخرج إلى القبائل في ظلام الليل، حتى لا يَحُول بينه وبين هذه القبائل أحد من أهل مكة المشركين. نعم هذه هي والله مشيئة الله وحكمته قد هيأت للدعوة مجالها الخصيب وحِماها الأمين .. أما السنوات الصعبة (العجاف) والتي قضاها النبي محاصراً في مكة بنضال مستمر وكفاح دائم وتطوافاً والتماساً للحليف والناصر الذي يحميه ليبلغ دعوة ربه .. فإنها قد زالت إلى غير رجعة .. وسيكون بعد ذلك اليوم، للإسلام قوة رادعة وجيش باسل، وإناسٌ يضحون من أجله بكل غالٍ ونفيس، والعاقبة للمتقين .. ثم تتوالى على النبي في مكة منذ هذا اليوم مواكب الخير وطلائع النور التي هيأها الله للخير، ولتتصل بالهداية، وَتَسْبَح في النور، وترجع إلى التراب ـ الموت ـ بما وعت من خير، وبما حملت من نور، ومن المعروف أن هذه المقابلة التي حدثت مع هؤلاء الستة عند العقبة، لم تكن بيعة في الحقيقة، لأنها قد كانت بين نفر قليل من الخزرج ، وهم ليسوا ممثلين عن قومهم فليس من حقهم أن يلتزموا

بمعاهدة، حتى يرجعوا إلى قومهم ولكنهم أخلصوا في تبليغ رسالة الإسلام حتى حدث ما حدث من انفتاح وانتشار بسببهم، ثم وافي في الموسم التالي اثنا عشر رجلاً من الأنصار الذين أسلموا على يد الدعاة الأوائل، فلقوا النبي عند العقبة وبايعوه البيعة الأولى والتي سميت تاريخياً (ببيعة النساء لأنها لم يكن فيها دفاع ولاحرب ولم يأخذ عليهم النبي عهداً بالنُّصرة)، وكانوا عشرة من الخزرج واثنان من الأوس،وهم الستة الذين أسلموا في موسم الحج سنة ١١ من النبوة، ووعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بإبلاغ رسالته في قومهم. وكان من جراء ذلك أن جاء في الموسم التالي ـ موسم الحج سنة ١٢ من النبوة، اثنا عشر رجلًا، فيهم خمسة من الستة الذين كانوا قد التقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم في العام السابق ـ والسادس الذي لم يحضر هو جابر بن عبد الله بن رِئاب ـ وسبعة سواهم، وهم:

١ ـ معاذ بن الحارث، ابن عفراء من بني النجار [من الخزرج]

٢ ـ ذَكْوَان بن عبد القيس من بني زُرَيْق. [من الخزرج]

٣ ـ عبادة بن الصامت من بني غَنْم [من الخزرج]

٤ ـ يزيد بن ثعلبة من حلفاء بني غنم [من الخزرج]

٥ ـ العباس بن عُبَادة بن نَضْلَة من بني سالم[من الخزرج]

٦ ـ أبو الهَيْثَم بن التَّيَّهان من بني عبد الأشهل [من الأوس].

٧ ـ عُوَيْم بن ساعدة من بني عمرو بن عَوْف [من الأوس].

الأخيران من الأوس، والبقية كلهم من الخزرج.

التقىٰ هؤلاء برسول الله صلىٰ الله عليه وسلم عند العقبة بمِنىٰ فبايعوه بيعة النساء، أي وفق بيعتهن التي نزلت بعد الحديبية.

روىٰ البخاري عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال: [تعالوا بايعوني علىٰ ألا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفَّي منكم فأجره علىٰ الله ، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به في الدنيا، فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله ، فأمـره إلىٰ الله ؛ إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عـنه]. قـال: فبايعناه. وقد وصل بهم نشاطهم الدعوي أن استقطبوا اثنين من الأوس علىٰ الرغم من العداء القائم بينهم آنذاك، وهذا هو بداية ائتلاف القبيلتين وتوحدهما تحت راية الإسلام[1].

ثم فعل النبي ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ هذه المرة شيئا هامّاً ألا وهو أن بعث النبي معهما مُصعب بن عمير وقد اختاره النبي نظراً لمواصفات خاصة كانت فيه ـ رضي الله عنه ـ (قد ذَكرتُ هذه الصّفات بشيءٍ من التفصيل في كتاب الشباب المسلم ، للمؤلف) منها إجمالاً: كثرة حفظه للقرآن ولذلك كان يؤمهم حتىٰ أنه كان يسمىٰ بالمقرئ، وإلىٰ جانب حفظه للقرآن كان عنده شئ من اللباقة وحسن الخلق والحكمة، ولذلك تمكن في خلال أشهر معدودات من نقل الصورة الكاملة الحية التي انتهت إليها الأوضاع بين المسلمين في المدينة، ومدىٰ القدرات والإمكانيات والطاقات المتاحة، وكيف تغلغل الإسلام في جميع قطاعات

---

[1] انظر السيرة النبوية للصلابي ج١ ص ٣٥٨ وبعدها البداية والنهاية ج٣ وفقه السيرة ص٩٨.

الأوس والخزرج، وأن القوم قد استعدوا للمبايعة الجادة وأنهم الآن قادرون على حماية الدعوة وصاحبها.

ثم جاءت البيعة الثانية وهي التي بها تغير بها مجرى التاريخ وكانت كما ذكرها الإمام البخاري وغيره والإمام أحمد مفصلاً عن جابر بن عبد الله وكان ممن حضر هذه البيعة "فبايِعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون لومة لائم ، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة" فقاموا إليه وبايعوه وقام أسعد بن زرارة وهو اليوم أصغرهم فقال: "رويدا يا أهل يثرب فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله وأن إخراجه اليوم هو مفارقة للعرب كافة وفيه قتلٌ لخياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله، وإما أن تخافوا من أنفسكم جبنا فبينوا ذلك الآن، فهو عذر لكم عند الله" فقام البَرَاء بن معرور وأخذ بيد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: "والذي بعثك بالحق لنمنعنّك مما نمنع منه أُزُرنا يا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابسط يدك نبايعك فإنا والله أبناء الحرب ورثناها كابراً عن كابر،" فقام أبو الهيثم بن التّيّهان وقاطعه قائلاً "يا رسول الله: إن بيننا وبين القوم حبالا وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلاً " بل الدَّمُ بالدّم، والهدم بالهدم أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم، أخرجوا إليّ اثني عشر نقيبا ليكونوا على

قومهم أمناء فيهم كنقباء موسى" فأخرج القوم اثنى عشر نقيبا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس...[1]"

فلو نظرنا في هذه البيعة العظمى لوجدناها بملابساتها وبواعثها وآثارها، وما جرى فيها من حوارات بين الأنصار والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ .. ودوافعها التاريخية أنها هي "فتح الفتوح" فقد استعدت القيادات الكبرى على أن تضحي بأرواحها ودمائها في سبيل الله كما أن البنود الخمسة في المعاهدة من الوضوح والقوة بحيث لا تقبل التمييع والتراخي.."

درس آخر هام للدعاة. إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يعين النقباء، بل ترك لهم حرية الاختيار، لأنهم سيكونون كفلاء عنهم، كما جعل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هؤلاء النقباء بمثابة مشرفين على سَير الدعوة في يثرب، حيث بهذا الأمر قد استقام عُود الإسلام هناك وكثر المقبلون عليه المتبعون له، وأراد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يشعرهم بأنهم ليسوا غرباء، حتى يبعث معهم واحدا غيرهم، وأنهم قد أصبحوا هم أهل الإسلام وحماته وأنصاره، لكن أرسل معهم سيدنا مصعب ليعلمهم الإسلام.

باستقراء سيرة وتراجم أصحاب البيعة الثانية من الأنصار وعددهم، فإننا سنجد أنهم كانوا ثلاثة وسبعين أو اثنين وسبعين وقد استشهد منهم على عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرابة ثلثهم، كما نلاحظ أنه قد حضر وشهد المغازي كلها، أكثر من النصف منهم مع المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وحضر منهم

---

[1] انظر السيرة النبوية للصلابي ج١ ص٣٩٤ وبعدها والرحيق المختوم. وتهذيب سيرة بن هشام ج١ ص٢٥٠.

غزوة بدر حوالي سبعين رجلاً ولقد حدث لهؤلاء الأنصار المبايعين ما لم يحدث لغيرهم من البلاء، وقدوصلوا إلى مالم يستطع أن يصل إليه غيرهم من الأنصار من الفضائل، فمنهم من قضى نحبه، ولقي ربه شهيداً ومنهم من بقي حتى ساهم في قيادة الدولة المسلمة، وشارك في أحداثها الجسام بعد وفاة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبمثل هذه النماذج ـ إخواني في الله ـ قامت دولة الإسلام الأولى، وستقوم على أكتاف مثل هؤلاء دولة الإسلام دائماً، هذه هي النماذج التي لا تطلب إلا الجنة، والتي قد قدمت كل شئ في سبيل عقيدتهم، هؤلاء الرجال الذين يتصاغر التاريخ في جميع عصوره أن يحوي مثل هؤلاء الرجال. (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب.....)

لهذه الأسباب ولغيرها كانت المدينة المنورة هي أول مكان للدعوة الإسلامية، وكان سر اختيار النبي ﷺ لها. ولكن هل النبي من تلقاء نفسه اختار المدينة ؟ أم أن هناك تخطيط وإعداد وتربية؟ ؟ في السطور القادمة نحاول أن نتعرف عن قرب على بعضٍ من هذه الأمور والله الموفق وحده سبحانه.

الهجرة
إعدادٌ وتخطيطٌ وتربيةٌ

إن الهجرة إلى المدينة قد سبقها تمهيد وإعداد وتخطيط من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان ذلك بتقدير الله تعالى ـ وحده، ثم بترتيب وإعداد النبي ﷺ فكيف كان هذا الإعداد؟ كان هذا الإعداد في اتجاهين متوازيين هما:

الأول: إعداد شخصية المهاجرين.

والثاني: المكان المهاجر إليه وهو المدينة.

وهذا ما حدث من النبي إذ لم تكن الهجرة - كما تبين مما سبق - نزهة أو رحلة سياحية، يُرَوح الإنسان فيها عن نفسه، ولم يكن معناها إلا إهدار للمصالح، والتضحية بالأموال، والنجاة بالشخص فحسب بدينه الذي فرّ به، مع الإشعار بأنه مستباح منهوب قد يهلك في أوائل الطريق أو نهايتها، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم، لا يدرى ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان. كانت الهجرة ترك للأهل والوطن وإلى غير رجعة، وترك للدنيا بكل ما فيها، وقطع جميع الوسائل التي قد تكون عائقاً من عوائق الهجرة، كل ذلك من أجل عقيدتهم، ولهذا فإن الهجرة تحتاج إلى جهد كبير وشاق من المهاجر نفسه، حتى يصل إلى هذه القناعة التامة الكاملة بهذه الهجرة.

ومن هذه الوسائل التي استخدامها النبي ﷺ لإعداد شخصية المهاجرين:

١. التربية الإيمانية العميقة: والتي معها الإرادة القوية والعزيمة الصادقة وهو ما مر علينا بشيء يسير من هذه التربية فيما سبق.

٢. الاضطهاد والأذى: الذي لحق بالمؤمنين من مكة على يد أهلها الكفار، مما دعا المهاجرين إلى القناعة التامة بعدم إمكانية المعايشة مع الكفر أبدا فلابد من الهجرة بهذا الدين الجديد.

٣. التمحيص للمسلمين الأوائل في السنوات الأولى في مكة، حيث تدربوا عمليا على اللجوء إلى الله والاعتصام به، وأن كل شيئ هو بيد الله حقاً. فالقرآن المكي الذي لا يزال يتنَنَزّل عليهم والتنويه بالهجرة وفيه ولفت الأنظار إلى الخروج إلى أرض الله الواسعة[1]. فقد تناولت كثير من السور التي نزلت بمكة أمر الهجرة تلميحا به، وذلك حتى تُعِدُّهم ليوم سيهاجرون فيه، وإن مكة ليست هي البلدة التي ستتحمل وجود دولة إسلامية بها ـ على الأقل في هذه الفترة من عُمرِ الدعوة، فمثلا نزل أول ما نزل من آيات تُلَوح بالهجرة كانت في سورة الزمر المكية يقول الله تعالى [**قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**] {الزُّمر:١٠} وفي سورة الكهف وهي السورة التي تحدثت عن الشباب المسلم الذي ضاقت به بلده وأرضه زرعا لما ترك عقيدتهم الباطلة إلى دعوة الإسلام الجديدة، وفيها عن هجرتهم وما حدث معهم... حتى

---

[1] السيرة النبيوة د/ الصلابي ج١ ص٤١٤.

وصل إلى الصحابة صورة مصغّرة عما سيرونه لاحقاً، وهو أنهم لابد وأن يحدث معهم مثلما حدث لهؤلاء الفتية من هجرتهم من أجل عقيدتهم، ثم تتابعت بعد ذلك الآيات الصريحة التي تتحدث عن الهجرة من بلدهم، وإن الله جعل لهم مكانا آمنا، وأنهم سيظلمون حتى يخرجوا من بلدهم إلى المكان الذي سيهاجرون إليه، ومن ثم نزل قوله تعالى [**يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ**] {العنكبوت:٥٦} فهذه الآية قد نزلت في تحريض المسلمين الذين كانوا بمكة على الهجرة إذ أن البقاء في بقعة على أذى الكفار ليس صحيحاً بل الأفضل لهم أن يخرج المسلمون ويهاجروا إلى الأرض الواسعة، الله هو الذي يرزقهم بعد هجرتهم ، فالرزق لم يختص ببلد دون بلد ، أو مكان دون مكان فقال: لهم الله [**وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ**] {العنكبوت:٦٠} [١]

٤. وهاهي سورة النحل تقول [**وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**] {النحل٤١ :٤٢} ثم إن السورة أكدت المعنى مرة أخرى يقول سبحانه وتعالى [**ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**] {النحل:١١٠} وهذه الآية قد عرَف سامعوها وقارءوها أن من

---

[١] انظر تفسير القرطبي ج٦ ص٢٥٠٧٣ بن كثير ج٢ ص٣٦٠.

سيهاجر فإن الله قد تكفّل له بالمغفرة والرحمة بعد الهجرة ، وأنهم قد ظلموا وافتتنوا في دينهم فوجب عليهم الهجرة.

٥. كانت الهجرة إلى الحبشة عبارة عن تهيئة للنفوس وتدريبا عمليا على ترك الأهل والوطن في مقابل العقيدة التي سيضحون من أجلها، وفي سبيلها بكل شئ غال ورخيص[١].

الأسلوب الثاني:

إعداد المكان المهاجر إليه المدينة المنورة: فالذي يدقق في أمر الهجرة يجد أن الرسول (ﷺ)لم يسارع بالانتقال : إلى المدينة في الأيام الأولى، وإنما تأخر الأمر بالهجرة لأكثر من نحو عامين وما ذلك إلا دقة النبي (ﷺ)وحكمته ليتأكد من وجود القاعدة الواسعة والصلبة عند الأنصار في المدينة، ووافق ذلك إعداد للمهاجرين في القرآن الكريم وبخاصة بعد انتقال سيدنا مصعب بن عمير إلى المدينة، ثم تأكد ذلك صراحة على لسان الأنصار إذ طلبوا من النبي (ﷺ) بإلحاح أن يهاجر حتى ينصروه، كما أكدت المناقشات التي دارت بين النبي (ﷺ) والأنصار لما طلبوا من النبي أن يأذن لهم في أن يميلوا على أهل مِنَى ممن آذى الرسول (ﷺ) في مكة بأسيافهم فقال لهم النبي (إنى لم أؤمر بذلك الآن) وهكذا يكون قد تم التأكد للنبي (ﷺ) من معرفة مدى الإستعداد الذي كان عند أهل المدينة وقوة عقيدتهم وأنهم سيتحملون (تبعات) ذلك مهما كلفهم، فهذا هو الإعداد الحقيقي الذي ما بعده إعداد.

---

[١] السيرة النبوية د/ الصلابي ج١ ص٤١٥ نقلا عن السيرة النبوية تربية أمة ودولة د/ صلاح الشامي ص١١٨.

ثم كان ما يريده المسلمون في مكة وهو الهجرة:

وذلك لما بايعت طلائع الخير مواكب النور من أهل يثرب النبي ﴿ﷺ﴾ على الإسلام والدفاع عنه ونصرته مهما كلفهم ذلك كانت ثائرة المشركين قد ثارت فازدادوا إيذاء للمسلمين فما كان من النبي ﴿ﷺ﴾ إلا أن يأذن للمسلمين بالهجرة إلى المدينة، وكان المقصود منها هو إقامة دولة جديدة في المدينة، تتحمل أعباء الدعوة الإسلامية وتجاهد في سبيلها، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وقد كان التوجيه من الله تعالى، فقد روت عائشة رضى الله عنها قالت: لما صدر السبعون من عند النبي ﴿ﷺ﴾بعد البيعة طابت نفس النبي بأن جعل الله له مَنَعة، وقوما هم أهل حرب وعدة، وخبرة ، ومروء.

وجعل البلاء يشتد بالمسلمين من المشركين لما علموا بخروجهم فضيقوا على النبي ﴿ﷺ﴾ وأصحابه ونالوا منهم ما لم يكونوا قد نالوه من قبل ذلك من الأذى والشتم ، فشكا ذلك الصحابة إلى النبي ﴿ﷺ﴾ واستأذنوه في الهجرة فقال لهم النبي ﴿ﷺ﴾ " قد أُريتُ دار هجرتكم أُريتُ سبخة ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان، ولو كانت السراة أرض نخل وسباخ لقلت هي هي" ومكث أياما ثم خرج النبي إلى الصحابة مسروراً وهو يقول "قد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب فمن أراد الخروج فليخرج إليها".

ومن هنا جعل القوم يتجهزون ويتوجهون ويتوافدون ويتواسون ثم يخرجون خفية من الكفار حتى لا يعلموا بهم، وكان أول من قدم إلى المدينة بعد إذن النبي هو أبو سلمة بن عبد الأسد، ثم تتابع الخروج بعد ذلك وهم ينزلون على الأنصار

في دورهم، والأنصار يؤوونهم وينصرونهم ، وخرج بعد ذلك المهاجرون كلهم إلى المدينة فلم يبق في مكة من المسلمين إلا ضعيف أو مريض، والنبي وأبو بكر وعلى بن أبي طالب[1] .

وإليك بعض الأساليب التي اتخذها المشركون في محاربة المهاجرين إلى المدينة حتى لا يصلوا إليها ومنها:

الأسلوب الأول: أسلوب الحبس للمهاجرين:

فقد لجأت إليه قريش كأسلوب لمنع المهاجرين من الهجرة فكانت تقبض على كل من يحاول الخروج وتقوم بحبسه داخل أحد البيوت، ثم تضع يديه ورجليه في القيد ثم تفرض عليه رقابة مشددة حتى لا يتمكن من الهروب، وأحياناً يكون بالحبس عذاب ورقابة مثلما حدث مع عباس بن ربيعة وهشام بن العاص رضى الله عنهما حيث كانا محبوسين في بيوت لا سقف لها، وذلك زيادة في التعذيب لهما حيث حرارة الشمس، وسط البيئة الجبلية الشديدة الحر، وبهذا تكون قيادة الكفرة قد حققت بهذا هدفين.

أولهما: منع المحبوسين من الهجرة إلى المدينة.

الثاني: أن يكون هذا الحبس درساً وعبرة لكل من يحاول الهجرة من الذين يفكرون فيها ممن بقي في مكة من المسلمين، ولكن هذا لم يُجْدِ نفعاً مع المسلمين وقد حماهم الله من الكافرين وهاجروا. وهذا ما نراه دائما مع المصلحين الداعين إلى الله.

[1] انظر السيرة النبوية للصلابي وما بعدها بتصرف واختصار ، نقلاً عن سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد.

الأسلوب الثاني: أسلوب التجريد من المال.

وهذا قد حدث مع صهيب بن سنان النمرى (الرومي)، والذي تقلب في الرق حتى وصل إلى عبدالله بن جدعان الذي أعتقه، ثم أسلم هو وعمار بن ياسر في يوم واحد، وقد كانت هجرة صهيب عملاً تتجلى فيه روعة الإسلام والإيمان معاً وعظمة التجرد لله سبحانه من كل حظوظ النفس، حيث ضحى صهيب بكل ما يملك في سبيل الهجرة لله ورسوله، حتى قد قابله بعض أهل مكة قائلين له "لقد أتيتنا صعلوكاً لا مال لك، وقد كثر مالك عندنا وقد بلغت ما بلغت، ثم تنطلق بنفسك ومالك؟ هذا والله لا يكون أبداً، فقال لهم: إنكم تعلمون أني من أرماكم بالنبل وهذه أربعون سهماً معي في كنانتي ، ولن تصلوا إلى حتى أضع في كل رجل منكم سهماً ثم أعمد إلى السيف أقاتلكم به، ولكن لو تركت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا "نعم" قال إن مالي في مكان كذا وكذا وهو لكم" فلما وصل إلى المدينة وبلغ النبي ﴿ﷺ﴾ فقال: ربح البيع أبا يحي" ثم تلا عليه قوله تعالى [**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالعِبَادِ**] {البقرة:٢٠٧} وقد نزلت فيه الآية كما قال: عكرمة عن ابن عباس[١]. وكأننا نراه في مصادرة أموال الدعاة وتجميد أموالهم.... حسبنا الله ونعم الوكيل.

الأسلوب الثالث: أسلوب التفريق بين الزوجين والأهل:

وهذا ما حدث مع السيدة أم المؤمنين أم سلمة (هند بنت أبي أمية) إذ لما أرادت الهجرة خرجت هي وزوجها ، ولكن لما علم المشركون بهذا قاموا إليها، وأخذها

---

[١] أخرجه الحاكم في المستدرك ج٣ رقم ٣٩٨ نقلا عن السيرة النبوية للصلابي.

أهلها من زوجها ثم أخذوا ابنها حتى قطعت أو انخلعت يداه وهم يتجاذبون ابنها أمامها ، ثم تركوها بعيدة عن زوجها وابنها وهي تبكي على ذلك مدة عام كامل، حتى مر بها بعض الناس، وكلمهم في أمرها حتى تركوها بعد هذا التفريق، وبعد هذا الصمود والصلابة فيها، وهي التي ضحت بزوجها وولدها وبأهلها وبكل شئ في سبيل الله والهجرة إلى المدينة.

بعد هذه الإطلالة السريعة في تحليل ما سبق يتأكد لنا أن التاريخ يعيد نفسه فلا جديد إنما هو تكرار ما يحدث من الطغاة المتجبرين والمستبدين من عناد وعتوّ يقابله إصرار ويقين من الدعاة المصلحين وتفاني وحبٍ لدينهم ودعوتهم وتضحية بكل غالٍ ونفيس في سبيل نصرتها..

سؤالٌ يطرح نفسه لماذ الهجرة إلى المدينة المنورة بالذات؟

لو نظرنا لوجدنا الكثير من دواعي اختيار المدينة مقرّاً للدعوة الإسلامية خبرته ﷺ بالواقع المحيط به. فكما ذكرت كتب السيرة أن الهجرة كانت بتخطيط وإحكام تام، وليس ارتجالاً أو فكرةً طرأت على عقل النبي أراد أن يطبقها، فلئن كان هاجر من وطنه ومسقط رأسه فمن أجل دعوته وحفاظاً عليها، وإيجاداً لأرضٍ خصبة تقبل هذه الدعوة وتستجيب لها وتدافع عنها، وتنشرح لها صدورهم وتنفتح لها عقولهم وتستجيب لها قلوبهم ..، فهذا هو منتهى العقل والذكاء.. إذ أن بقاء الدعوة في أرض قاحلة مجدبة لا يخدمها بل يعوقها ويشلّ حركتها وقد تتعرض للانكماش بدلا من الانفتاح، فعليه إذن أن يخرج بها من

هذا الوسط والقوم الذين تبلدت نفوسهم بحب الغَيّ والضلال إزاء هداية السماء، ومن ثم انقبضت صدورهم وانغلقت عنها أسماعهم، وبالتالي نشأ الصراع بين الحق والباطل، ثم خضعت القضية - الفرار بالدعوة إلى مكان آخر- بعد ذلك لشيء من الموازنة عند النبي ﷺ صاحب الدعوة حسب ما تقتضيه الظروف المحيطة به، "فإذا كانت الجماعة المؤمنة من القلة بحيث لا تملك إلا أن تظل مستضعفة في الأرض مغلوبة على أمرها ، تتلقى كل يوم الاضطهاد من الفئة الكافرة المتمثلة في أشياع الباطل، والضربات الموجعة التي لا هوادة فيها ولا رحمة على أصحابها، والسخرية والاستهزاء الذي لا أدب فيه ولا عفة فماذا عساها أن تفعل؟ هل هناك أمامها طريق غير أن ترحل إلى البلد التي يُمَكّن الله لهذه الدعوة فيها؟ وتكون هي نقطة الانطلاق حتى تنتشر دعوة ربها وتصل إلى العالمين جميعاً، إن المدينة الآن صارت قاعدة تحمي هذه العقيدة وتُكفَلُ بها الحرية ويتاح فيها للدعوة أن تتخلص من الجمود الذي انتهت إليه في مكة، حيث تظفر بحرية الدعوة نفسها من جهة، وحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة من جهة أخرى،

وكما يقول الكاتب الكبير الأستاذ منير الغضبان في كتابه "المنهج الحركي في السيرة النبوية" "…. ومن أهم ما يؤيد ذلك في رأيٍ هو الوضع العام الذي انتهى إليه مهاجرة الحبشة الأوائل ولم يُعلم أن رسول الله ﷺ بعث في طلب المهاجرين إلى الحبشة حتى مضت الهجرة إلى يثرب وبعد غزوة بدر وأحد والخندق والحديبية وذلك لأن الحبشة كانت عبارة عن قاعدة احتياطية للإسلام والمسلمين، وتقدم

أن الرسول (ﷺ) ذهب بدعوته إلى الطائف وإلى ثقيف وإلى القبائل مثل بني شيبان وبني بكر وبني ثعلبة وغيرهم من القبائل لكنهم لم يؤمنوا[1]. وأيضاً لما للمدينة من الفضائل التي حظيت بها المدينة في القرآن والسنة وهذه الفضائل كانت من الأسباب التي جعلت الهجرة إليها سهلاً وأمراً مطلوباً.

فلقد عظم الله شرف المدينة المنورة بهجرة النبي وصحابته إليها حتى فضلت على سائر البقاع في أهلها، وأنها قد عصمها الله من الدجال والطعون ببركة دعاء النبي (ﷺ) لها:

ومن الفضائل التي حظيت بها:

١- محبة النبي لها بل ودعائه بالبركة فيها لأهلها:

ومن دعاء النبي للمدينة أن يضاعف لها في البركة عن مكة فعن انس قال: قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ" اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما جعلت لمكة من البركة" وعن أبي هريرة قال: "كان الناس إذا رأوا أول التمر جاءوا به إلى رسول الله (ﷺ) فيقول: اللهم بارك لنا في تمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مُدّنا، اللهم إن إبراهيم خليلك وعبدك ونبيك، وأنا عبدك ونبيك، وإنه دعاك لمكة وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه" قال: ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك التمر " كما في صحيح مسلم كتاب الحج باب فضائل المدينة.

---

[1] المنهج الحركي في السيرة النبوية للغضبان وتفسير الظلال والتربية القيادية ج٢ ص٢١٥ وبعدها.

ومن فضائلها أن الله تعالى قيض لها ملائكة يحرسونها فلا يستطيع الدجال أن يدخلها" كما دعا لها النبي بالصحة ورفع عنها الوباء وأن لا ينزل بها الطاعون.

كما أخبر بذلك النبي فعن أبي بكرة عن النبي قال" لا يدخل المدينة رعب الدجال، لها يومئذ سبعة أبواب على كل باب ملكان" وفي رواية أن النبي (ﷺ) قال: "على أبواب المدينة ملائكة ولا يدخلها الطاعون ولا الدجال" وفي رواية عن أنس عن النبي قال: "وليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة ليس له دخولها وما من باب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فيخرج الله منها كل كافر ومنافق"[1].

٢- ومن فضائلها الأجر الكبير لمن صبر على شدتها.

فقد وعد النبي من صبر على شدة المدينة. وضيق العيش بها بالشفاعة العظيمة يوم القيامة، فعن سعد بن أبي وقاص قال رسول الله (ﷺ) "المدينة خير لهم لو كانوا يعملون، لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدله الله فيها من هو خير منه ولا يثبت أحد على لأوائها (شدتها وضيقها) وجهدها إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة".

٣- ومن فضائلها فضيلة الموت فيها:

فعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله (ﷺ) "من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها، فإني أشفع لمن يموت بها، وكان عمر بن الخطاب يدعو

---

[1] مسلم ج٢ كتاب الحج باب أن المدينة تنفي شرارها رقم ١٣٨١ وبعدها والبخاري كتاب فضائل المدينة ج٤ رقم ١٨٦٩.

بهذا الدعاء: "اللهم ارزقني شهادة في سبيلك واجعل موتي في بلد حبيبك ورسولك" وقد استجاب الله فاستشهد في محراب رسول الله وهو يَؤُمّ المسلمين في صلاة الفجر[1].

٤- ومن فضائلها أنها هي كهف الإيمان وتنفى الخبث عنها:

فالإيمان يلجأ إليها مهما ضاقت به البلاد والأخباث والأشرار، ولا يخرج منها أحد رغبة عنها إلا أبدلها الله خيراً منه من المؤمنين الصادقين، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : "إن الإيمان ليأرِزُ (ينضم ويجتمع) إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها، والذي نفسي بيده لا يخرج منها أحد رغبة عنها إلا أخلف الله فيها خيراً منه، ألا إن المدينة كالكير للخبث، لا تقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها كما ينفى الكير خبث الحديد" ومنها عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله ﴿ﷺ﴾ "إن المدينة طيبة تنفى الذنوب كما تنفى النار خبث الحديد أو الفضة" البخاري غزوة أحد.

٥- ومن فضائلها أن الله حفظها ممن يريدها بسوء .

فقد تكفل الله بحفظها من كل قاصد إياها بسوء، وتوعد النبي من أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فيها أو أخاف أهلها بلعنة الله وعذابه وبالهلاك العاجل، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ "لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع (ذاب وسال) كما ينماع الملح في الماء ، المدينة حرم، من أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه يوم القيامة

---

[1] البخاري ومسلم والسيرة النبوية.

عدلاً ولا صرفاً" وقال النبي "عن أُحد، هذا جبل يحبنا ونحبه اللهم إن إبراهيم حرم مكة وإني أحرم المدينة ما بين لابتيها" المدينة لا يختلي خلاها ولا يقطع ولا يجز خشبها الرطب ولا ينغر صيدها ولا تحل لقطتها إلا لمن أشارها (أشاعها) ولا يصلح للرجل أن يحمل السلاح فيها لقتال، ولا يصلح أن يقطع منها شجرة وأن يعلف بعيره" البخاري وغيره وفيها يقول ﷺ "لو رأيت الظباء بالمدينة ترتع ما ذعرتها، وإنه قد حرم ما بين لابيتها " وبعد فإن هذه هي بعض الفضائل والخصائص العظيمة قد جعلت الصحابة يتعلقون بها ويحرصون على الهجرة إليها، والمقام فيها، وبذلك تكون قد تجمعت طاقات الأمة فيها نحو القضاء على الشرك بأنواعه والكفر بأشكاله، وفتحوا مشارق الأرض ومغاربها، وقد جمعت هذه الأحاديث من صحيح البخاري والذي أفرد كتابا لها في صحيحه سماه كتاب "فضائل المدينة" ومسلم كتاب الحج باب فضل المدينة ج٢، ج٤ فتح الباري وغيرهما شرح مسلم للنووي.

التخطيط للهجرة ..أسباب النجاح ومظاهره

لكل عمل من الأعمال أيّاً كان مظاهر تدل على نجاحه أو العكس، وهذا العمل الذي كان سببا في انتشار الإسلام وبناء قاعدة صلبة له، تمثلت في الهجرة النبوية المباركة، لها مظاهر نجاح، وعوامل ساعدت على نجاحها.

فما هي العوامل التي كانت سبباً في هذا النجاح العظيم؟

أقول: إن النجاحات العظيمة لا تأتي إلا بجهود عظيمة وتضحيات أعظم، ولكن النبي ﷺ يدرك بأنوار النبوة وعبقرية القائد أن الهجرة يتوقف عليها مستقبل الإسلام، فإذا نجحت فإنها ستفتح كل الأبواب الموصدة تجاه الدعوة، وتزيل كل الحواجز التي كانت أمامها، وسيملأ الإسلام الأرض ويحكمها، أما إذا تعطلت أو فشلت ، سيبقى الإسلام حبيس هذا السجن الذي فرضته قريش على الدعوة في مكة، ولهذا بعد أن أذن الله له بالهجرة فكر المصطفى ﷺ وقدر ، وخطط ودبر، وحشد كل الطاقات البشرية، وتعلق قلبه بالله في انتظار العون الإلهي.. وما كان ليضيع الله أجر من أحسن عملاً .. فاجتمعت لخطة الهجرة عوامل نجاح قل أن تجتمع في أي عمل آخر، وها نحن نشير إلى بعضها.

من هذه العوامل.

<u>الأول: وضوح الهدف عند الرسول الكريم ومَن معه:</u>

فقد تحددت أهداف الهجرة في الإيواء وحرية الحركة والانتقال بالدعوة الإسلامية إلىٰ أرض الانطلاق .. وكانت الرؤية واضحة أمام رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ فبني خطته علىٰ أسس علمية عملية فمثلاً:

بقصد الإيواء وضع الرسول ﴿ﷺ﴾ خطة الهجرة إلىٰ الحبشة لحماية المسلمين الأوائل والحفاظ عليهم كقاعدة أولىٰ للدعوة الإسلامية.

بدافع حرية الحركة بدأ الرسول ﴿ﷺ﴾ في الاتصال بالقبائل والوفود بحثا عن النصرة، والخروج من تلك الدائرة الضيقة التي أحكم القرشيون غلقها فخرج إلىٰ الطائف وشيبان وبنىٰ بكر وغيرها من القبائل المجاورة لمكة والتي وصل عدد القبائل التي زارها النبي ﴿ﷺ﴾ أكثر من عشرين قبيلة.

وحتىٰ يجبر الأرض المفتوحة المهيأة لاحتضان الرسالة الإسلامية. ركز ﴿ﷺ﴾ علىٰ:

أـــ دراسة المواقع الأخرىٰ التي من الممكن أن يذهب إليها.

ب ـ قام بالرحلة الاستكشافية إلىٰ الطائف والحبشة – الهجرة الأولىٰ والثانية – وثقيف وديار بكر وغيرها من الأماكن .

ج – تأكد له في النهاية أن يثرب هي أمل المستقبل في الإنطلاق والانفتاح علىٰ العالم تحقيقاً لمبدأ عالمية الدعوة الإسلامية.

العامل الثاني: الخبرة التامة بالواقع عند النبي ﴿ﷺ﴾

كان من أهم عوامل نجاح الهجرة المعرفة السابقة والمعلومات الدقيقة التي توافرت لرسول الله ﴿ﷺ﴾ كانت أحد أهم عوامل نجاح خطته في الهجرة.

فمثلاً:

١. معرفته ﷺ بطبائع النجاشي وعدله، ورجاحة عقله وحسن جواره هي التي دفعته إلى اتخاذ قرار الهجرة- المؤقتة- للمسلمين الأوائل إلى الحبشة.

٢. المعرفة بتاريخ الأنبياء السابقين كانت من أهم العوامل في إسلام (عداس) مولى عتبة وشيبة ابني ربيعة ، فمعرفة الرسول بنبي الله يونس بن متى وقريته (نينوى) هي التي فتحت قلب الرجل للإسلام وأكدت له صدق حديث محمد ﷺ.

٣. المعرفة بطبائع العرب وعاداتهم وتقاليدهم ومواثيقهم، هي التي جعلته يخطط لبيعتي العقبة الأولى والثانية على أسس علمية سليمة ويحقق من ورائهما أقصى استفادة ممكنة، فهو يعلم أن طبيعة هؤلاء لا يغدرون وأنهم أبناء الحرب، كما ذكروا عن أنفسهم فخطط ﷺ للبيعة الأولى والثانية.

٤. المعرفة بالإمكانيات المتاحة لديه ﷺ. هي التي ساعدته على الاستغلال الأمثل لهذه الإمكانيات، سواء كانت معنوية أو مادية.

٥. المعرفة بطبائع الرجال المحيطين به. هي التي دفعته إلى التوظيف الأمثل لقدراتهم ووضع كلاً في مكانه بما يحقق أقصى استفادة ممكنة من هذه القيادات، فالرجال الذين معه قليلون، فوظف جميع الطاقات ومن لهم صفات معينة كما فعل مع: أبو بكر ـ علي ـ عبدالله بن أبي بكر ـ أسماء بنت أبي بكر ـ عامر بن فهيرة – عبد الله بن أريقط.....

٦. المعرفة بالعقلية القرشية هي التي جعلته يتوقع المطاردة في طريقه ويتهيأ لها ويبنى خطته لمواجهتها ، فكلّما أحكموا خطة تجاه النبي ودعوته، قام النبي بخطة مماثلة ومحكمة حتى يواجهها فخطة القتل مثلا (بدار الندوة) واجهها بتركه وطنه بعد أن أمره الله بهذا حتى لا يقع في مواجهة مع كفار قريش، وبهذا تخسر الدعوة كثيرا من طاقاتها المحدودة وخطة المطاردة، واجهها بالإعداد المسبق والتخطيط المحكم وغير ذلك، فلولا معرفته بطبائع قريش وعقليتهم ما حدث ذلك ولكن لا ننسى أن هذا أولاً وأخيراً تشريع لنا، وليقضى الله أمراً كان مفعولاً.

٧. المعلومات الدقيقة التي توافرت للرسول ﷺ عن الأماكن التي يفكر في الهجرة إليها، وإلمامه بالظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية في هذه المواقع هي التي ساعدت على اتخاذ قراره بالهجرة إلى المدينة ومعرفته أهلها، فلم يذهب إلى أي دولة أو قبيلة أو مكان آخر. (وكل هذا ليس من باب التسلية أو الترف العلمي، ولكن من باب التشريع لأمته، وهو للدعاة والقادة والمسؤلين من الأهمية بمكان حتى يعلم الجميع أن الإسلام ليس عبادات وفقط بل هو دين شامل لكل مناحي الحياة).

فكلما زادت المعرفة لدى القائد أوالمخَطِّط على أُسس علمية سليمة، ـ فإن هذه المعرفة تعفي الأفراد والمسؤلين من الوقوع في أخطاء تخطيطية، أو اتخاذ قرارات غير صحيحة.

وهذا ما وضح في خطة الهجرة إذ أنها في كل مرحلة من مراحلها استندت إلى خبرات سابقة، ومعلومات متجددة، فحققت أهدافها ..

فعلى سبيل المثال تكليفه ﴿ﷺ﴾ لعبد الله بن أبي بكر بالقيام بدور جليل في الاستطلاع والمخابرات، ليؤكد تلك القدرة للرسول على اتخاذ قراراته في ضوء معلومات سليمة، فلقد كان الرسول وهو في الغار يعرف كل ما يدور في مكة، ويبنى على أساس هذه المعلومات التي كلف بها رجلا يتميز بالصدق والأمانة ، والقدرة على استيعاب كل ما يصل إليه من أخبار ونقلها بدقة وأمانة إلى غرفة العمليات الإدارية.(مع العلم أنه لا توجد هناك أيّ وسائل اتصال كما هو معروف الآن)

العامل الثالث: اختيار التوقيت المناسب:

لعامل الوقت أهمية متناهية في عملية التخطيط ، وخصوصا إذا كان الأمر يتعلق بقضايا يتوقف عليها مصير دعوة ومصير أمة مثل قضية الهجرة.

فالتأخير في انتهاز الفرصة المناسبة أو اتخاذ قرار قبل موعده، يعرض الخطة كلها للفشل مهما كانت القوى التي تساندها.

ولقد أحسن ﴿ﷺ﴾ الاستفادة من عامل الزمن في رحلة الهجرة فمثلاً.

١. تمت تهيئة المناخ داخل المدينة وأصبح الجميع هناك الأنصار والمهاجرين في انتظار قدوم الرسول ... حتى اليهود وهم يتربصون بالدعوة الإسلامية كانوا ينتظرون في حذر قدومه ﴿ﷺ﴾، ومن هنا فقد تهيأت

العقول والقلوب لاستقباله، وأخذوا يفكرون في تغير الموقف لصالحهم. ولو أنه ﷺ دخل المدينة قبل أن تُمهّد للقائه، ربما ترتبت على ذلك حرب أهلية بين مؤيديه ومعارضيه، ولكنه ﷺ اختار التوقيت الذي تأكد فيه أن أنصاره قد أصبح بأيديهم الزمام، وأن معارضيه لا يملكون منعه أو حتى الاعتراض على هجرته.

٢. أيضاً اختيار الرسول ﷺ الذهاب إلى بيت أبي بكر نهارا في وقت قيلولة في صيف ساخن، لا يخرج فيه الناس من منازلهم عادة، فوصل إلى هدفه دون أن تعترضه قوى الشر ... ولو كان ﷺ قد خرج قبل أو بعد هذا الوقت لكانت قريش قد تبعته وأجهضت خطة الهجرة قبل حدوثها.

٣. خروجه ﷺ من بيته في توقيت مناسب بعد الثلث الأخير من الليل، حيث كان المشركون في انتظاره على باب بيته يترقبون خروجه لصلاة الفجر، وساعده السير في الليل على أن يقطع مع صاحبه المسافة حتى غار ثور دون أن ينتبه لهما أحد من المشركين، وذلك يقينا منهم أن السير ليلا في مثل هذه الصحراء مغامرة لا تؤمن عواقبها، ولذلك لم يكلفوا أنفسهم بمطاردته إلا بعد أن طلع النهار.

٤. بقائه ﷺ في الغار ثلاثة أيام، كان من عوامل نجاح الخطة لأن قريشا كانت قد هدأت ثائرتها، ويئس الكثير من فرسانها من المطاردة والثلاثة أيام لا هي كثيرة بحيث ينفد الزاد منهم أو يصعب على مَن يستطلع

الأخبار الإتيان بما يريدونه، أوالتي تنقل إليهم الطعام والشراب في الغار تُرهق أو يحدث لها مكروه إذ أنها كانت إذ ذاك الوقت في الأشهر الأخيرة من حملها ....، وليست قليلة إذ لو خرجوا من الغار قبلها فمن الممكن أن يلحق بهم الذين يطاردونهم من الكفار، ثم إن الرسول ﴿ﷺ﴾ اختار وقت الخروج من الغار والطريق خال ليس فيه أحد.

العامل الرابع: القدرة على مواجهة الظروف الطارئة المتغيرة:

فقد واجه ﴿ﷺ﴾ في طريقه للهجرة بعض الظروف القاسية التي كان من الممكن أن تفسد خطة الهجرة أو تعطّلها.

- فخطط الرسول ﴿ﷺ﴾ لإخفاء بيعة العقبة حتى عن أقرب الناس إليه - إذ لم يعلم أحد بالبيعة لا من الكفار ولا حتى من المسلمين المكّيين إلّا عليّ بن أبي طالب والعباس عمّ النبي وذلك لأن لكل واحد منهم دور في البيعة- وتيقن المبايعون أن أمرهم في الخفاء لم يطلع عليه أحد، وقد أخذوا حذرهم ودبروا أمرهم في جوف الليل ، بعد أن نام أهل الموسم ـ ولا يمنع حذر من قدر كما يقولون ـ فقد انكشف الأمر وخرج من يصرخ بأعلى صوته: يا أهل الجُباجب (المنازل) هل لكم في مذمّم ـ يقصد محمد ﴿ﷺ﴾، والصبأة ـ الصحابة ـ معه قد اجمعوا على حربكم؟ .. وسمع رسول الله ﴿ﷺ﴾ صوت هذا الصارخ فقال: هذا آذى العقبة ـ أي عدو الله ـ أما والله لأفرغن لك[1] يقصد أنه الشيطان.

[1] انظر ابن الجوزي جـ١ ، صـ ٣٦١.

- مبادرته ﷺ وطلبه من المبايِعين أن يرجعوا إلىٰ رحالهم ويسارعوا في العودة إلىٰ المدينة.. حتىٰ لا يمسهم أحد من المشركين بسوء. وما إن كانت قريش قد تثبتت من الخبر، حتىٰ كان أهل البيعة قد فروا سالمين إلا رجلين وقعا في أسر قريش ، وكان لهذا التصرف الحكيم من الرسول ﷺ وسرعة رد الفعل لديه، والقدرة علىٰ اتخاذ القرار في التوقيت المناسب أثره في نجاة الوفد من مذبحة كان يمكن أن تحدث في مكة، كما أن النبي اختار وقت البيعة في الأيام الأخيرة من موسم الحج حتىٰ إذا فرغوا من البيعة رجعوا إلىٰ بلادهم دون أي تعرض لأذىٰ.
- اتخاذ القرار المناسب في وقته، وصل المشركين إلىٰ غار ثور وتأكيد خبير الأثر المرافق لهم أن محمداً لم يتجاوز هذا المكان إلا أن يكون نزل إلىٰ الأرض أو صعد إلىٰ السماء، وتركز البحث في هذه المنطقة حتىٰ أن أبا بكر رضى الله عنه أصابه الفزع خوفا علىٰ الرسول ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ وقال: قولته المشهورة (يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا). فلو أن الرسول ﷺ أصابه الفزع أو يئس لسلّم نفسه للمطارِدِين ـ كما يفعل القادة في ميادين القتال حرصا علىٰ حياتهم ـ إذن لفشلت الخطة، لكنه ﷺ هَدّأ من ثائرة أبي بكر وقال له: "ما ظنك باثنين الله ثالثهما، يا ابا بكر لا تحزن إن الله معنا.." وكان الموقف يتطلب الشجاعة والثقة في معية الله فكان ﷺ في هذا الموقف الصعب نموذجا للشجاعة ونموذجا للثقة، ونموذجا للصمود.

- روىٰ الإمام أحمد والشيخان عن أبي بكر الصديق رضى الله عنه قال: قلت للنبي (ﷺ) ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلىٰ قدمه لأبصرنا فقال: "ما ظنك باثنين الله ثالثهما".

- في تطور غير متوقع أدرك سراقة رَكْب النبي (ﷺ) بعد أن كان قد سمع من بعض المسافرين أمارات واضحة، تدل علىٰ الطريق الذي يسير فيه محمد، فأخذ يُضلل الآخرين ويعمي عليهم حتىٰ يفوز بالجائزة التي وضعتها قريش (مائة من الإبل) ويفخر أمام أهل مكة بأنه الرجل الذي أعاد محمداً من هجرته .. ولم يكن الرسول (ﷺ) يملك ما يعطيه لسراقة عوضا عن الجائزة الكبرىٰ، ولم يكن يملك القوة التي يمنعه بها، وكان الموقف عصيبا، لكن الرسول ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ كان ثابتا كالجبال الرواسي.. واثقا من نصر ربه له.. وما إن وقع نظره علىٰ سراقة حتىٰ رفع رأسه للسماء وقال: "اللهم اكفناه بما شئت" فساخت قدما فرسه في الرمل أو في الأحجار فلم يملك إلا أن يطلب النجدة منه (ﷺ)، وعاد من حيث أتىٰ واثقا من أن هذا الرجل ممنوع وأن الحق معه.. فأخذ يضلل عنه كل من يريد به شرا.. وهكذا تحولت القوة المضادة إلىٰ قوة مقاومة في نجاح الخطة بفضل الله وتوفيقه.

- كان الناس بمكة قد يئسوا أن يصلوا للرسول أو يمنعوا هجرته، إذ لم يستطع أحد أن يعلم أين اتجه مع صاحبه؟ إلىٰ أن سمعوا صوتا عاليا لا يدرون من صاحبه ينشد شعرا:

- جزىٰ الله رب الناس خير جزا ئه رفيقين حَلّا خيمة أم معبد
- هما نزلا بالهدىٰ فاهتدت به قد فاز من أمسىٰ رفيق محمد
- وتجدد الأمل في نفوس المشركين مرة أخرىٰ، وانطلقوا حتىٰ دون أن يعرفوا مصدر الصوت إلىٰ خيمة أم معبد، وحاصروها بالأسئلة، ولكنها رفضت أن تدلهم علىٰ طريقه ﷺ فعادوا يجرون أذيال الخيبة والعار.
- في المدينة... وحين دخل المهاجرون المدينة كانت موبوءة بحمىٰ الملاريا، فمرض بعض الصحابة ، ولم يجد البعض الآخر المناخ الذي يحبه، فاستيقظت غرائز الحنين إلىٰ مكة.
- ماذا يفعل الرسول وها هي خطته بعد أن اقتربت سفينته من شاطئ الوصول تتعرض لريح عاصف تكاد تُضيع كل شئ؟
- أخذ النبي يطالب أصحابه بالترغيب في المزيد من الجهد والتضحية لنصرة الإسلام وإنما هي أيام قليلة في الدنيا ثم حياة أبدية في الآخرة وجنة عرضها السماوات والأرض، فقال ﷺ "لا يصبر علىٰ أجواء المدينة وشدتها أحد من أمتي إلا كنت له شفيعا وشهيداً يوم القيامة، ولا يدعها رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه[1]". أخذ يدعو الله أن يزرع في قلوب الصحابة حب المدينة كما زرع في قلوبهم حب مكة.

[1] أجرجه مسلم (٤/ ١١٣).

"اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا لمكة أو أشد، اللهم وصححها وبارك لنا في مدها وصاعها وانقل حماها واجعلها بالجحفة[1]".

- بهذا نجح الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في رفع الروح المعنوية بين المسلمين ، فاتجهت قواهم إلى تأسيس المجتمع الجديد بدلاً من البكاء على الذكريات.
- ما أن استقر ﴿ﷺ﴾ في المدينة حتى بدت بوادر أزمة أخرى كادت تعصف بالأخضر واليابس وتجعل كل الجهود هباء..
- إذ وجهت قريش رسالة إلى عبدالله بن أبي بن سلول بصفته زعيم المدينة يهددونه ويتوعدونه: (إنكم آويتم صاحبنا ، وإنا نقسم بالله لتقاتلُنّه أو لتُخرِجُنّه أو لنسيرنّ إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتليكم ونستبيح نساءكم).
- ثم وجهت رسالة أخرى إلى المهاجرين تقول: (لا يغرنكم أنكم أفلتّم منا إلى يثرب سنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضرائكم في عقر داركم[2])
- فلما بلغ ذلك عبدالله بن أبي بن سلول اجتمع ومن معه من عبدة الأوثان على قتاله ﴿ﷺ﴾ والمهاجرين، تهيأت الفرصة أمام عبدالله بن أبي سلول ليُهج الناس ضد الرسول وأصحابه فها هم يجرون على المدينة الخطر العظيم، ولا حل لعودة الوُدّ مع قريش إلا بإعادتهم إليها، وإخراجهم من

---

[1] أخرجه البخاري (٧/ ٢١٠).

[2] رواه أبو داود في سننه .

المدينة.. بلغ ذلك رسول الله ﴿ﷺ﴾ فكيف يواجه الموقف؟ وهذا هو دأب أعداء الدعاة في كل زمان ومكان يسلطون إعلامهم وأعوانهم لشيطنة الدعاة ثم ينقضّون عليهم فلا يجدوا لهم نصيراً ممن استمالهم الإعلام وأعوانه وهذا ما نراه الآن في زماننا (أتواصوا به بل هم قوم طاغون)الذارات ٥٣.

- فالمدينة على أبواب حرب ضروس تعيد أيام (بعاث) وأن القوم الذينهم مع عبد الله بن سلول لا يمكن استمالتهم بعاطفة الدين فهم ليسوا بمسلمين، والمسلمون من الأنصار عرضة لأن يتزعزع إيمانهم تحت دواعي القبلية والعصبية لمدينتهم فينضموا لابن أُبَيّ، والمهاجرون قلة لا يستطيعون مواجهة أخطار خارجية وداخلية.. وبحنكة الأريب ضرب ﴿ﷺ﴾ على نفس الوتر الذي بدأت به قريش.. وتر الاستفزاز .. وإثارة كوامن البطولة والشجاعة ، بعد إثارة عواطف الأخوة والعصبية فخاطب ﴿ﷺ﴾ هؤلاء الذين تجهزوا للحرب قائلاً: (لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون به أنفسكم تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم[1]).
- ما أن سمع القوم هذه الكلمات حتى تفرقوا .. وتوقف المخطط لإنهاء محمد واصحابه على يد أهل المدينة دون أن تفقد قريش شيئا.

[1] انظر منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية صـ ١٩٦ وانظر أبو داود : خبر بني النضير.

- هنا تظهر القدرة على مواجهة الظروف الصعبة والفهم الصحيح الملهم لطبيعة النفس الإنسانية، لا يرضى العربي أن يُتهم بالجُبن أو الخوف كيف يرضى أن يقبل شروط قريش ويسلم لهم أهله وإخوانه؟
- ثم التركيز على أخوة النسب.. الاسلوب العشائرى (تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم).
- لم يتحملوا أن يكشف النبي ﴿ﷺ﴾ عن نفسياتهم فيظهروا أمامه بمظهر الجُبناء، ويظهروا بمظهر من لا يرعى حرمة الأهل فتفرقوا.. وتفتت الجمع دون قتال ودون دماء.
- تلك كانت حكمة الرسول في مواجهة الظروف المتغيرة، والتصدي لكل المواقف الخطرة بثقة المؤمن وفطنة الأريب، .. وما ذلك بغريب عليه ﴿ﷺ﴾ "إن هو إلا وحي يوحى".

العامل الخامس: إخلاص القائمين على التنفيذ:

لا يُنكر أحد أن كل العوامل السابقة لعبت دورا مهما في نجاح خطة الهجرة .. لكن عامل الإخلاص من كل هؤلاء الذين ساهموا في خطة الهجرة كان له الدور الأعظم.

فعن أبي بكر الصديق حدث ولا حرج.. رجل يسخو في سبيل الله بكل نفيس عنده وكل محبب لديه.. يخرج للهجرة فيحمل ماله كله.. فيسأله ﴿ﷺ﴾ يا أبا بكر ماذا تركت لأبنائك؟

يقول تركت لهم الله ورسوله؟؛

وحيمنا يسير مع الرسول في الطريق يمشئ مرة أمامه ومرة خلفه، ثم عن يمينه وأخرئ عن يساره، فيسأله (ﷺ) عن سر ذلك فيقول: يا رسول الله أذكر الرَّصَد فأكون أمامك،وأذكر الطلب فأكون خلفك مرة وعين يمينك مرة وعن يسارك مرة، لا آمن عليك.

ويقترب الموكب من الغار ويَهِمّ (ﷺ) بالتقدم لدخول الغار فيسبقه أبو بكر ويقول: لا يا رسول الله حتئ أدخل قبلك، فإن كان فيه شئ أصابني دونك[1]. فأي إخلاص ؟! وأي حب هذا ؟!

ولم يكن هذا عند أبي بكر فحسب، بل كأنما انتقلت عدوئ الحب إلئ كل أسرة أبي بكر، فها هي ابنة أبي بكر أسماء تضرب مثلاً أعلئ في التضحية والفداء.

أسماء (كانت حاملاً وقتها بعبد الله بن الزبير ووضعته عندما وصلت المدينة) تسير وحيدة في جوف الليل وفي الصحراء المترامية تحمل الزاد وتقطع أكثر من ثلاثة أميال حتئ تصل إلئ غار ثور فتوافي رسول الله (ﷺ) وصاحبه بما يساعدهما علئ الاستمرار في الرحلة المباركة.

عَلِمتِّ ـ رضي الله عنها ـ أن الركب سيغادر الغار إلئ المدينة فقامت بتجهيز الزاد الكثير للسفر الطويل ولما لم تجد ما تربطه به شقت نطاقها نصفين، علقت الزاد بأحدهما، وانتطقت بالنصف الآخر. ويعلق (ﷺ) علئ ما فعلت فيدعو لها " أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين في الجنة." ولهذا سُمّيت بذات النطاقين.

---

[1] انظر ابن كثير: البداية والنهاية (٣/ ١٨٠).

عادت بعد أن ودّعت الركب تطير فرحا ببشرىٰ رسول الله ﴿ﷺ﴾ وإذا بطرقات عنيفة علىٰ باب الدار وإذا نفر من قريش فيهم أبو جهل ـ لعنه الله ـ يسألونها!!!

أين أبوك يا بنت أبي بكر؟

وهي ترد: لا أدري والله أين أبي.

وهي صادقة لا شك، فمنذ أن ودّعتها لا تعرف أي طريقٍ سلكا.. وإذا بأبي جهل يرفع يده بقوة ويلطمها علىٰ وجهها لطمة وحشية أطارت قرطها، لكن ما فَتّ هذا وما أوهَن من عزيمتها ولا من إصرارها علىٰ إتمام رسالتها في خدمة النور الذي ملأ قلبها، إنها بنت أبي بكر.

عليّ بن أبي طالب: تُرىٰ ما الذي يجعل شابا في مقتبل العمر يقدم نفسه للموت ويدخل بقدميه في حياضه؟ إنه علىٰ بن أبي طالب يطلب النبي ﴿ﷺ﴾ منه أن ينام في فراشه ليلة الهجرة لتضليل المشركين، فيبادر عَلِيٌّ ـ رضي الله عنه ـ سريعاً لهذه المهمة، يرىٰ المشركين يحيطون بالدار من كل جانب يراقبون النبي ويتَحسّسون حركاته وتقلبه في فراشه في انتظار يقظته حتىٰ تتناوشه سيوفهم، لا يمنعه ذلك من أن يتسجىٰ ببرد الرسول وينام في فراشه.

أي إيمان هذا، وأي عقيدة وأي إخلاص؟ !

إنه يرىٰ بعينيه الموت، ويدرك أن القوم سيقتلونه لا محالة، ظنا منهم أنه محمد وإذا تأكد لهم أنه ليس هو محمد فربما يقتلونه انتقاماً في لحظة عصبية، لأنه أزاحهم عن بغيتهم، وهو قتلهم رسول الله.

وكان المشركون ينظرون من خصائص الباب فيرون عليا نائما ويظنون أنه النبي (ﷺ) فلما أصبح الصباح قام عليّ من الفراش فعرفوه فسألوه عن رسول الله فقال: لا أدري ، أمرتموه بالخروج فخرج، فضربوه وأخرجوه إلى المسجد فحبسوه ساعة ثم تركوه.. بهذا كان عَليّ أول مَن باع نفسَه لله ووقَي بها الرسول (ﷺ) [1]

ويقول بعض المفسرين إن قول الله تعالى [**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**] {التوبة:١١١}

قد نزل في على بن أبي طالب إذ يقول:

فديت بنفسي خيرمن وطئ الثرى ومن طاف بالبيت العتيق وبالحِجْر

وبات رسول الله في الغار آمنا موقى وفي حفظ الإله وفي ستر

وبتُّ أراعيهم وما يتهمونني وقد وطَّنتُ نفسي على القتل والأسر [2]

وهذا مصعب بن عمير المعلم الأمين الذي أرسله (ﷺ) إلى أهل يثرب يعلمهم أمور دينهم.. يسيطر عليه الإخلاص لله ولدعوته حتى يضحى بمال أسرته وجاهها، وينجح في نقل الناس من موروثات الجاهلية إلى نظام الإسلام، لا بالأساليب الملتوية ولا بالخداع ولا بالوعود الكاذبة كما يفعل المنصِّرين الآن وإنما بالإيمان والعمل والسلوك القويم.

يقول الشيخ محمد الغزالي: "ولا تحسبن مصعبا كأولئك المرتزقة من المبشرين الذين دسهم الاستعمار الغربي بين يدي زحفه على الشرق فنرى الواحد منهم يقبع

---

[1] المقريزي : إمتاع الأسماع صـ٥٧.

[2] سبل الهدى والرشاد ٣ / ٣٢٨.

تحت سريرِ مريض ليقول له: (هذه القارورة تقدمها لك العذراء، وهذا الرغيف يهديه إليك المسيح) وربما فتح مدرسة ظاهرها الثقافة المجردة، أو ملجأ ظاهره البر الخالص، ثم لوى زمام الناشئة من حيث لا يدرون، ومال بهم حيث يريد.

أما مصعب، فكان من ورائه نبي مضطهد، ورسالة معتبرٌ أنها ضد القانون السائد، وما كان يملك من وسائل الإغراء ما يطمع طلاب الدنيا ونَهّازِي الفُرص، كل ما لديه من الكياسة والفطنة قبسها من محمد ﴿ﷺ﴾ وإخلاص لله يضحي بمال أسرته وجاهها في سبيل عقيدته، ثم هذا القرآن الذي يتأنق في كلامه ويتخير من روائعه ما يغزو به الألباب، فإذا الأفئدة تَرِقُّ له وتتفتح للدين الجديد[1]).

سلطان

[1] محمد الغزالي: فقه السيرة، ص ١٥٧.

التهيئة والإعداد النفسي للمهاجرين إلى المدينة

نجح (ﷺ) في أن يهيئ نفوس المسلمين للهجرة، ويحببها إليهم برغم ما فيها من فراق الأهل والأوطان..

هيأهم لها حين زرع في نفوسهم أن الهجرة عبادة من أعظم العبادات التي يتقرب بها العبد إلى الله، وأنها من أفضل الأعمال في الدنيا.. فانطلقوا في هجرتهم موقنين أنهم في جهاد، فأغلق على الشيطان سبيله إلى قلوبهم، وجعلهم مُحَصَّنين ضد وساوسه، يحرسهم الإيمان من الملل أو التَّبَرُّم أو الضيق أو الحنين للأهل والأوطان.

وهيأهم باليقين أنهم ضيوف على الله وفي كفالته، ومن كفالة الله لهم أن ضمن لهم الأرض الطيبة التي تمدهم بالقوة والعون، كما ضمن لهم سعة الرزق الذي ضاق عليهم في مكة من حصار المشركين، وضمن لهم أن مات في هجرته فهو شهيد قد وقع أجره على الله .. وكل هذا تشير إليه الآية الكريمة [**وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا**] {النساء:١٠٠}

وهيأهم بأن أكد لهم أن المهاجرين هم أول الناس إيماناً وأنهم في عداد المجاهدين في سبيل الله، وقد كفل الله للمجاهدين وضوح الطريق وقوة البصيرة والهداية، مصداقاً لقوله تعالى [**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ**]

{العنكبوت:٦٩} وهيأهم حين أكد لهم أن الدعوة في مكة لن تنتهي بالهجرة هي مرحلة ضرورية تزيد من قوة الإسلام ، حقا إنه سطع نوره وارتفعت رايته.

فماذا كانت النتيجة بعد هذه التهيئة؟

المهاجرون تركوا الديار والأموال والأهل والوطن ، وخرجوا من مكة وقد تركوا كل شئ .. وما أَسِفُوا على شئ، وانطلقوا في طريق الهجرة يؤثرون الغربة مع العزة والكرامة على الإقامة في الوطن مع الضَّيم والإذلال .. وقد نزلت آيات القرآن الكريم تعلى من شأنهم وتنوه بما لهم من مكانة سامية عند الله قال تعالى: **[وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ]** {التوبة:١٠٠}

حتى أنّ كل واحد من أصحاب الرسول كان يتسابق لينالوا شرف الهجرة وليُسَجَّل عند الله في سجل المهاجرين، في الوقت نفسه كان القرآن الكريم الذي يردده مصعب ليل نهار قد هيأ أهل يثرب للقاء إخوانهم المهاجرين، وما من يوم يمر إلا ويزداد الشوق في قلوبهم لهذا اللقاء.

لقد تأكد أن أصحاب الحظ الأوفى هم أول من يفوزون باستقبال هذا الرسول وهذه الرسالة، فكانوا ليل نهار على شغل شاغل يرقبون الطريق ويتنسمون الأخبار، ويخرجون بأطفالهم ونسائهم ليروا النور القادم إليهم، وكل منهم مستعد لتقديم أغلى ما يملك في سبيل الله...

كلّ هذا لأن التهيئة المعنوية التي تلقوها قد نزعت منهم حب النفس وأبدلتهم حب الله ورسوله والمهاجرين، ولذلك مدحهم القرآن الكريم: [**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**] {الحشر:٩}

العناية الإلهية والإمدادات الربانية مع الأخذ بالأسباب:

شملت العناية الإلهية رسول الله (ﷺ) في كل مرحلة من مراحل الهجرة.

(أ) المرحلة الأولى التمهيدية:

قيض الله لرسوله وفد الأنصار الذي استمع لدعوته فانشرحت صدورهم للإسلام، وانطلقوا إلى المدينة يبشرون بالدين الجديد، وبعد بيعة العقبة الأولى شاءت العناية الإلهيَّة، أن ينجُوَ وفد المدينة بعد أن علمت قريش بأمرهم وطاردتهم رغبةً منهم في وقف المد الإسلامي في المدينة.

من العناية الإلهية لدعوته: أن جعل الله اليهود ـ رغم أنوفهم ـ جنداً من جنود الله يساهمون في نجاح خطة الهجرة، وذلك لأنهم كانوا يستفتحون على أهل المدينة بأنه سيظهر في هذا الزمان نبيّ وأن اليهود سيتبعونه ويؤمنون به ويقاتلونهم معه، لكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يوفقهم لهذا لأنهم أهل عناد وكفر وضلال، وكانوا دائماً ما يذكرون ذلك لأهل المدينة من الأنصار، مما جعل الأنصار يبادرون بالفوز بهذا النبي الذي توعدتهم به يهود، حتى قال الأنصار الأوائل لما رأو رسول الله

وسمعوا منه، هذا والله لهو النبي الذي توعدتكم به يهود، فلا يسبقونكم إليه، فكان اليهود بهذا جند من جنود الله.

وَفَّقت العناية الإلهية الرسول ﴿ﷺ﴾ في اختيار مصعب بن عمير ليكون مع وفد المدينة، وليكون أول سفير للإسلام في المدينة، فينجح بلباقته وحسن سياسته وقدراته العلمية والإيمانية في تهيئة المناخ الملائم للهجرة.

(ب) المرحلة الثانية: وهي مرحلة الإذن بالهجرة:

كانت العناية الإلهية ترصد أهل الكفر وهم يمكرون مكرهم في دار الندوة، ليتخلصوا من رسول الله ﴿ﷺ﴾ فأوحى الله إلى نبيه بما يدبرون، وما كانت لتجدي كل أنواع الخطط وكل مبادئ التخطيط العلمي لو أن الرسول لم يعرف بأمر المشركين وخطتهم.

(ج) المرحلة الثالثة الإنطلاق:

تكشَّفَت عناية الله بالمهاجرين، إلى حد جعل المسلمين والكافرين يرون مظاهر هذه العناية رأي العين، ويقفون أمامها مشدوهين بين مصدق أومكذب أومستغرب.

وإذا كانت أحداث الهجرة قد كشفت لنا عن عظمة شخصية الرسول وقدرته على اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب، كما كشفت عن الصمود والإصرار من الصحابة على نجاح الخطة، فإن تلك العناية الإلهية التي أحاطت بحادثة الهجرة كان لها الفضل الأول والأخير في نجاحها.

ورغم إيماننا بعظمة الإعداد والتخطيط والتدبير البشرى للهجرة.. إلا أننا يجب أن نؤكد أن التوفيق من الله أولاً وأخيراً .. وإلا فأي قدرة تلك التي جعلت عيون

كل الفتيان الواقفين على باب رسول الله، وعددهم كثير، يغزوها النوم في وقت واحد، وكيف لم يتحركوا حينما جاءهم آتٍ لم يكن معهم فقال: ما تنتظرون ها هنا؟ "خيبكم الله ، قد والله خرج عليكم محمد، ما ترك منكم رجلاً إلا وضع على رأسه التراب وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم ؟ فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذ عليها تراب، ثم جعلوا يستطلعون عليا على الفراش متسجيا ببرد رسول الله (ﷺ) فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائم عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا[1] .

إنها بالتأكيد العناية الإلهية والتوفيق الرباني الذي تصبح الأعمال بدونه هباء، ولكن من المُسَلَّم به أن هذه العناية وتلك الإلهامات لا تواكب إلا العاملين الذين يبذلون قصارى الجهد ويأخذون بالأسباب ثم يسلمون الأمور لله رب العالمين.

يقول الشيخ الشعراوي في تفسير قوله تعالى: [**إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**] {التوبة:٤٠}

"الإخراج نفسه فيه نصر، لأن رسول الله (ﷺ) خرج وحده من بيته الذي أحاط به شباب أقوياء، من كل البطون القرشية ليضربوه ضربة رجل واحد.. وينتشر

[1] المنهج الحركي للسيرة النبوية ، ص ١٨٨.

عليهم التراب فتغشى أبصارهم، وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يثبت لهم أنهم لن ينالوا من محمد .. لا بتآمر خفي، ولا بتساند علني، وهذا نصر من الله"[1]

وتستمر العناية الإلهية مع الرسول وصاحبه في الأيام الثلاثة التي قضيت في الغار، واستعان المشركون بأحد قَصّاصي الأثر واسمه (مكرز بن علقمة) من خزاعة فتتبع الأثر حتى جاء عند الغار.

قال: "هذه قدم محمد ، وهذه قدم أبي بكر، وما تجاوزا هذا المكان إلا أن يكونا قد صعدا إلى السماء أو دخلا في جوف الأرض".

وسار أحدهم حتى وقف على باب الغار.. فحزن أبو بكر وقال: يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، فقال له الرسول مطَمْئِناً إياه: "....يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما... يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا"، كانت هذه واحدة من العناصر الربانية التي واكبت رحلة الهجرة. كما يصورها القرآن الكريم في إيجاز وروعة فيقول [**إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**] {التوبة:٤٠}

وفي الحقيقة فإن الغار قد حفل بفيوضات ربانية يوجزها فضيلة الشيخ الشعراوي فيقول "إنهم لم يدخلوا الغار ولم يفكر أحدهم أن يقلب الحجر أو يفتش عن محمد

---

[1] تفسير الشعراوي : المجلد الثامن: ص ٥١٢٥.

وصاحبه، مع أن هذا أول ما يتبادر إلى الذهن، فما دامت آثار الأقدام قد انتهت عند مدخل الغار كان يجب أن يفتشوا داخله، لكن أحداً لم يلتفت إلى ذلك".

نظروا تحت أقدامهم فلن يرونا، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يحفظنا فنحن لا نحفظ أنفسنا.

ويقول الشعراوي ـ رحمه الله ـ: ونرى في تفسير قول الله تعالى: [**إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ**] أن نصر الله له ثلاثة أزمنة، فـ (إذ) تكررت ثلاث مرات، فالله سبحانه وتعالى يقول: [**إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**] أي : أننا أمام ثلاثة أزمنة: زمن الإخراج وزمن الغار، والزمن الذي قال: فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبي بكر: [**لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**] وقد جاء النصر في هذه الأزمنة الثلاثة ساعة الإخراج من مكة وساعة دخل سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أبي بكر إلى الغار، وساعة حدثه مع أبي بكر.

ويضيف الشيخ الشعراوى: يقول الحق سبحانه وتعالى [**وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا**] وقد رأى الكفار عُش الحمام وبيت العنكبوت، وإن هذا لم يمنعهم من أن يروا الرسول، لماذا؟ لأنه سبحانه وتعالى يقول [**بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا**] والعنكبوت والحمام مرئيان.

ومن الجنود غير المرئية هو أنه لم يخطر على بال القوم ولا فكرهم أن ينظروا في الغار، مع أن آثار الأقدام انتهت إليه لكن الله طمس على قلوبهم وصرفهم عن هذه الفكرة بالذات، ولم تخطر على بالهم.

وجندٌ آخر من جنود الله وهو سراقة بن مالك وذلك حين استطاع وهو من الكفار أن يلحق برسول الله ﴿ﷺ﴾ وأبي بكر رضى الله عنه وهما في طريقهما إلى المدينة، وكلما حاول الاقتراب منهما ابتلعت الأرض قوائم فرسه في الرمال[1] .

وعلى آية حال مادام الحق سبحانه وتعالى قال: [**بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا**] وقال: في آية أخرى [**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ**] {المدَّثر:٣١} إذن فالجنود الذين سخرهم الله لرسوله ﴿ﷺ﴾ ليحفظوه خلال الهجرة لا يعلمهم إلا الله، وكل شئ في هذا الكون من جنود الله، فهو سبحانه وتعالى الذي سخر الكافر لخدمة الإيمان وفي الوقت نفسه فكل ما رصدته قريش وكل ما يدلهم على مكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يُغرِ الدليل الكافر ـ بن أريقط ـ بالخيانة، بل أدخل الله على قلب الكافر ما يجعله أميناً على رسول الله[2] .

ويؤكد الشيخ الشعراوى أن الأمر لم يقتصر على هذا فقط، وإنما هناك فيوضات أخرى كثيرة في حادث الغار تدخل تحت قوله تعالى [**وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا**] ومنها ما حدث لسراقة بن مالك وكان كافراً، وتسخير كافر آخر هو عبدالله بن أريقط لخدمة الإسلام، فصار أمينا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم تُغرِه المكافأة الكبرى التي رصدها الكفار لمن يرشد عن محمد وصرف الكفار عن النظر داخل الغار ونزول السكينة على قلب أبي بكر رضى الله عنه وغيرها.

---

[1] مسند الإمام أحمد (٤ / ١٧٦).

[2] راجع تفسير الشعراوى : الجزء الثامن، ص ١٢٥ ما بعدها.

يقول الشيخ محمد الغزالي: "من صُنع الله لنبيه أن تعمى عنه عيون أعدائه، وهو منهم على مد الطرف، ولم يكن ذلك محاباة من القدر لقوم فرطوا في استكمال أسباب النجاة، بل هو مكافأة من الله لقوم لم يَدَعُوا وسيلةً من وسائل الحذر إلا وعملوها وقاموا بها على أكمل وجه، وكم من خطة يضعها أصحابها فيبلغون بها نهاية الإتقان، تمر فترات عصيبة لأمور فوق الإرادة، أو وراء الحسبان، ثم تستقر أخيراً وفق مقتضيات الحكمة العليا، وفي حدود قوله تعالى : [**وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**] {يوسف:٢١}[١] .

وتستمر الإلهامات الربانية والعناية الإلهية مع الرسول (ﷺ) بعد خروجه من الغار فانظر: سراقة بن مالك يقف مذهولاً أمام قول النبي : كيف بك يا سراقة إذا تسورت بسواري كسرى؟)

رجل مطارد .. هارب من قومه.. ليس حوله إلا ثلاثة رجال.. والقوم من خلفه يدبرون لقتله أو القضاء على دعوته، فيتحدث بهذه الثقة عن المستقبل؟ وليس هذا وفقط بل يَعِدُه بسواري كسرى أكبر أباطرة الدنيا آنذاك.

كفار قريش يسألون أم مبعد عن رسول الله .. وكان عندها منذ دقائق، وكان من الممكن أن يدركها الخوف فَتَدُلّهم على الطريق الذي ذهب فيه، وكان من الممكن أن ترشدهم لرغبة في الحصول على بعض المال، وهي في هذا الفقر المدقع، لكن الله سبحانه وتعالى يضع على لسانها الإجابة التي أجابتها:

تسألوني عن أمر ما سمعت به من قبل عامي هذا!!

---

[١] فقة السيرة للشيخ محمد الغزالي: ١٧٦.

ويُلحّون .. ويثقلون في السؤال.. وتجد ما تخلص به منهم : "لئن لم تنصرفوا عني لأصرخن في قومي عليكم".

من الذي أودع هذه المرأة كل هذه المَلَكة من رباطة الجأش والشجاعة؟ ومن الذي أودع في قلبها حب هذا الذي جلس في خيمتها دقائق معدودة؟ ومن الذي جعلها تنسىٰ تحقيق مغنم سريع متاح في سبيل الحافظ علىٰ رجل لا يَمُتُّ! لها بأية صلة.. إنها العناية الإلهية؛؛؛.

وهذه لمحات بسيطة من عوامل النجاح في الهجرة المباركة، أرجو من الله وحده أن تكون نبراساً لنا في كل حياتنا، كما أرجوه وحده أن تكون هذه الكلمات ليَ عند الله مغفرة لذنوبي، ورفعة لدرجاتي في الجنة، ونجاة ليَ من النار إنه وليُّ ذلك والقادر عليه، اللهم .... آمين ....آمين ....آمين.

ثانياً: مظاهر النجاح في الهجرة النبوية المباركة.

نجحت خطة الهجرة نجاحا يعتبر بمقاييس الزمن إعجازاً.. وحققت أهدافاً جعلتها تستحق أن تكون بداية للتاريخ الإسلامي.. فما مظاهر هذا النجاح؟

من مظاهر النجاح في الهجرة أنه:

١. بعد الهجرة خسرت قريش موازين القوة والتمكين التي توارثتها علىٰ مدىٰ قرون وزال عنها سلطانها.. ودب الخلاف بين أبنائها، وتسلل كثير منهم إلىٰ المدينة فأسلموا.

٢. لم تعد قريش حاجزاً في وجه الدعوة الإسلامية ، إذ أسقطت الهجرة رهبتها من نفوس المستضعفين والخائفين، كما أسقطت هيبتها من قلوب العرب، فلم تعد القبائل العربية مثلما كانت عليه من قبل من الخوف من قريش، فبدأت الغشاوة تنقشع عن عيونهم، والرّان يخرج من قلوبهم، فنظروا إلى محمد ﷺ ودعوته نظرة محايدة خالصة من تأثير قريش وضلالاتها، فدخلوا في دين الله أفواجاً، وهكذا جاءت قبائل العرب من تبوك والطائف ومن كل وجهة يبايعون رسول ، فأنزل الله تعالى [**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ* وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**] {النَّصر ١ :٣}

٣. وهكذا دائماً لا ينتفش الباطل وينتفخ إلا في غيبة أهل الحق وإذا قام الحق وأهله يزول الباطل... وبالهجرة ارتفعت مكانة المدينة ، وأصبحت محط الأنظار، وتحت لوائها توحدت الجزيرة العربية، وأصبحت هي العاصمة والمركز والقلب.. وبين ربوعها قامت أول دولة على أساس غير أساس القبلية ، ومنها كانت العرب قوة متحركة فعالة لأداء رسالتهم الإسلامية في كل بقاع الأرض، وأصبح للحق قوة تحميه وتدافع عنه في وجه المعتدين، الذين لا يعرفون إلا القوة، وكلما بدأت الدولة الحق في القيام والبناء بدأت دولة الباطل في الانهيار والإنحسار، وهذا ما حدث بعد الهجرة بدأ زوال سيادة أهل مكة على بزوغ فجر المدينة.

٤. بالهجرة تغيرت حياة العرب من قوم تقوم بينهم الحروب ويسفكون الدماء لأتفه الأسباب ، إلى أصحاب قيم ومبادئ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وقويت روابط الأخوة والمحبة بينهم، وزالت بواعث الحقد والكراهية والثأر بالانتقام، حتى إن الأنصار والمهاجرين اقتسموا دورهم وأموالهم واشتركوا في مشاعر واحدة متعاونين متراحمين، وقد حررهم الإسلام من التقاليد والجهالة والرذيلة وجمعهم على الأخلاق الحسنة، فعمت الفضيلة وانتشرت العلوم والمعارف واختفى الجهل والجاهلية.. يقول الفيسلوف الإنجليزي (توماس كارليل) عن العرب: (كانوا قوما يضربون في الصحراء لا يُعتَنَى بهم عدة قرون، فلما جاءهم النبي ﴿ﷺ﴾ صاروا قبلة الأنظار في العلوم ولم يمض قرن بعد الإسلام حتى استضاءت أطراف الأرض بعقولهم وعلومهم).

٥. ظهرت بالهجرة أمةٌ إسلاميةٌ جمعها الإسلام ولم تجمعها عصبيات قبلية، فتميزت في تكوينها، وكانت حضارتها سامقة بين حضارات التاريخ، أمة تربط بين أفرادها مشاعر الحب والإخاء القائم على ابتغاء مرضاة وجه الله ووفق إرادته [**وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**] {الأنفال:٦٣}

٦. كان الواحد منهم يعيش على المبادئ والأخلاق ويعتصم بأحكام الإسلام، فاستقرت فيهم الفضائل وانتشرت فيهم الأخلاق الحميدة،

فأصبحت المدينة قاعدة لأمة فاضلة انطلقت لترعى مبادئها في العالم كله مغيرة بذلك وجه التاريخ.. ويقول المستشرق الانجليزي (توماس أرنولد) في كتابه دعوة الإسلام[1] "لقد تمكن محمد بعد أن هاجر إلى المدينة أن يجعل نفسه على رأس جماعة من أتباعه ليست كبيرة العدد، أخذوا في النمو والتقدم وظلوا يتطلعون إليه، ويعترفون به زعيما وقائداً يحبونه أكثر من أنفسهم، وهكذا باشر محمد ﴿ﷺ﴾ سلطة زمنية كالتي يمكن أن يباشرها زعيم آخر مع فارق واحد وهو أن الرابط الديني بين المسلمين كان يقوم مقام رابطة الدم والأسرة، فأصبح الإسلام نظاماً سياسياً له صبغة متميزة تماماً وكانت جهوده موفقة إلى اعتناق بنى وطنه وحدانية الله، وإلى هدم نظام الحكم القديم في مكة مسقط رأسه، فقضى على الحكومة والأرستقراطية القبلية التي كانت الأسر الحاكمة تتوزع سياسة الشئون العامة تحت لوائها، وشعارها : "أخي أولى بهذا منى".

عالمية دعوة الإسلام: وبهذا فإن الهجرة أعطت للإسلام الحركة داخل الجزيرة العربية وخارجها، فقد بادر الرسول فور استقراره بالمدينة إلى ممارسة العمل داخلها وخارجها، ومن ثم إلى ممارسة الاتصالات المباشرة مع القبائل العربية المجاورة والبعيدة، عن طريق الرسائل ... كما بادر بإرسال السفراء إلى الملوك والرؤساء في الدول المجاورة ، ولقد أتت هذه الاتصالات بنتائج إيجابية كان لها صداها طوال مراحل التاريخ

[1] الطراز الحسينى: نبذة عن السيرة النبوية نقلا عن الهجرة النبوية الهامات ربانية.

الإسلامي، ولا يكون ذلك إلا في ظل خلافة إسلامية يُحَكِّم أبناءها شرع الله فيهم، وبهذا تكون صاحبة الوراثة الممنوحة من الله لهم [**إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**] {الأعراف:١٢٨}[١]

٧. كانت الهجرة مقدمة لإنهاء العصور الوثنية وقيام عصر جديد شعاره الإيمان وكرامة الإنسان وتحرير الناس من عبودية الأوثان والبشر إلى عبودية الواحد الديان.

إن الهجرة كانت إعلانا ببداية الدولة الإسلامية وفقاً للأسس والنظم المتعارف عليها في العرف الدولي السائد الآن وهي: الشعب والأرض والسلطة بما يتوافق مع شرع الله.

٨. وبحق فإن الهجرة كانت هي السبب في انتصارات المسلمين الكبرى فيما بعد، وفي الفتوحات الإسلامية في دمشق وبغداد ومصر والقيروان وفارس وقرطبة...، أو إن شئت فقل من الهند شرقاً إلى المحيط الأطلنطي غربا، حتى وصلت لكل العالم .. يقول الإمام محمد عبده "أظلت ولاية الإسلام .. ما بين نقطة الغرب الأقصى إلى حدود الصين، في عرض ما بين (فازان) من جهة الشمال وبين (سرنديب) تحت خط الأستواء أقطاراً متصلة، وديارا متجاورة، يسكنها المسلمون وكان لهم فيها السلطان الذي لا يُغلب، أخذ بصولجان الملك منها ملوك عظام فأداروا بشوكتهم كرة الأرض إلا قليلاً نحو شرع الله... ما هُزِمَ لهم

---

[١] الرسائل إلى الملوك كانت أواخر السنة السادسة من الهجرة حين رجع الرسول من الحديبية (س).

جيش، ولم يُنكس لهم عَلَم، ولم يُرد لهم قول على قائلهم، قلاعهم وحصونهم متلاقية، ومنابتهم ومغارسهم في سهولهم وأخيافهم[1] رابية مزدهية بأنواع النباتات وبأصناف الأشجار، صنع أيدي المسلمين بصنائع سكانها وبدائعهم، وتفاخرها بشموس الفضل وبذور العلم، ونجوم الهداية من رجال لهم المكان الأعلى في العلوم والآداب[2].

فالهجرة هي إذن التي حققت عالمية الإسلام ونشرت مبادئه في كل مكان... وخلصت العالم من براثن الإمبراطوريتين: الفارسية والرومانية، وتحررت الدنيا من مستعمرات هذه الإمبراطوريات التي ذاقت الأمرين من الظلم والاضطهاد، في الشام وآسيا الصغرى والشمال الأفريقي.

فهل يرجع المسلمون الآن إلى إسلامهم حتى يعيدوا للإسلام مجده، ويخلصوا العالم من براثن الرأسمالية والصهيونية العالمية أو الشيوعية أو... أو ...... إلى غير ذلك؟ [**وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**] {يوسف:٢١}

بالهجرة تخلص العالم بأجمعه من الفوضى والهمجية، وانتقل إلى مرحلة التحضر والإنسانية... ليس هذا من قبيل المبالغة لكنها شهادة حق شهد بها الأعداء قبل الأصدقاء.

---

[1] الأخياف: الأراضي المنحدرة عن الجبل.

[2] الشيخ محمد عبده: المسلمون والإسلام ص٢٣.

٩. يقول المستشرق (وينستون) في كتابه "الحركات كأساس للحضارة":
"وفي القرنين الخامس والسادس الميلادي، كان العالم على شفا حفرة من الفوضى، لأن العقائد التي كانت تعين على إقامة الحضارة قد انهارت، لم يكن ثمة ما يعتد به مما يقوم مقامها، وكان يبدو إذ ذاك أن المدينة الكبرى التي قامت في العالم بعد جهود أربعة آلاف سنة، مشرفة على الفكاك والانحلال ، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية، لأن القبائل كانت تتحارب وتتناحر ولا قانون يردعها، ولا نظام ينظم حياتها، أما النظم التي خلفتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والإنهيار بدلاً من الاتحاد والنظام، وكانت(يثرب) المدينة المنورة ضخمة كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم، واقفة تترنح بحيث قد تسرب إليها العطب حتى اللباب، بين مظاهر هذا الفساد الشامل حتى جاء الرجل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي وحد العالم جميعه[١] .

أَعَادة الهجرة النبوية صقل الخامات البشرية في العالم الإسلامي، وساعد الاستقرار على إبراز المواهب والطاقات التي كانت كامنة تحت ظلمات الجاهلية والكفر والإلحاد والخلود إلى الأرض ، فانطلقوا وقد استضاءوا بنور الإسلام، عبقريات تفتح البلاد وتقيم العدل ، وتؤسس الدول في عداد العظماء في كل العصور، ولولا الهجرة ما وجد هؤلاء مناخ الانطلاق.

---

[١] الطرازي الحسيني: نبذة من السيرة النبوية.

يحدثنا عن ذلك أبو الحسن الندوي في كتابه "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟"

فيقول: بَعث رسول الله ﴿ﷺ﴾ في الإنسانية المحتضرة حياة جديدة عمد إلى الذخائر البشرية وهي أكداس من المواد الخام لا يعرف أحد غناءها، ولا يعرف محلها، وقد أضاعتها الجاهلية والكفر والإخلاد إلى الأرض فأوجد فيها - بإذن الله- والإيمان والعقيدة الحضارة والمدنية، وبعث فيها الروح الجديدة، وأثار دفائنها، وأشعل مواهبها، ثم وضع كل واحد في محله، فكأنما خُلق له، وكأنما كان المكان شاغراً لم يزل ينتظره ويتطلع إليه، وكأنما كان جامداً فتحول جسماً نامياً، وإنساناً متصرفا، وكأنما كان ميتاً لا يتحرك فعاد حياً يُملي على العالم إرادته، وكأنما كان أعمى لا يبصر الطريق فأصبح قائداً يقود الأمم.

[أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ] {الأنعام:١٢٢}

اعتمدت الأمة العربية الضائعة على أناس من غيرها ، فما لبث العالم -بعد الإسلام- أن رأى منهم نوابغ كانوا من عجائب الدهر وسوائح التاريخ، فأصبح عمر بن الخطاب الذي كان يرعى الإبل لأبيه الخطاب وينهره وكان من أوساط قريش جلادة وصرامة، ولا يتبوأ منها المكانة العليا، ولا يحسب له أقرانه حساباً كبيراً، إذا به يفاجأ العالم بعبقريته وعصاميته ويدحر كسرى وقيصر عن عروشهما، وأسس دولة إسلامية تجمع بين ممتلكاتهما، وتفوقها في الإدارة وحسن النظام، فضلاً عن الورع والتقوى والعدل الذي لا يزال فيه المثل السائر، رآه بعض

الرسل من قِبَل بعض الدول نائماً تحت شجرة وهو أمير المؤمنين فقال: الرجل متعجبا منه (حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر ـوغيرك من الملوك لم يعدل ، فلم يأمن فلم ينم) أيُّ ورعٍ وأيُّ تقوىٰ تجعله حاكماً ـ بالدين ـ للدنيا وينام في ظل شجرة.

ثم لم يلبث العالم المتمدين أن يرىٰ من هذه المواد الخام المبعثرة التي استهانت بقيمتها الأمم المعاصرة، وسخرت منها البلاد المجاورة، فلم يلبث العالم أن يرىٰ منها كتلة لم يشهد التاريخ البشرىٰ أحسن منها اتزانا ... كتلة فيها الكفاية التامة في كل ناحية من نواحي الإنسانية ، كتلة هي في غنىٰ عن العالم، وليس العالم في غنىٰ عنها، وصنعت مدنيتها وأسست حكومتها وليس لها عهد بها، فلم تضطر إلىٰ أن تستعير رجلا من أمة، أو تستعين في إدارتها بحكومة، أسست حكومة تمد رواقها علىٰ رقعة متسعة من قارتين عظيمتين، وملأت كل ثغر وسدت كل عَوَز برجل يجمع بين الكفاءة والديانة والقوة والأمانة، برجل من الرجال الأكفاء فكان منها الأمير العادل، والخازن الأمين، والقاضي المقسط، والقائد العابد، والوالي الورع، والجندي التقي....والكل يسمع ويطيع طالما هذا يرضى الله وهذه هي طاعة لله تعالىٰ.

لقد وضع ﴿ﷺ﴾ مفتاح النبوة علىٰ قفل الطبيعة البشري، فانفتح علىٰ ما فيه من كنوز وعجائب، وقيم ومواهب، أصابت الجاهلية في مقتلها وصميمها، وأرغم

العالم العنيد بحول الله تعالى على أن ينمو نمواً جديدا ويفتتح عهداً سعيداً ، ذلك هو العهد الإسلامي الذي لا يزال في جبين التاريخ[1] .

لا شك بعد هذا .. أن الهجرة كانت بداية انطلاق الإسلام إلى كل الآفاق وفاتحة خير لبناء الدولة الإسلامية.. وبُشرى لتخليص المستضعفين من براثن الظلم والطغيان، وإرهاصة قيام الحضارة الإسلامية، لهذا كان الإصرار من المسلمين على أن تكون الهجرة وليس البعث أو وفاة الرسول هي بداية التاريخ الإسلامي.

إن إلهام عمر بن الخطاب وصدق فراسته في الاعتداد بالهجرة وجعلها بداية التاريخ الإسلامي، كان في محله وموضعه.

غيرت الهجرة التاريخ إذ بدأ العمل بالتقويم الهجري ، وغيرت مجرى التاريخ، لأنها كانت أهم أحداث التاريخ، فيا له من حدث ويا لها من مواعظ ودروس للأمة الإسلامية.

[1] أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص١٠٨ وما بعدها.

الهجرة النبوية دروسٌ ومواقف
الموقف الأول
"الدعوة في أحلك الظروف وأصعب الأوقات

محمدٌ ﴿ﷺ﴾ علم تمام العلم وتيقن عين اليقين أن السباق قد بدأ وأن المتسابقين قد أعدوا العدة وتهيئوا بكل ما يملكون من قوة، ولكن من هو المستهدف هو رسول الله حياً أو ميتاً، وثمن السباق مائة ناقة لمن يصيب هذا الهدف المنشود، ولكن يا ترىٰ هل كان ﴿ﷺ﴾ يعلم ذلك أم لا؟ قد سبق أن النبي كان يعلم ذلك ولكنه رجل ليس ككل الرجال، إنه رجل اصطنعه الله علىٰ عينه وأرسله إلىٰ الناس كافة ليدعوهم إلىٰ الله تعالىٰ فهل يتباطأ في هذا الأمر؟

أمره الله بالدعوة إليه وبتبليغ رسالته، فوقف له المشركون بكل ما أمكنهم من قوة، وأرادوا أن يشغلوه عنها بكل ما أوتوا من علم، لكنه مع كل هذا لم يشغله أبداً عن دعوته وهدفه، فمثلاً وهو في الطريق لقىٰ ﴿ﷺ﴾ بُرِيْدَة بن الحصَيب الأسلمىٰ ومعه نحو ثمانين بيتًا، فدعاهم جميعاً إلىٰ الإسلام فأسلموا، وصَلّىٰ بهم ﴿ﷺ﴾ العشاء الآخرة فصلوا خلفه، وأقام بريدة بأرض قومه حتىٰ قدم علىٰ رسول ﴿ﷺ﴾ بعد أُحُد.

ويحكي لنا عبد الله بن بريدة أن النبي ﴿ﷺ﴾ كان يتفاءل ولا يتطير، فركب بريدة في سبعين راكبًا من أهل بيته من بني سهم، فلقىٰ النبي ﴿ﷺ﴾ فقال له النبي: [ممن

أنت؟] قال: من أسلم، فقال: لأبي بكر: سلمنا، ثم قال: [مِنْ بني مَنْ؟] قال: من بني سهم. قال: [خرج سهمك].

كذلك قابل النبي لِصَّان في الطريق فقال لهما مَن أنتما؟ فقالا المُهانان؛ فقال لهما بل أنتما المُكرمان؛ ثم دعاهما إلى الإسلام فأسلما، كلّ هذا والنبي طريداً وحيداً لم يشغله عن دعوته أي شئ.

وهذا واجب كل مسلم من أمة النبي محمد وذلك لقوله تعالى [**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ**] {آل عمران: ١١٠}

الموقف الثاني: فن قيادة الأرواح والتعامل مع النفوس.

يظهر لنا الحب العميق الذي يسيطر على قلب أبي بكر لرسول الله في الهجرة المباركة.

كما يظهر واضحاً وجلياً أيضاً حب سائر الصحابة أجمعين في حبيبهم المصطفى ﴿ﷺ﴾، وهذا الحب الرباني إنما كان نابعا من القلب والضمير، وبإخلاص لم يكن حب نفاق أو نابعا من مصلحة دنيوية، أو رغبة في منفعة أو رهبة من مكروه قد يقع، وإنما كان لهذا الحب أسبابه؛ ومن أسباب هذا الحب له ﴿ﷺ﴾ صفاته القيادية الرشيدة، صاحب الخلق العظيم فهو ﴿ﷺ﴾ يسهر ليناموا، ويتعب ليستريحوا، ويجوع ليشبعوا، وهو يفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم.. كيف لا وقد صنعه الله على عينه واصطنعه لنفسه، وقد قال فيه [**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ**

الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ] {آل عمران:١٥٩}

ويقول فيه [وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ] {القلم:٤} فيا ليت هذه الصفات القيادية يتصف بها زعماء الأمة وقادتها المسئولون عنها.

نعم إن القيادة الرشيدة الصحيحة هي التي تستطيع أن تقود الأرواح قبل كل الأجساد، وتستيطع أن تتعامل مع النفوس قبل غيرها وعلى قدر الإحسان إلى الجنود تكون المحبة الصادقة المخلصة من القائد، فقد كان ﷺ رحيماً شفوقاً بجنوده وأتباعه، فهو لم يهاجر إلا بعد أن هاجر معظم الصحابة واطمأن على الجميع سواء من بقي بمكة أو من هاجر إلى المدينة؛

<u>الموقف الثالث: أمانة الداعي:</u>

ويظهر ذلك جليّاً في حال هؤلاء المشركين، إنهم الذين كانوا يكذبونه ﷺ هم أنفسهم مَن كانوا يضعون أماناتهم عنده فها هو ﷺ يَدَع المشركون عنده ودائعهم مع محاربتهم له، وتصميمهم على قتله، إن هذا لهو الدليل القاطع الذي يدل على تناقض هؤلاء المشركين، والعجيب أنهم وفي الوقت الذي كانوا يكذبونه ويزعمون أنه ساحر، أو مجنون أو كذاب.. إلى غير ذلك من الادعاءات الكاذبة، في الوقت نفسه لم يكونوا يجدون فيمن حولهم من هو خير منه أمانةً وخُلُقاً وصدقاً، فها هم لا يضعون حوائجهم ولا أموالهم أو أى شئ يخافون عليه إلا عند النبي لماذا؟!!

لا لشئ إلا أنه قدوة حسنة للجميع، وهي وصية للدعاة اليوم انظروا لأمانته (ﷺ) وصدقه ولنتعلم منه ونقتدي به، والكل يعترف بذلك حتى في أشد وقت يعترضون عليه فيه، مما يدل على أن كفرهم لم يكن بسبب الشك لديهم في صدقه وإنما كان بسبب تكبرهم واستعلائهم على الحق الذي جاء به، وخوفاً على زعامتهم ولقد صدق الله تعالى إذ يقول [**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ**] {الأنعام:٣٣}

الموقف الرابع: عفة الداعي عما في أيدي الناس:

فها هو (ﷺ) لم يقبل من أحب الناس إلى قلبه سيدنا أبي بكر رضى الله عنه صدَقَةً ولو كانت شيئا يسيرا، ثم استقر أن يكون ثمن الدابة دَيناً في ذمته، وهذا موقف رائع واضح يدل على أنه لابد على حَمَلة الدعوة أن يكونوا متعففين عما في أيدِ الناس، ولاينظرون لما في يد غيرهم، ولا ينبغي أبداً أن يكونوا عَالةً على أحد في وقت من الأوقات، فهم دائما مصدر للعطاء في كل شئ..

إن أيديهم دائماً لابد وإن تكون هي العليا، وهكذا أصر (ﷺ) على أن يأخذ الراحلة من أبي بكر بالثمن، وسلوكه ذلك هو ترجمة حقيقة لقوله تعالى في كثير من آيات القرآن فيما يحكيه عن الأنبياء السابقين [**وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ**] {الشعراء:١٠٩} إلى غير ذلك.

إن الذين يحملون العقيدة الإيمانية ويبشرون بها ويدعون إليها الناس، ما ينبغي أبداً أن تمتد أيديهم إلى أحد إلا الله تعالى، لأن هذا يناقض ما يدعون إليه، وقد تعود الناس أن يسمعوا لغة الحال لا لغة المقال.

وما تأخر المسلمون الآن وأصابهم ما أصابهم من الهوان إلا يوم أن أصبحت وسائل الدعوة والعاملين بها والدعاة إليها خاضعة للغة المادة، ويومها تحول العمل الدعوي إلى عمل مادي، فقد الروح والحيوية .. إن الصوت الذي ينبعث من حنجرة ورائها الخوف من الله، والأمل في رضاه، غير الصوت الذي ينبعث لتلقي دراهم معدودة فإذا توقفت الدراهم، يتوقف مباشرة الصوت الذي يبلغ.

وقديما قالوا "ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة" ولهذا قَلَّ التأثيرالحقيقي، وَبَعُد الناس عن الدعاة إلى الله، والنبي ﴿ﷺ﴾ في موقف آخر في الهجرة لما عرض سراقة بن مالك بقوله "هذه كنانتي فخذ منها سهماً وإنك ستمر بإبلي وغنمي في موضع كذا وكذا فخذ منها حاجتك" فقال له النبي جزاك الله خيراً لا حاجة لي فيها" فحين يزهد الدعاة فيما في أيد الناس يحبهم الناس، وحين يطمعون في أموالهم ويتقربون من الأمراء والسلاطين ينفر منهم الناس وينفضون عنهم، وهذا موقف بليغ للدعاة إلى الله وصدق النبي ﴿ﷺ﴾ لمن سأله قائلاً "يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس: قال له ﴿ﷺ﴾ ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد في ما في أيدي الناس يحبك الناس.." رواه ابن ماجه

الموقف الخامس : القيادة الحكيمة والجندية المخلصة:

لننظر أيها الأخوة الكرام لمثل هذا الموقف ممن قد رُبِيَ على تحمل أعباء هذه الدعوة فقد ربَّىَ النبي أناسا مخلصين تحولوا بكل ما يملكون لدعوتهم، فهذا أبو بكر وأولاده جميعاً وعلى رضى الله عنهم وغيرهم من الصحابة الكثير والكثير،إذ قد ظهر أثر التربية النبوية في جندية كل من أبي بكر ضى الله عنه وعلى رضى الله عنه عند الهجرة، فبمجرد أن قال النبي لأبي بكر "لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً" إلا أنه لم ينتظر بل بدأ فوراً وبجاهزية وإيجابية في الإعداد والتخطيط للهجرة فاشترى راحلتين واحتبسهما في داره يعلفهما أفضل العلف إستعداداً لهذا اليوم الذي من الممكن أن يطلبه الرسول فيه للهجرة، فكان يعلفهما من (ورق السمر) أربعة أشهر، وهذا النوع من العلف هو من أفضل الأنواع للإبل وبخاصة في السفر الطويل الذي هو مثل هذا السفر، وذلك كما روت وحفلت به كتب السير والتاريخ.

أما عليّ فلا يسأل النبي عن شيئ لما أمره أن ينام مكانه، لم يقل له مثلاً ولماذا أنا بالذات؟ أو هناك من هو أسنُّ مني ؟ أو أخاف على نفسي أو أنا ما زلت شاباً في مقتبل العمر؟.......؟..؟إلخ من هذه الأسئلة التي من الممكن أن يسألها أي إنسان في مثل موقف أو سنّ عليّ ، لكن لم يحدث هذا؟؟؟ إنها الجندية الرفيعة إنها الإيجابية بكل ما تحتويه هذه الكلمة من معاني، فانظر إلى حُسن التربية من القيادة الحكيمة.

الدروس والعبر من الهجرة

احتوت الهجرة النبوية على دروس وعبر يجب على المسلمين أن يتدبروها ويعملوا بها حتى ينجحوا في دنياهم وأخراهم، كما سبق ونجت دعوته (ﷺ) بعد نجاح هجرته المباركة.

ولنأخذ طرفا يسيرا .. من هذه الدروس.

١-أن الهجرة النبوية لم تكن فرارا من الأذى، أو شكاية من التعذيب الذي واجه الرسول والصحابة، بل كانت أمراً من الله لرسوله .

٢-لم تكن الهجرة في بداية الدعوة الإسلامية بل مكثوا سنوات عديدة في مكة - ثلاث عشرة سنة - يضطهدهم المشركون ويعذبونهم، فكانوا مستضعفين في مكة، وانظر لما كان يُفعل مع بلال بن رباح، وعمار بن ياسر، وغيرهما من ضعفاء المسلمين.. وإن دل هذا فإنما يدل على ثبات المسلمين على دينهم، وتضحيتهم في سبيله، وصبرهم وتحملهم لكل شئ في سبيل دعوتهم، كما أنها كانت بمثابة تمحيص للصف المسلم، وتربية وتدريب للمسلمين الأوائل على القيام بواجب الدعوة والدولة فيما بعد.

٣-الأحداث التي حدثت في الهجرة تدل على معية الله تعالى لرسوله ومن ثمّ مع المؤمنين المخلصين لدعوتهم ودينهم، وما إن يحدث هذا من أي مسلم أيّا ما كان جنسه أو لونه، فإن الله معه ولن يترك الله عباده "أليس الله بكافٍ عبده...." بلي إن الله ناصر دينه ومُعزٌّ أولياءه،إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

٤-ما حدث منه ﴿ﷺ﴾ في الهجرة يؤكد ثقة الرسول في نصر الله له ودفاعه عنه، وحمايته له،اسمع لما قاله للصديق أبي بكر رضى الله عنه "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما [**لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**] {التوبة:٤٠} وهذا يدل على الثقة في نصرة الله تعالى له وأنه في معية الله وكنفه سبحانه...، وهكذا الدعاة اليوم لابد وأن يستشعروا هذه النعمة التي خصهم الله بها دون غيرهم.

٥-ضرورة اختيار الصاحب الحق فالصاحب ساحب كما يقولون، فهذه المهمة صعبة، إذ الرحلة شاقة والمسافة بعيدة، فلابد من اختيار صاحب أمين متوافرة فيه شروط الصحبة وحَمّل هذا العبء الثقيل معه، فكان اختيار أبي بكر رضى الله عنه الذي لو وزن إيمانه بإيمان الأمة لرجح إيمان أبي بكر ضى الله ونعم الصاحب هو رضى الله عنه...

٦-أبعدت الهجرة أدنى شُبهة عن الدعوة الإسلامية، إذ أنها لم تظهر في مكة وتنتشر بها أولا... حتى لا يقال لولا نصرة قريش لها، عصبية وحمية ما انتشرت دعوة الإسلام، ولكنها تدل على أن الدعوة الحقة لابد من انتشارها ولو في غير أهلها لأن الله هو الذي يؤيدها وينصرها.

٧-من دروس الهجرة الدلالة التامة على أن الدعوة الإسلامية تساير الأحوال العادية للناس، وتجاري الأحداث الطبيعية للبشر وتساير السنن والنواميس الكونية والتي ترتبط بها الأسباب والمسببات ولا تعتمد على خوارق العادات ، فقد اتخذ ﴿ﷺ﴾ جميع الاحتياطيات اللازمة وأخذ بجميع الأسباب مع الاعتماد على الله سبحانه وتعالى.

٨-ظهر في الهجرة حكمته ﴿ﷺ﴾ وقيادته وحسن تدبيره وتقديره للأمور التي ستحدث له وأخذ لكل جانب عدته من التدابير اللازمة، ما يُعرف الآن بفقه الواقع أو الخبرة السياسية.

٩-أثبتت الهجرة النبوية للمسلمين عامة في كل زمان ومكان والدعاة خاصة، أن العقيدة هي أغلى شئ في حياة أصحابها ولا يجوز لأصحاب الدعوات أن يتنازلوا عن أي شئ منها، مهما كلفهم ذلك من أجلها وهذا ما أثبتته الهجرة المباركة من أجل نشر دعوته دعوة الإسلام.

١٠-من الدروس التي يجب على أصحاب الدعوات المخلصين لدعوتهم أن يتعلموها ويتدبروها ويعملوا بها.. أن الجندي الصادق يفدي قائده بحياته، ففي سلامته سلامة الدعوة وفي هلاكه خذلانها وضياعها... وقدظهر هذا جليا في فداء الشباب للقائد، كعلي بن أبي طالب الذي علم الموت المحقق في مبيته مكان النبي ﴿ﷺ﴾ ولكنه نام مكانه ولم يُبالي بما يمكن أن يحدث له، وكذلك تضحية أبي بكر بماله ونفسه وأهل بيته من أجل قائده، وما كان يفعله أثناء سيره معه في الهجرة فنراه مرة يمشي خلفه ومرة أمامه وعن يمينه وعن يساره، ولما سأله ﴿ﷺ﴾ قال: أظن أن العدو يأتي من خلفك فأكون من خلفك، أو من أمامك فأكون من أمامك، وهكذا عن اليمين وعن اليسار، فإن هلكت فإنما أنا فرد من أمة، أما أنت فأنت الأمة بأسرها والدعوة بك يا رسول الله، هذا من تضحية الجندي للقائد وغير هذين المثالين كثير .

١١- نتعلم من الهجرة عدم الهروب من الموقف، والثبات على الحق فلم يخرج ﴿ﷺ﴾ مع بداية الأذى والتعذيب الذي كان في مكة، ولكنه واجه كل هذا بصبر وثبات حتى أمره الله بالهجرة، فها هو يقول ﴿ﷺ﴾ "أوذيت في الله ولم يؤذ أحد مثلي، وأُخِفت في الله ولم يخف أحد مثلي..." فالنبي أوذي وأخيف ولم يخرج في بادئ الأمر بل ثبت وواجه هذا العتو والاستكبار بكل صبر وحزم، حتى جاء أمر الله بالخروج.. وهذا الدرس لكل صاحب دعوة أن يواجه الأخطار التي تواجه دعوته، وأن يقف أمامها بكل حزم لا ينحرف أمام الابتلاءات.

١٢-من الدروس المستفادة من الهجرة أن كل شئ في سبيل الله ، وفي سبيل الدعوة إلى الإسلام يهون، فالذي يترك ماله وبلده التي تربى فيها إلى بلد ليس له فيها أهل ولا مال، ولا يعرف فيها أحد، فالله لا يُضيع أجر مَن أحسن عملا، فها هو ﴿ﷺ﴾ يقول لما خرج من مكة.. "والله يا مكة إنك لأحب البلاد إلى الله، وأحب البلاد إليّ ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت.." قال هذا القول المشهور والحزن يملأه على فراقها، والأسى يمتلك عليه جميع جوانحه، ولكنها تضحية الداعية الصادق ولسان حاله يقول: "موطني عقيدتي" فقد خرج النبي وصحابته الأطهار من بلدهم مكة وتركوها رغما عنهم، لا يريدون تركها ولكن خرجوا حبا الله ولرسوله وقال الله عنهم : [لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ] {الحشر:٨}

ولو تمعّنا في الآية لوجدنا أن الله قال أُخرجوا ولم يقل خرجوا معنى ذلك أنهم خرجوا غير راضين عن الخروج ولكنهم أُخرِجوا رغماً عنهم. على معنى كلام الشاعر العربي القائل:

نفسي ومالي لجنب الله أودعهم*** فإن هلكن فهذا كل آمالي

وقول غيره:

وأحمل روحي على راحتي *** لأُلقي بها في مهاوي الرَّدَى

فإمّا حياة تسُرُّ الصـــــديق *** وإمّا مماتٌ يغيـــظ العِــــدا

فهم خرجوا طاعة لله وللرسول وكل شئ يهون في سبيل الله، كيف لا؟ وكان من دعاءه ﴿ﷺ﴾ "اللهم لا تجعل مصيبتنا في ديننا" وكأنه يبين للدعاة أن كل مصيبة بعيدة عن الدين والدعوة فهي ليست مصيبة وإنما المصيبة حقا في الدين.

١٣- من الدروس الهامة للدعاة في حياتهم عموماً، التخطيط المحكَم والإعداد الجيد والأخذ بأسباب النجاح، ووضع الأمور في نصابها في كل شئ، وهذا هو قمة التوكل على الله.

١٤- وضع الشخص المناسب في المكان المناسب وأهمية الجماعة وضرورة العمل الجماعي الموحد والمنظم والمخطط له، لخدمة الإسلام والدعوة وقد ظهر ذلك في توزيع الأدوار على أصحابه ﴿ﷺ﴾ في الهجرة النبوية، فمثلا: أبو بكر يكون مع القائد الأعظم ﴿ﷺ﴾ في الهجرة والرحلة الشاقة لأنه أهل للتحمل في المشاق والمصاعب، أما عامر بن فهيرة فيرعى الأغنام في الوادي ولما تذهب أسماء بنت أبي بكر لأبيها وصاحبه يمشي خلفها بأغنامه، فيمحو آثار أقدامها لأن أهل مكة

كانوا بارعين في علم تقصي الأثر، وعبد الله بن أبي بكر كان يسمع لهم أخبار أهل مكة ويذهب بها إلى الرسول وصاحبه في الغار، وهو ما يطلق عليه العمل المخابراتي الآن.. وابن أريقط دليلهما وإن كان لا يزال مشركا لأنه أمين وعنده علم بالطرق، وعلى بن أبي طالب ينام مكانه ﴿ﷺ﴾ وعلى فراشه حتى يُعمّي على المشركين، أما السيدة أسماء رضي الله عنها فعليها إعداد الطعام وتوصيله إليهما في الغار، وهكذا مما يدل دلالة واضحة جلية لا غموض فيها على أن الدين لا يقوم إلا بالجميع ولا يقوم على أفراد كل منهم يعيش لعمل خصصه لنفسه يقدر عليه ويقوم به كما رأينا في الهجرة المباركة.

١٥- من الدروس المستفادة من هجرة المباركة إلى المدينة يجب على كل المسلمين أن يعوه تمام الوعي، حتى يكون نبراسا لهم وسراجا منيراً أمامهم، هو أن يتيقنوا أن أعداءهم لا ينامون ليلاً ولا نهاراً ولا يهدأ لهم بال حتى يقضوا على الدعوة بالقضاء على أصحابها في كل زمان ومكان، وكل مانراه الآن من شدة عداء الكافرين للمؤمنين ومحاولة القضاء عليهم، وأنهم يبذلون كل الجهود لوأد الصحوة الإسلامية، وعدم السماح لها بالظهور، وقد ظهر هذا جليا في مؤتمرهم الذي عقد برئاسة عدو الله أبي جهل وأعوانه من المشركين، للقضاء على محمد ﴿ﷺ﴾ وأعوانه من أصحاب الدعوة، وأن على أصحاب الدعوة الإسلامية أن يعرفوا ذلك جيداً وأن يعملوا لذلك فإن الأعداء وبخاصة فيه هذا العصر الذي لا يدخرون فيه أي شئ من جهدهم لوأد الدعوة في مهدها، سواء بالقتل والتشريد أو الإعتقال والسجن، وها نحن نرى الآن وقد قام أعداء الإسلام من

الكافرين الحاقدين على الإسلام بتشويه صورته وأعلنوا الحرب على الإسلام صراحة بعد أن تأمروا على ذلك ويعقدون لذلك المؤتمرات والندوات...

١٦- ومن الدروس المستفادة أيضا من هجرته ﴿ﷺ﴾ دور الشباب المسلم في خدمة الدعوة الإسلامية وتتمثل في دور عبد الله بن أبي بكر الصديق وعلى بن أبي طالب وعامر بن فهيرة رضى الله عنهم ومعرفة أن الشباب هم ساعد الأمة وشوكتها.. إذ قال النبي في حديث روي عنه "أتيت بالحنيفية السمحة فنصرني الشباب " فدور الشباب هو أهم دور في الدعوة وهم الذين تبنى عليهم الدعوات ولهذا كان دوره أكبر وأعظم.

١٧- نأخذ من الهجرة درسا هو جواز الاستعانة بالخبرات والكفاءات الماهرة ولو كانت من المشركين طالما كانت هذه الخبرات والقدرات مأمونة الجانب، وتكون في المجال الذي قد برعوا فيه، ويكون عند المسلمين حيطة وحذر، حتى لا تصاب الدعوة بأذى كما قال تعالى: [لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ] {الممتحنة:٨}

الاحتياطيات الأمنية من الجانبين (النبي ﷺ - والكفار)

أولاً: الحس الأمني عند أهل الباطل لاغتيال قائد الدعوة ﷺ .

فبعد أن باءت قريش بالفشل في منع الصحابة رضى الله عنهم من الهجرة إلى المدينة المنورة على الرغم من كل الأساليب التي ذكرناها سابقاً من التعذيب وغيره على المسلمين بعد هذا الفشل، أدركت قريش خطورة الأمر، فأصحاب ﷺ قد خرجوا وساقوا الذراري والأطفال إلى الأوس والخزرج.

وقد وقع ما كان يخافون حيث تجسد أمامهم الخطر الحقيقي الذي يهدد كيانهم الاجتماعي والاقتصادي، حيث تكونت النواة الأولى للدولة الإسلامية الكبرى الموحدة التي ستهدم الكفر وقلعته بعد قليل، وهم يعلمون كذلك قوة تأثير الرسول الدعوية مع كمال القيادة والرشاد، ويعلمون عزيمة أصحابه واستقامتهم ومدى تربية النبي ﷺ لهم على استعدادهم للفداء والتضحية في سبيل ما تربوا عليه من العقيدة الإسلامية، ويعلمون كذلك ما في الأوس والخزرج (الأنصار) من قوة ومنعة، وما فيه عقلاء هاتين القبيلتين من عواطف السلم والصلح ، والتداعي إلى نبذ الأحقاد فيما بينهم، بعد أن ذاقوا العذاب من مرارة الحرب الأهلية التي كانت تنشب بينهم طيلة أعوام كثيرة وعلى أتفه الأسباب من أمثال (بعاث) وغيرها.

كما كان يدرك رؤساء الكفر ما للمدينة من الأهمية من حيث الموقع الاستراتيجي لتجارة الكفار، وهي التي كانت تمر بها في طريقها إلى الشام ولا ريب فإنها تحتاج

إلى أمن واستقرار طوال الطريق ذهابا وإيابا فهذا الموقف البالغ الحساسية والخطورة كان يتطلب من قيادات الكفر في مكة أن يحاولوا فعل أي شئ تجاهه فهذا ضياع محقق لعزتهم وكبريائهم وسيادتهم، فماذا يفعلون؟ كان عليهم أن يبحثوا عن أفضل الوسائل وأنجحها لدفع هذا الخطر الذي مبعثه الوحيد هو حامل لواء الدعوة (ﷺ) لذا اجتمع كلهم في دار الندوة للتشاور في أمر القضاء على حامل لوائها وقائدها باغتياله (ﷺ) والاغتيال دائماً هو سلاح الضعفاء .

هذا ما يفعله أهل الباطل دائماً تجاه أصحاب الدعوات الحقة، إذ يُخَيّل إليهم أنهم بالقضاء على صاحب الدعوة يُقضى على الدعوة تماماً ولم يدروا أنها فكرة قد تربي عليها جيل بعد جيل، فهل تموت فكرة نمت وترعرعت في قلوب أصحابها، يقتل الواحد منهم فيقول فزت ورب الكعبة!!! حتى ولو كان هذا الواحد هو المؤسس الأول لها؟

على كلٍ جاءوا إلى دار الندوة للمشاورة في أمر القضاء على محمد صاحب هذه الدعوة.

وقد رافق مؤامرتهم هذه على الدعوة وقائدها، اتخاذ بعض الإجراءات الأمنية التي تبين مدى الحس الأمني عند جماعة الباطل المدافعين عن باطلهم وعقيدتهم الفاسدة، وليكون درساً لأهل الحق في كيفية الدفاع عن حقهم، فهم الأَوّلَى بهذا وهذه الإجراءات نوجزها في نقاط هي:

<u>١- التّكتّم التام والعام على هذا الاجتماع:</u>

فلما عرضت هذه الأراء داخل دار الندوة لم يعلم أحد من بني هاشم ولا من الكفار الموالين للنبي (ﷺ) كالعباس أو المؤمنين كالصحابة، فلماذا لم يعلم أحد منهم؟ لم يعلموا لأن قيادات الكفر من قريش قد تكتمت تكتماً تاماً على هذا الاجتماع المفاجئ في دار الندوة، فلم يُعلموا أحداً ممن يَشُكُّون في أمره بأنه سيخبره (ﷺ) حتى لو كان على دينهم بأي أمر حدث داخل الاجتماع، فلم يَدْعُوا أحداً للحضور من هؤلاء وبخاصة عمه العباس بن عبدالمطلب على الرغم أنه كان على دينهم، وقد نجحوا في أمر هذا الكتمان فلم يعلم أحد أبدا، ودليل ذلك أن النبي (ﷺ) لم يعلم بهذا الأمر أبداً إلا عن طريق الوحي قال تعالى [**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**] {الأنفال:٣٠}

٢- إحكام الخطة:

بحق لقد كانت الخطة محكمة من قِبَلِ أهل مكة المجتمعين إحكاما دقيقاً وقد أخذوا بجميع الاحتياطات والأسباب، بحيث لم تكن فيها ثغرة يمكن ـ فيما يبدو لهم ـ أن تفسدها وهذا الإحكام والاحتياط يؤكد أن النقاش في دار الندوة كان مستفيضاً والكل يدلو بدلوه، وهذا يعارض ويعترض وهذا يناقش وكان الأخذ والردّ على أشُده، بدليل أنهم رفضوا فكرة الحبس والقيد والإخراج وغيرها واعترضوا بشدة لأن بها ثغرات يمكن أن تفسد الخطة ، ويعلم بها محمد (ﷺ) أو يكثر بها أصحابه وأتباعه.

فمثلاً: رفضوا فكرة الحبس له، لأنهم وجدوا ثغرة وهي أن أصحاب محمد يمكن أن يكثروا ثم يطلقوا سراحه، واستبعدوا فكرة الإخراج من مكة لخوفهم من تأثيره على الآخرين، ثم اختاروا الرأي القائل بالقتل الجماعي منهم له، وإن دل هذا فإنما يدل على الإحكام الشديد والتخطيط الدقيق حيث إن القضاء على قائد الدعوة هو من وجهة نظرهم قضاء على الدعوة نفسها هذا إلى جانب أن محاربة بني عبد مناف (قوم النبي وعصبته) لا يقدرون على محاربة قومهم جميعاً وبالتالي فإنهم بذلك يكونون قد تفادوا معركة وحرباً طاحنة معهم ثم تنحصر المشكلة في دفع الدية وها أمر يسير على المتآمرين .. ومع كل هذ النقاش والمشاورة التي كانت تحدث بينهم في حين عرض الآراء والأخذ والرد، لم يعلم بهذا الأمر أحد من البشر .. فكيف بعثوا إلى كل أهل مكة والذين يحق لهم الحضور بدون علم أحد؟ وكيف لم تصل الأخبار إلى العباس أو أحد الموالين للنبي (ﷺ) ولو كانوا كفارا من الذين يحق لهم دخول هذا المجلس؟ وأين كان الناس جميعاً في مكة بعد عقد هذا المؤتمر؟ ولم يعلم بها دار القريب من الناس أوالبعيد؟ إذاً هذا دليل على أنهم قد أخذوا جميع الاحتياطات اللازمة لهم.

٣- لمن تسند هذه المهمة الصعبة؟

هذه الهمة الصعبة لابد وأن تسند إلى شباب هذا الشباب قد يكون فيه من يحب المال، فيأتي إلى أهل النبي ويساومهم على الخطة المدروسة ويعطونه مقابلا وقد يكون منهم من هو خائر القلب يخاف من الإقدام على مثل هذا الأمر .. وقد يكون منهم من بينه وبين بني هاشم نسب أو غيره من صلة قرابة .. وقد يكون

منهم معترض على مثل هذا العمل الجائر.. وقد يكون وقد يكون .. إذا فيا تُرى نجعلهم أفراداً قليلين ثلاثة أو أربعة أو حتى عشرة؟ لكن كيف يقومون بهذه المهمة الصعبة؟ وهم من بطون قليلة من العرب، فقد يحدث ما لا تحمد عقباه من الحرب مثلاً .. إذن القليل لا ينفع في تنفيذ هذه العملية والكثير قد لا يُؤمن ..!!! وكما قال بعض العرب "السر إذا تعدى اثنين فشا" وفي قريش ما يَقرب من أربعين بطناً من الغيورين على عقيدتهم الفاسدة وآلهتهم الزائفة، إذن فكانت عندهم وفي حسبانهم كل هذه الأشياء فاشترطوا لهذا الشاب الذي سيقوم بهذا الفعل الجبان شروطاً، هي أن يكون شاباً جلداً أي صبوراً في مواطن الشدة، نسيبا في قومه ـ أي ذا نسب وحسب ـ وسيطاً ـ أي من أوسطهم وأشرفهم ـ فيهم، وإن الشريف لا يخون، ولا يفتر عن الذي يوكل إليه من أعمال بل يقوم بها ولا يفش سراً أبداً، ويتقلد سيفاً صارماً مجهزاً لمثل هذه المهمة الصعبة ..، ولا ريب أن أشخاصاً بمثل هذه المواصفات يجعلون نسبة النجاح في العملية شبه مؤكدة.. ألا يدل هذا على التخطيط المحكم لأعداء الله وأعداء دينه، تجاه قتل الدعاة ودعوتهم .. وهذا ما نراه في زماننا من تحالفات دولية لمحاربة الإسلام وأهله فيا حبذا لو كان أهل الحق على هذا المنوال من الإعداد والتخطيط لنجاح دعوتهم، فقد كان المتآمرون كثيرون والذين وكلت إليهم المهمة أربعين شاباً من أربعين بطناً (عائلة)، ليسوا واحداً أو أربعة أو عشرة ولم يعلم أحد بها أعدوه، لأنه إحكام لخطة ما بعده إحكام أما عن القائمين بها فإنهم أهل لها بجميع المقاييس البشرية، السرية والقوة والسمع والطاعة..

٤- التوقيت المناسب لتنفيذ العملية:

يعد من أبرز الإجراءات الأمنية والاحتياطات التي اتخذتها قريش لضمان تنفيذ العملية ونجاحها هو زمان العملية ، فمتى يكون توقيت هذه العملية للقيام بها؟ لقد جعلوا لها موعداً غايةً في الأهمية، هو بعد منتصف الليل بقليل ينقَضُّون عليه ليقتلوه ويستريحوا منه ومن دعوته، فموعد التنفيذ هو بُعيد منتصف الليل، وموعد تسللهم واحدا واحدا، حتى يصلوا إلى مكان تنفيذ العملية هو قبيل منتصف الليل حتى يصلوا هناك في الموعد المحدد لهم.

لماذا هذا الوقت؟؟؟ لأن هذا التوقيت هو موعد يكون فيه جميع الناس في سكون ونوم، والناس مستغرقة في النوم لا أحد يكون في الطرق، وبهذا يصلوا ويجتمعوا جميعاً ليفعلوا ما يريدون، ولا شك أن هذا الميعاد خاصة فيه من الجانب الأمني لتنفيذ العملية ما يجعلها ناجحة بنسبة كبيرة، فلا يخفى على أحد أن الليل غطاء أمني كبير لإخفاء أفراد المهمة، وربما تنعدم الحركة، فمَن كان خارج بيته يكون قد رجع إليه، ومَن كان في بيته يكون قد نام، ولا شك أن هذا مما يجعل اكتشاف المؤامرة ضعيفاً جداً..

٥- مكان تنفيذ العملية (الإغتيال):

ربما تنجح جميع الوسائل والإجراءات التي سبقت، ولكن أين ستنفذ العملية؟ أتكون في الطريق حتى إذا ما أخطأت ضربة من أحد أفرادها فيصرخ المضروب فيسارع الناس إلى مكان الصوت؟ وبهذا تكون فشلت الخطة بعد هذا العناء الكبير والجهد المبذول لها.. أمّ أن المكان يكون غير معروف لدى أفراد المهمة؟ وبهذا لا يستطيعون الوصول إلى ما يريدون؟ أو يُقال لهم متى تقابلونه فاضربوه

في أي مكان؟ فربما لا يجدوه هنا أو هناك أو أي احتمال آخر فتفسد الخطة.. أم أنهم قد أعدوا الزمان ولم يعدوا المكان الذي سيقابلونه فيه وينتظرونه عنده جميعهم؟ .. أم أنهم قد وضعوا أكثر من احتمال لوجوده في المكان فيفترقون على مجموعتين أو أكثر؟ فربما يقتلون واحداً غيره والمجموعة الأخرى تقتل خطأً أيضاً؟ وهكذا وتفشل الخطة أيضاً .. وغير هذا من الاحتمالات؟؟

كل هذا لم يحدث لأنهم أعدوا وأحكموا كل شئ حتى المكان، فإنهم ينتظرونه في مكان لا يتعداه، وهو البيت الذي يبيت فيه فإن خرج أو دخل فإنه لا يفلت منهم، وهذا ما أعدوه وخططوا له، ولولا عناية الله له لنجحت عمليتهم هذه ولكن لن يكون في الكون إلا ما يريد سبحانه وتعالى.. فهذا يسير جداً مما أعده أعداء الله من المخططات والاحتياطات والإجراءات الأمنية حتى لا تفشل عمليتهم التي بها قد ينتصرون على الدعوة بقتل صاحبها وقائدها محمد (ﷺ)، لكن حسبنا أن نعرف مدي التخطيط من الأعداء، ومدى عناية الله لدعوته والسائرين فيها.

ثانياً: رد الفعل من صاحب الدعوة:

الترتيبات الوقائية وتدخل العناية الإلهية:

على الرغم من كل هذه الاحتياطات والاجراءات الأمنية العالية، فالله سبحانه لا يخفي عليه شئ في السماوات والأرض، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد، والله لا يريد أن تموت هذه الدعوة، فلا يموت صاحبها حتى يؤدي ما عليه وما أراده الله تعالى منه، لهذا فقد وفق الله عز وجل رسوله لإفشال خطة قريش المحكمة، وتفويت الفرصة على المشركين أن ينالوا شراً منه، وذلك لأنه (ﷺ) يمثل قوة

وقمة الإيمان والتقوىٰ والورع، إلىٰ جانب أخذه بالأسباب الممكنة له، ثم حسمت العناية الإلهية الأمر في صالح الدعوة والرسول، ولا شك لأن للإيمان أثر بالغ في تحقيق النتائج وهذا ما يجب علىٰ المسلمين أن يضعوه نصب أعينهم حيث أن المدد ينزل من عند الله وهو ما تستخدمه الجماعة المسلمة في عدتها وعتادها، ومع كل ما فعله كفار مكة إلّاأن الله لا يترك عباده طالما أخذوا بالأسباب مع حسن التوكل علىٰ الله، فجاء الوحي من السماء يخبره بتلك المؤامرة وهذا ما حدث، ولكن لماذا تدخلت في هذا الوقت بالذات ؟ ولماذا لم يخبر النبي بالخبر قبلها...؟

أقول أولاً وأخيراً إن هذا تشريع لنا في شخص الرسول حتىٰ نأخذ بالأسباب، فالعناية الإلهية تدخلت بعد أن أخذ النبي وأصحابه بكل الأسباب الأرضية ولم يتركوا أي شئ من الأسباب إلا وقد أخذوا به وأعدوا له العدة، وقد توكلوا علىٰ الله ولهذا جاءهم الخبر بما يريد المشركون فعله بهم في الوقت الحرج، ولهذا لم يخبر الله نبيه قبل الموعد حتىٰ يستفرغ جهده كله في الأخذ بالأسباب، ويعلم تمام العلم بأنه قد انقطعت الأسباب كلها فيتصل قلباً وقالباً بمسبب الأسباب .. فإذا تركنا نحن المسلمين الأخذ بالأسباب، ولم نُعِد ما نستطيع من قوة ثم انتظرنا أن تتدخل عناية الله فهذا مخالف تماماً للمنهج الإسلامي الذي يأمر بإعداد العدة، وإعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ....، واستفراغ الطاقة والجهد هو السبب لتدخل العناية الإلهية وحصول النصر من الله تعالىٰ.

فالله قد أمرنا بالإعداد وبذل الوسع فقط، والباقي كله علىٰ الله والإعداد في حد ذاته .. ليس نصراً وإنما هو أخذ بأسباب النصر، ولرهبة العدو فقط قال تعالىٰ

"وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم" فحتى تتدخل عناية الله لابد من الأخذ بالأسباب والتوكل على الله تعالى.

ثالثاً: من جوانب الحذر والحماية في الإعداد للهجرة:

صَاحَبَ الإعداد للهجرة النبوية إلى المدينة جوانب عديدة وإجراءات أمنية مشددة من الجانب المسلم تجاه الأعداء المشركين وقد كان هذا على أعلى مستوى من الحس الأمني والحيطة والحذر والأخذ بالأسباب الممكنة، وهذا شأن أصحاب الدعوات الحقة عندما يروا من أهل الباطل عناداً.

وهذه الاحتياطات الأمنية قد قام بها حبيبنا (ﷺ) وبعضها قام به سيدنا أبو بكر، ولم يعدم كل من كان له دور في الهجرة من إجراءات اتخذها للحفاظ على هذه الدعوة وعلى صاحبها (ﷺ) وهذا ما سنعرض له في الصفحات القادمة بإذن الله تعالى.

أولاً: دروس من الحذر والحيطة فيما قام به النبي.

لقد أَوْلَى النبي أمر الهجرة إلى المدينة اهتماماً بالغاً، فما لبث أن جاءه الوحي من الله بأن يهاجر إلى المدينة حفاظاً عليه وعلى دعوته، وذلك تفادياً لعملية سيقوم بها المشركون، حتى باشر من أول لحظة بنفسه تنفيذ العمل الوقائي الدفاعي تجاه ما سيقوم به المشركين، بدقة وإحكام وتأمين غير معهود عند المشركين ، وهذا ما سيظهر بوضوح في استعراضنا للجوانب التي صاحبت مراحل إعداده (ﷺ) للهجرة ومن أبرزها ما يلي:

١- التوقيت المناسب لتوصيل المعلومة

لما جاء الأمر للنبي ﴿ﷺ﴾ بالهجرة إلى المدينة هل يهاجر وحده أم أنه سيتخذ له صاحبا يهاجر معه ويكون رفيقا له في الطريق؟ وَمَن أَوْلَى الناس بهذه الصحبة المباركة؟ وكيف يخبره النبي بالخبر؟ هذه أسئلة تدور في مثل هذا الموقف أجاب النبي عنها بعمله، حتى يكون هذا تشريعا للأمة عامة من بعده، ولأصحاب الدعوات خاصة، فماذا عمل؟

قام النبي ﴿ﷺ﴾ أولاً بتبليغ صديقه الوفي الأمين أبي بكر بأمر الهجرة ليكون رفيقاً له فيها، كيف أخبره بذلك؟ اختار ﴿ﷺ﴾ وقت الظهيرة وهي ساعة لم يكن النبي قد اعتاد المجئ فيها بيت أبي بكر، ولهذا يروى البخاري عن عائشة رضى الله عنها :"قالت: بينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال: قائل لأبي بكر: هذا رسول الله متقنعا في ساعة لم يكن يأتينا فيها....". فلماذا؟ لأن هذه الساعة تقل أو تكاد تنعدم الحركة فيها، وخاصة في شوارع مكة وجبالها شديدة الحرارة، فيندر بالتالي الرقيب، وبهذا يضمن النبي أن من الصعوبة على قيادات قريش وعيونهم أن ترصده، وهذا مما يجعل أمر اللقاء أقرب إلى الخفاء عن الجميع، ومن المعروف أن هذا التحرك كان بعد إخبار سيدنا جبريل للنبي بالمؤامرة عليه بقتله، وهذا يطرح احتمال أن تكون قيادة الكفر تراقب عن قرب جميع تحركات المصطفى ﴿ﷺ﴾ حتى لا يخرج وهم يشعرون به ... ولهذا فلابد من أن يُفَوِّت النبي الفرصة على عيون قريش التي تراقبه ، فجاء في هذا الوقت الذي لم يعتد الحضور فيه لبيت أبي بكر، إذ كان معروفاً أنه ﴿ﷺ﴾ كان يأتي بيت أبي بكر في

طرفي النهار، فإذا افترضنا أن هناك من يراقب منزل أبي بكر، فإنه غالباً ما يكون في هذين الوقتين دون سواهما (أي طرفي النهار).

٢- ومن الحس الأمني إخفاءه شخصيته في تنفيذ المهمة

يكون من الأهمية بمكان على الشخص الذي يريد تنفيذ مهمة ما، أن يتستر ويخفي شخصيته، فمن الطبيعي أن يخفي إنسان معالم شخصيته أثناء تنفيذ المهمات الصعبة والحساسة حتى لا يثير الريبة والشك لدى الأعداء، وبخاصة إذا كان الصراع محتدماً بينه وبين أعدائه، لأنه فور ما يعلم الأعداء بتحركات الخصم، فإنهم سيراقبونه ويتابعونه حتى يتبين لهم ماذا ينوي الخصم فعله، لهذا جاء ﴿ﷺ﴾ لما أراد أن يذهب إلى بيت أبي بكر متلثماً مقنعا بغطاء لرأسه ووجهه .. ولماذا ؟ لأن التلثم يقلل من إمكانية التعرف على وجه الشخص المتلثم، وبالتالي فلا يُعْرَف غالباً لدى الأعداء وهذا ما فعله ﴿ﷺ﴾ حتى يخفي شخصيته عن زعماء قريش .. (كما ذكر الإمام البيهقي من دلائل النبوة.. ج ٢) في قصة تخفيه﴿ﷺ﴾.

٣- الإحتياط التام قبل الإدلاء بأي معلومة

ذكر كتاب التاريخ والسير أن النبي ﴿ﷺ﴾ ذهب في الهاجرة ـ حين يستريح الناس في بيوتهم ـ إلى أبي بكر رضي الله عنه ليبرم معه مراحل الهجرة، قالت عائشة رضي الله عنها: بينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﴿ﷺ﴾ متقنعًا، في ساعة لم يكن يأتينا فيها فقال أبو بكر: فداءٌ له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر. قالت: فجاء رسول الله ﴿ﷺ﴾.، فاستأذن،فأذن له فدخل، فقال النبي ﴿ﷺ﴾ لأبي بكر وقبل أن يتكلم بكلمة السلام عليكم : [أخرج مَنٌ عندك]. فقال أبو بكر: إنما هم أهلك، بأبي أنت يا

رسول الله . قال: [فأني قد أذن لى في الخروج]، فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله ؟ قال (ﷺ) : [نعم]. ثم أبرم معه خطة الهجرة، ورجع إلى بيته ينتظر مجيء الليل. وقد استمر في أعماله اليومية حسب المعتاد حتى لا يشعر أحد بأنه يستعد للهجرة، أو لأي أمر آخر اتقاء مما قررته قريش..، ومن الحسّ الأمني عنده (ﷺ) أنه كان أو ماتكلم به أن قال أخرج عني مَن عندك، على الرغم من أنهم أهله(ﷺ) كما أنهم أولاد أوفى وأعز صاحب له وهو أبو بكر، لكنه (ﷺ) لا يريد أن يترك ثغرة ولو صغيرة تفسد عليه خطته، وأيضاً يشَرع لنا سنة الأخذ بالأسباب في كل شئ.

أيضاً لم يقل النبي (ﷺ) لأبي بكر المكان الذي أُمر بالهجرة إليه لكنه قال له قد أُذن لي بالهجرة فقط ولم يُحدد له أين؟ ولا متى؟ ولا كيف؟ في هذا الوقت حتى لا يسمع مَن في بيت أبي بكر، ثم أخذ يُدبر معه أمر الهجرة. أيضاً أخذ (ﷺ) يُباشر أعماله اليومية حسب ما هو معتادٌ عليه، وهذا يدل على بلوغ القمة في الأخذ بأسباب الحيطة والحذر.

٤- من الدروس المهمة التمويه والتعمية(نوم عليّ مكان النبي)

قال ابن هشام وغيره من كتاب السيرة،" .... وقال النبي لعلي رضى الله عنه "يا على نم على فراشي وتسجَّى ببردي هذا الحضرمي الأخضر فتنام فيه فإنه لن يُخلص إليك شئ تكرهه منهم .. ولك الجنة " وكان النبي (ﷺ) ينام في برده ذلك إذا نام.أيّ حكمة هذه وأي حسٍّ أمنيٍّ عنده(ﷺ) لقد كان توجيهه لعلي بن أبي طالب أن ينام مكانه في فراشه وتسجيته ببردته تصرفاً في غاية الحكمة وغاية في

الحذر والتمويه لأعداءه، فهذا التمويه وهذا التصرف السليم تقتضيه الظروف وملابسات الموقف. فهاهم المشركين واقفين أمام الباب ينتظرون خروجه (ﷺ) حتى الصباح وكان قد خرج من بين أيديهم ووصل إلى المكان الذي يُريد الوصول إليه - الغار- قبل أن يعرفوا هل النبي موجود أم لا؟ لأنهم كلما نظروا من ثقب الباب وجدوا واحداً نائم مكان النبي وهم متيقنون أن النائم هو النبي(ﷺ) على الرغم من قدوم أحد المشركين عليهم وقوله لهم (خيبكم الله ماذا تنتظرون هنا إن محمدا قد خرج من بين أيديكم، ولم يترك أحداً منكم إلّا وقد وضع على رأسه التراب) فنظروا فإذا النائم مكان النبي ما زال نائماً لذلك هم لا يصدقون ما يقال لهم، وهذا من حيطة النبي وأخذه بأسباب النجاة.

٥- ومن الحس الأمني: اختيار الدليل الماهر لهذه المهمة

كان من مستلزمات الإعداد للهجرة النبوية الخبرة الكافية بالطريق، من حيث القِصَر والطول، والبعد عن المسالك المعروفة والمألوفة لدى الأعداء، وهذا مما لابد منه لهذه المهمة حتى يكون الركب بعيداً عن العيون.

فماذا فعل النبي لذلك؟ استأجر النبي(ﷺ) دليلاً ماهراً عالماً بأأمن الطرق وأقصرها بين مكة والمدينة، وهو عبد الله بن أريقط الديلمي، وكان على دين قريش وذلك حتى لا يضل الطريق، وحتى لا يسلك طريقاً معروفاً عند الأعداء مما يجعلها عرضة لمطاردات قريش ومن ثم الإمساك بهم...، ولنا وقفة مع عبدالله بن أريقط المشرك الذي قاد الركب الميمون إلى المدينة، فمن التشريع المحمدي لنا بين أن العبرة هنا بالتعاون مع المشركين، وتسخيرهم للدعوة يكون

محدوداً بمقدار ما إذا أُمِن جانبهم، وعلى وفق مستوى عدائهم لدعوة الإسلام، وعليه فيجوز للمسلم التعاون مع غير المسلم بضوابط وحدود يحددها الشرع ويعرفها العلماء وهم الذين يُسألون عنها بل ويفتون فيها حسب ما تقتضيه المصلحة وتوافق مع الشرع. فإن المنطق الظاهري يقتضي عدم اختيار النبي ﴿ﷺ﴾ عبدالله بن أريقط دليلاً لأخطر هجرة في تاريخ الدعوة لأنه مشرك ولكن كان تقدير النبي لخصمه هذا أنه الأمين الصادق، وأنه فيم بدا للنبي لن يبوح هذا الرجل بهذا السر، لذلك جعله النبي دليلاً له، وأسند إليه هذه المهمة الصعبة، وهذا ما حدث فعلاً فلم يخبر قريش بالأمر فعلاً، وقد صدقت فيه فراسة النبي فها هو لم يقع في جانب الإغراء المادي الضخم الذي قدمته قريش لمن يدل على محمد، ولا حتى خان الأمانة الموكلة إليه. وإن دل هذا فإنما يدل على أمرين هامين هما:

١- معرفة النبي لمعادن الناس وطبعائهم وأنسابهم فمن الناس من لا تغريه المادة ولا يطغى عليه المال حتى ينسيه مروءته وشهامته ورجولته، وهذامن جانب النبي حيث دراسته للناس.

٢- يدل على نقاء معدنه وصفاء نفسه، وعلى كرامته، ورجولته، التي تأبي عليه فعل مثل هذا الموقف الخائن الغادر مع قوم أمنوا جانبه، فلم يخرج من الرجل المشرك أي خبر لقريش.

وهذا درس مهم للدعاة أن يجعلوا هذه القصة نصب أعينهم:

[لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَاليَوْمَ الآَخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا] {الأحزاب:٢١}

٦- كتمان النبي خبر الهجرة عن كل إنسان

يكون من الضرورة بمكان لإنجاح أي مهمة حساسة، وخاصة الهجرة التي هي تغيير لمجرى التاريخ، أن يكون خبرها غير معروف، وأن يكون طَيّ الكتمان، لأن ذيوع خبرها يؤدي إلى اكتشافها، وبالتالي فشلها، وكل ما كان الأمر محصوراً في عدد قليل جداً، كلما كانت فرصة تسريبه ضئيلة ونادرة، وقديماً قيل "السر إذا تعدى اثنين فشا" لهذا وجدناه ﷺ كتم أمر الهجرة حتى عن المقربين إليه من أصحابه الذين لم يكن لهم دور في موضوع الهجرة، ولم يعلم بأمر الهجرة إلا قلة قليلة من الصحابة الموكلة لهم أعمال ولهم دور فيها، قال: ابن إسحاق "ولم يعلم أحد فيما بلغني بخروج النبي حيث خرج إلا علي وأبو بكر وآل أبي بكر" ومن الملاحظ المعروف أن الذين عرفوا أمرها كان لهم أدوار معينة يقومون بها، ولولا ذلك لما أخبرهم النبي بأمر الهجرة .

هذا جانب من جوانب الحيطة والحذر والحس الأمني الذي قام به ﷺ نستفيد منه في حاضرنا ومستقبلنا، وهذا من أهم فوائد قراءة السيرة والتاريخ الإسلامي.

فإذا ما ذهبنا إلى صاحبه ورفيق هجرته أبي بكر فسنجد مثل هذا عند أبي بكر، فهو الذي تربى على يد النبي ﷺ هذه التربية الصحيحة بما فيها الجانب الأمني لنجاح الدعوة ونجاة أفرادها.

فمع لمحات من الحسّ الأمني والحيطة والحذر عند أبي بكر رضى الله عنه حتى يتعلم المسلم من هؤلاء الرجال، ونعلم بأن النبي تعب وصحابته أيضاً وهم ليسوا بأنبياء ولا معصومين تعبوا أيضاً حتى يصل إلينا هذا الدين كما وصل، وحتى يتسنّى لنا الاقتداء بهم فيما قاموا به.

جوانب الحذر والحماية
فيما قام به أبو بكر في الهجرة
والدروس المستفادة

لقد قام أبو بكر بدور بارز وكبير في الهجرة وشارك رسول الله (ﷺ) في الإعداد لها ... وقد صاحب هذا الإعداد عدة جوانب في الحيطة والحذر والحماية، ومن أبرز هذه الجوانب ما يلي:

أولاً تهيئة وسيلة الهجرة[1] :

لا شك أن رحلة طويلة كرحلة الهجرة من مكة إلى المدينة إنما تحتاج إلى وسيلة مُعَدّة من قبل ومهيأة لهذا الأمر، وهذه الوسيلة لابد أن تناسب طبيعة الأرض والمناخ الذي تعيش فيه، وهذا ما فعله أبو بكر رضى الله عنه لما علم إنه سيهاجر فيما بعد، حبس نفسه على رسول الله (ﷺ) لصحبته، ثم علف راحلتين كانتا عنده وجعل أكلهما ورق السمر عنده أربعة أشهر[2] .

وذلك لأن الإبل تعد من أنسب الوسائل للسفر في الصحراء القاحلة في هذا العصر، فهي حيوان صحراوي عنده القدرة الفائقة على تحمل طبيعة الصحراء القاسية بما أعطاه الله من قوة تحمل وصبر وجَلَد، وهذه طاقة أودعها الله في الجمل، فالجمل يصبر أياما لا يشرب وهذا ضروري جداً لمثل هذه الرحلة

[1] من كتاب السرة النبيوة – جوانب الحذر والحماية – التربية الجهادية في السيرة النبوية ج٢.

[2] السيرة النبوية للصلابي ج١ ص٤٥٠ وبعدها.

الطويلة والشاقّة، إذ هي تمر عبر طرق غير مأهولة يندر فيها الماء، كما أن السير في رمال الصحراء لا يناسبها إلّا خف البعير فهي مسطحة لا تغوص في الرمال كما أنها سريعة جداً في الرمال وهي ما تتطلبه الرحلة الشاقة مثل هذه، فالمسافة كبيرة إلى قريب من خمسمائة كيلو متر، كما أن طريقا مهجوراً كالصحراء التي يسيرون فيها لأنها غير معروفة عند الكثير والرحلة الطويلة إنما تحتاج بلا شك إلى نوع من الإبل يمتاز بالقوة والسرعة، ولذلك فإن أبا بكر كان يعلفها علفا خاصاً من نوع خاص، هو ورق السمر ولمدة أربعة أشهر، وهو غذاء ممتاز للإبل يمدها بالطاقة الكافية لتحمل السفر لمسافات بعيدة وطويلة، دون أن يصيبها الجهد والتعب غالباً..

إذن فقد أعد أبو بكر للأمر عدته، واتخذ للسفر أهبته، وهذا فيه تنبيه للمسلمين عامة وللدعاة خاصة على امتداد الزمان أن يأخذوا بالأسباب والتفكير والتدبير المناسب لكل حالة تتطلبها أي مهمة، حتى لا تفشل مهمتهم فيعدون لكل أمر ما يناسبه من التخطيط سواء أكان ذلك مما يتصل بالزمان أو المكان أو كليهما، وهذا ما ذَكّرنا بفعله أبو بكر[1].

ثانياً:التموين أثناء الرحلة. أبو بكر وأسرته الكريمة:

هذه الرحلة الطويلة في شعاب مكة وصحراء المدينة، لابد لها من تأمين الزاد من طعام وشراب، ولأن الوقت شديد الحرارة ويحتاج إلى شراب كثير، وذلك أثناء

[1] السيرة النبوية قراءة الجوانب الحذر والحماية إبراهيم على سمر بتصرف ص ١٤٥.

الاختباء في الغار وأثناء الرحلة إلى المدينة أيضاً ، وتلك مهمة كبيرة ، وكان سيدنا ابو بكر وأهل بيته رضى الله عن الجميع على مستوى الحدث، إذ تقول السيدة عائشة رضى الله عنها "....فجهزناهما أحث ـ أسرع ـ الجهاز ووضعنا لهما في سفرة وجراب فقطعت أسماء بنت أبي بكر من نطاقها فأربطت به الجراب وكانت أسماء تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما" ولا يخفي على أحد إغفال هذا الجانب المهم بالنسبة للهجرة، وهو تأمين الزاد فعدم تأمينه يدعو إلى الجوع والعطش الأمر الذي يفضي إلى الهلاك، كما أن الرحلة تحتاج إلى قوة تحمل وصبر ولياقة عالية، وهذا ما لا يتحقق مع الجوع فالأكل والشرب يقويان صاحبهما على المواصلة للسير، كما أن تأمين الزاد يجعلهم لا يلتمسونه أثناء الطريق، الأمر الذي بالطبع سيؤخر سيرهم أو يعرضهم لخطر اكتشاف أمرهم فكان الواجب عليهم أن يتفادوا هذه الاحتمالات التي تؤدي إلى الفشل، لذا قام أبو بكر بتأمين زادهم لرحلتهم الشاقة ومن يثقون فيهم، وَمَن الذين يثق فيهم أبو بكر من غير أسرته المقربين له وهم أهل بيته فقد سخرهم أبو بكر لأمر الهجرة، فلا شك أن رحلة كهذه تحتاج لأعوان كثيرين وعيون مأمونة الجانب حتى تتم بصورة محكمة دقيقة، وهذا الأمر يتطلب التأني والحيطة في اختيار أمثال هؤلاء من أسرته فأي إخفاق في اختيارهم يعتبر بالتالي أخفاقاً في الأمر كله، .. وبالنسبة للخبرة التامة من أبي بكر لأهل بيته ، فإنه قد وقع اختياره رضى الله عنه على أفراد أسرته للقيام بهذه الأدوار الثقيلة والمتنوعة فكل منهم له مهمة غير الآخر فمثلا إعداد الطعام عائشة، وتوصيله للغار أسماء، إخفاء الأثر عامر بن فهيرة، وتَسمّع الأخبار من

العدو ونقلها إلى النبي (ﷺ) وصاحبه أولاً بأول عبد الرحمن بن أبي بكر...، فقد باتت أسرة أبي بكر كلها تعمل في غير كلل أو ملل من أجل إنجاح الخطة المرسومة للهجرة، ولقد قام كل واحد بالدور المنوط به خير قيام، فرضى الله عنهم جميعاً[1].

مع ركب الهجرة من الدار حتى الغار.

كانت بداية الهجرة من بيت الصاحب والصديق أبي بكر رضى عنه، ومن ثم فإن النبي (ﷺ) كان قد أعد للأمر عدته، فكان عليه بعد الخروج من البيت أن يتوجه إلى مكان مناسب هو الغار، ومن البداية يظهر لمن يتتبع وقائع الهجرة الاحتياط الأمني والتخطيط الدقيق والتنفيذ المحكم المتقن، مما يجعل هذه الرحلة تنطوي على جوانب ودروس دعوية وأمنية كانت عند القائد الحكيم الذي يخاف على دعوته، لا على نفسه.

أولاً: الدرس المستفاد من وقت الخروج ومكانه:

غادر (ﷺ) بيته في ليلة سبع وعشرين من شهر صفر، كما ذكر ابن هشام والمباركفوري، وهي الليلة التي انتظره المشركون ليقضوا عليه بالفتيان الذين رصدوهم أمام بابه ثم خرج من بينهم وألقى على رؤوسهم التراب فقد خرج ليلا من داره، أما عن دار أبي بكر فلم يمكث عنده حتى الصباح، بل غادرها أيضاً بسرعة، فمن أين خرج النبي وصاحبه؟ خرج الصاحبان من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته وهي مكان للخروج من الخلف، ثم خرج من مكة على عَجَل، وقبل أن

---

[1] المنهج الحركي ، السيرة النبوية الحذر والحماية بتصرف ص ١٤٧ ، السيرة النبوية للصلابي وقد استفدت منها كثيرا في هذا الجانب.

يطلع الفجر، وهذا ما يشير للتخطيط الدقيق واختيار الوقت المناسب، فكان ليلاً، والمكان المناسب فكان الباب الخلفي للبيت، فالليل كما هو معلوم ستار آمن يمكن التحرك فيه بكثير من الاطمئنان، مما يقلل من احتمال الرؤية لهما، مع العلم بأن دار أبي بكر لم تتركز عليها عيون قريش فجميع قيادات قريش وعيونها ترصد بيت النبي (ﷺ) وفي هذا الوقت بالذات كما هو معلوم لدى الجميع أن الفتيان الذين يريدون قتل النبي كانوا مجتمعين حول بيته معتقدين أنه بداخله، فكل تفكيرهم وتدبيرهم كان مركّزا على هذا المكان دون سواه، مما سهل مهمة الخروج لركب الهجرة في مثل هذا الوقت دون أن تعترضه عيون قريش التي باتت ترقب عليّاً ظنا منهم أنه النبي ، وكون هذا التحرك تم قبل الفجر ربما كان على تقدير أن قريشا لن تكتشف حقيقة الأمر إلا بعد طلوع الفجر، وبعد قيام عليٍّ من مكانه الذي نام فيه ـ فراش النبي ـ، وهذا ما حدث فعلا، فقد أخبر ابن إسحاق أنه قال.. (فلم يبرحوا ـ أي المشركين ـ حتى أصبحوا) فقام عليّ رضى الله عنه من الفراش ورآه الكفار...، وبالتالي فإن الفرصة تكون قد فاتت على قريش، وأن يكون النبي وصاحبه قد وصلا إلى الغار بسلام، ودون أن يَعرف أحد مكانهما الذي لجئوا إليه، فيفسد الخطة عليهم ويصل إليهم الكفار..[1].

أما عن خروجهم من بيت أبي بكر في نفس الليلة ومن الباب الخلفي غير المعروف فهو من باب الاحتياط الأمني، إذ هناك احتمال ولو قليلا أن يراقب بيت

[1] انظر السيرة النبوية جوانب الحذر والحماية صـ ١٤٨ ، السيرة النبوية لابن هشام جـ١ ص٣٨٤ الرحيق المختوم ص ١٩٤.

أبي بكر، نعم المراقبة لن تكن كبيت النبي وبخاصة في هذا الوقت من الليل، لكن أبا بكر أيضا معروف أنه هو الذي سيهاجر معه وقد أخبره النبي قبلها في وقت الظهيرة، ومن الممكن أن يأتي المشركون ليستفسروا عنهما، فكان البيت بيت أبي بكر والليلة نفس الليلة.

وأما عن خروجهم من الباب الخلفي:

فهو أيضا دليل قاطع على حكمته ﷺ ودقته في التخطيط، ودليل على أن هذا الرسول قائد عسكري ماهر، فمن الاحتياط الأمني ألا نترك الثغرة التي يتطرق إليها احتمال أن يراقب بيت أبي بكر من الكفار أحد لما بينهما من العلاقات الحميمة ـ بين أبي بكر والنبي ـ والصلات الوثيقة والروابط الدينية، التي يعرفها عنهما المشركون، فإذا افترضنا أن هناك عيونا تراقب البيت الذي سيخرجان منه سواء من مكان قريب أو بيت مجاور لبيت أبي بكر فإنها تكون لباب البيت الأمامي المعروف لدى الجميع، فهو الذي يُرصد من خلاله الداخلون والخارجون، ولهذا لما اراد النبي الخروج خرج من مخرج سِرّيّ غير معروف بعيد عن المراقبة غالبا، وهذا مراعاةً من النبي للمحافظة الدائمة على السرية، ووضع الاحتمالات الكثيرة احتياطا لتخطيط العدو ومراقبته – المسمّى الآن بالخطط البديلة أوإدارة الأزمات – فهل بعد هذا التخطيط تخطيط؟ وبعد هذه الحكمة من حكمة؟ وهذه السرية من سرية؟ وإن دل هذا فإنما يدل على عبقريته ﷺ وحسن تدبيره

وتشريعه للدعاة من بعده أن يفعلوا مع دعوتهم مثل ما فعل هو (ﷺ) إذا لزم الأمر واقتضت المصلحة[1].

ثانياً الخروج من بيت أبي بكر إلى الغار:

ذكر ابن الجوزي في الوفا، والسيوطي في تفسيره، وابن هشام في السيرة، وغيرهم من كتاب السيرة أن النبي (ﷺ) لما أراد الخروج من دار أبي بكر خرجا من الباب الخلفي للبيت، وخرجا سيراً على الأقدام، وأنه مشى طوال الليلة على أطراف أصابعه ، لئلا يظهر أثر رجليه على الأرض حتى حفيت قدماه ، فإنه لم يصل الغار حتى تقطرت قدماه دما، حتى كان أبو بكر يحمله أحياناً لما رأى قدماه الشريفتان تقطران دماً، وجعل يشتد به حتى أتى به الغار فأنزله... فرضى الله عن أبي بكر الذي تحمل في الهجرة الكثير من الأعباء، ولا يخفي على أي عاقل ما في هذا العمل من الاعتبارات الأمنية الظاهرة، فسيرهما على الأقدام مع وجود الركائب وهي جهازة ومستعدة ووضعها أمام بيت أبي بكر صباح الليلة باكرا حتى إذا ما نظر المراقبون للبيت يروا الركائب فتهدأ ثائرتهم، وفي هذا دلالات واضحة على الحس الأمني عند النبي .

ثالثاً التمويه في خروجهما من الغار ولماذا هذا الغار بالذات؟

يقع الطريق المؤدي إلى المدينة شمال مكة المكرمة وهنا يبدو واضحا جليا دقة التخطيط والحكمة في التنفيذ والاحتياط الأمني غير المسبوق بقيادة عسكرية سياسية مثل النبي (ﷺ) يقول المباركفوري في الرحيق المختوم: "ولما كان النبي

---

[1] الرحيق المختوم لصفي الرحمن المبارك كفوري صـ ١٩٤ جوانب الحذر والحماية في السيرة النبوية صـ ١٥٢ وما بعدها باختصار وتصرف.

يعلم أن قريشاً ستَجِدّ في طلبه ولن تتركه يمشى بسلام في طريق الهجرة، وأن الطريق المألوف المعروف إلى المدينة وهو المتجه شمالا فما كان منه إلا أن سلك الطريق الذي يضاد هذا الطريق تماما، فسار في الطريق الواقع جنوب مكة والمتجه نحو اليمن، سلكه حوالي خمسة أميال حتى بلغ جبلاً يعرف بجبل ثور "أ.هـ بتصرف. حتى وصل النبي وصاحبه إلى الغار غار ثور وهو عبارة عن كهف بأعلى جبل ثور وهو جبل عالٍ، له قمتين على بعد حوالي خمسة أميال جنوب مكة في الطريق المنحدر إلى اليمن يمشى السائر إليه وقتاً طويلاً في طريق لين كثيف الرمال ثم يصعد فيه صعوداً هينا حتى يصل قمته القريبة، فإذا وصل إليها يمشى قليلا في طريق ممهد قليلا كأنه برزخ، ثم يأخذ في الصعود إلى القمة الأخرى في مرقىً وعر شديد الوعورة شديد الانزلاق، كثير المضايق والصخور فلا يزال يبذل الساعي إليه من جهده الشديد ووقته وقوته حتى يصل، ولابد للسائر من خبرة كبيرة ومهارة في السير، ثم يصل إلى الغار عند القمة الأخرى، مع أن الطريق المؤدية إليه كلها حصى صغيرة وحجارة محدبة وكأنها شوك، وهذا ما سبب المتاعب للنبي ﷺ حتى إذا وصل إليه كانت قدماه الشريفتين تقطران دما، فكان أبو بكر يبكي لما يراه في النبي حتى وصلا إلى الغار فوجداه كهفا ضيقا لا تزيد مساحته على مترين ونصف المتر، وهو تحت صخرة ضخمة كبيرة، تغشى هذه الصخرة جوفه ومكان دخوله بظلمة خفيفة نهاراً، ولهذا الغار فتحتان فتحة

ضيقة في جانب منه، وأخرى في جانب آخر ضيقة جداً، وهي التي يستطيع الداخل منها أن يدخل [1] .

ولننظر إلى التعب والمشقة التي وجدها النبي وصاحبه في سيرهما إلى هذا المكان الذي تتوافر فيه صفات أمنية على الذي بداخله والمختبئ فيه ما لا تتوافر في غيره، فالحس الأمني عند النبي والمهارة العسكرية جعله يتخذه مختبأً دون غيره فهو:

أولاً: إلى اليمن وليس إلى المدينة.

ثانياً: في جبلٍ عالٍ ذا قمتين عاليتين.

وهذا المخبأ في قمة منه، ولن تصل إليه حتى تصعد قمة أخرى مما يجعله ليس كل من يريده يصل إليه، وغير هذا من الأسباب التي تجعل النبي (ﷺ) يجعل هذا المكان هو مكانه في هذا الوقت دون غيره، وحتى نعرف أن الهجرة إنما كانت كلها متاعب وصعوبات، وقد اختار النبي هذه المتاعب للحفاظ على الدعوة وأفرادها، مما يدل على أن الدعوة هي أهم من أفرادها، بل وحتى من قيادتها، فالدعوة فوق الجميع والكل يعمل لها كما قال: "الدعوة نحن بها وهي بغيرنا " وهذا درس لجميع المسلمين عامة أن دعوتهم كلها تضحيات ومتاعب وصعاب فهذا هو النبي وهو أحب الخلق إلى الله وأفضل مخلوقات الله، فعل هذا الفعل حتى وصل إلى هذا المكان ليختبئ فيه وهو لا يفتر عن الأخذ بالأسباب.

رابعا: الاحتياطات الأمنية أثناء الإقامة بالغار

---

[1] انظر صورة من حياة الرسول في مكة صـ ٢٤٠ وما بعدها والسيرة النبوية لابن هشام صـ٣٠٢ جـ١.

قد تخللت إقامة النبي (ﷺ) وصاحبه بالغار بعض من الاحتياطات الأمنية ومن أهمها:

١ – تدخل العناية الإلهية بعد انقطاع الأسباب الأرضية:

على الرغم من هذه الجهود المُضنية الشاقة في الأخذ بالأسباب للاحتياط الأمني والاختفاء عن العيون التي ترصده من قريش، والسرّية في السير، إلا أن قيادات قريش استطاعت أن تصل إلى مكان الغار، وذلك رغم ما فعله النبي، عن طريق تتبع الأثر أو عن طريق المسح الشامل لجميع جبال مكة، أو عن طريق الإغراءات والحوافز التي جعلوها لمن يدل عليه هو وصاحبه، وسواء هذا أو ذاك فقد كانت قريش قاب قوسين أو أدني من بغيتها، وهنا تدخلت العناية الإلهية لصالح الرسول وصاحبه رغم أنه كان مع المشركين رجل ماهر بمعرفة الأثر فاقتفى الأثر حتى وصل إلى الغار وقال: هذه قدم أبو بكر وهذه قدم محمد "ووالله لقد انقطع الأثر إلى باب الغار وما أظن أنهما برحا هذا المكان إلا أن يكونا صعدا إلى السماء أو نزلا في الأرض.." هذا الرجل يقال له علقمة بن مكرز بن هلال الخزاعي كما روى ذلك البلازري في التاريخ. ولكن عناية الله كانت أكبر من ذلك.

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

فقد أعمي الله أبصارهم عن أن يصلوا إليه، وذلك لأخذ النبي (ﷺ) بجميع الأسباب الأرضية فلابد وأن تتدخل عناية الله الآن، وفعلاً قد تدخلت ونجا النبي وصاحبه من الكفار، بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدني منهما، ورجع

المشركون وهم يجرون أذيال الخيبة والعار، بعد أن ردتهم عناية الله تعالىٰ عن صفيه ومصطفاه ﴿ﷺ﴾ وفي هذا درس بليغ للمسلمين أنه حين يبلغ الجهد البشرىٰ مداه المطلوب، وحين تستنفد الطاقة البشرية كل ما لديها، وحين تنقطع الأسباب ويعلم الإنسان أنه لا مفر من الله إلا إليه، ولم يعد أمامه أي باب يطرقه غير باب الله تعالىٰ ، فإن الله تعالىٰ سيكون معه، ويرحم عبده ويحفظه من أعداءه.

٢- مما احتاط به النبي أثناء إقامته بالغار.. التجسس ورصد تحركات الأعداء وهو في مكانه.

ومن الأمور المسلّم بها عسكريا أنه كلما كانت القيادة أعلم بواقع وتخطيط العدو وأدرىٰ بأسراره ولها في صفوفه من يستطيع أن ينقل لها الأخبار والمخططات، فإنها تُعِد العُدّة لمواجهته تبعا لهذه الأخبار التي لديها، وهذا يكون أنجح وأحرىٰ في اتخاذ الأساليب الناجحة ضد الأعداء وهنا أمور:

- معرفة القيادة بأفراد الجنود وطبائعهم وقدراتهم:

فاختار القائد جنديا هو عبدالله بن أبي بكر فهو ثَقِف ـ أي مثقف ـ حاذق فَطِن لَقِن سريع الفهم، وهذه سمات مطلوبة في مثل هذا الموطن وفي الشخص الذي سيقوم بمثل هذه المهمة الصعبة، فالذكاء يساعده علىٰ حسن التصرف حيال المواقف الحرجة، والتي قد تصادفه إبان القيام بمهمته، وسرعة فهمه تساعده في استخدام الوسائل المُثْلَىٰ في الحصول علىٰ المعلومة دون زيادة أو نقص، مما يجعل المعلومة التي يعرفها عما يدبره المشركون تمتاز بقدر كبير من الصحة والثقة، وفطنته وثقافته تجعلانه يحافظ علىٰ نفسه فلا يصاب بأذىٰ من المشركين، وإن لم

يكن كذلك فإنه سيكون عُرضةً لأن يُعرف للأعداءومن ثمّ فسيحدث واحد من أمرين.

الأمر الأول: إما أن يُعرف هو عند الأعداء وبالتالي سيمسكون به في مكة أو يقتلوه إن لم يصلوا منه إلى ما يريدون.

والثاني: أن تُعرف القيادة المسلمة من خلاله إذ سيتتبعونه دون أن يعرف ويكون سبباً في فشل الخطة بدلاً من أن يكون سبباً في نجاحها.

وإن عرفوه وأمسكوه حتى وإن لم يقتلوه فإنه سيكون في عرضة لخيارين أحلاهما مرّ.

(أ) فإما أن يعذبوه حتى يدل على القيادة المسلمة النبي (ﷺ) وصاحبه الموجودان في الغار .

(ب) وإما أن يعتقلوه ولو لم يتعرضوا له بأذى أو يقتلوه، وبهذا يكون قد خسروا معرفتهم بأخبار أهل مكة وما يدور فيها، وليس هذا هو المطلوب لدى القيادة المسلمة، فلو لم يأتهم بخبر القوم سيكونون في قلق شديد فأين هو؟ وكيف سيتصرفون؟ وماذا فُعل به..؟ إلى غير ذلك فهو إذا قد تجنب كل هذه التساؤلات.

٣- ذهاب عبدالله بن أبي بكر بالليل سراً إلى النبي (ﷺ) في الغار فلا يعرفه أحد من المشركين، ثم عودته عند السحر إلى مكة يبعده عن خطر مراقبة قريش له، لأن الظلام كما هو معلوم ساتر مناسب لمن يقوم بهذه المهمة الحساسة ، التي بها يعرف الأعداء مكان النبي وصاحبه فدخول مكة سحرا يبعده عن شبهة

الاتصال بالنبي ﴿ﷺ﴾ فهو يصبح وكأنه كان نائما في مكة ولم يكن بالغار، وهذه غاية الدّقة وقمة الحيطة والحذر وحسن التخطيط والحكمة في التنفيذ، كما أن المعلومات التي كان يأتيهم بها تجعل الرسول وصاحبه على دراية تامة بما تفعله قريش في مكة، وفي قريب من الوقت، وهو ذو قدرة عالية على فهم ما يدور حوله إذا كان بمكة، وصحة الأخبار التي ينقلها لهما في الغار، كل هذا يجعل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصاحبه يتحركان من الغار بناء على الحقائق لا على الظن والتخمين مما يجعل النجاح شبه مؤكد لديهم بناءً على هذه الحقائق.

خامساً المستفاد من إعفاء الأثر

بقائه ﴿ﷺ﴾ بالغار يحتاج إلى استطلاع دائم للأخبار، وهذا الاستطلاع كما قلنا يحتاج إلى شاب ذا صفات مهاريه عالية كما مرّ علينا آنفاً، وهذا الأمر يتطلب من هذا الذي يستطلع الأخبار أن لا يُعرف شخصه ولا أثره للأعداء، حتى لا يتتبعون الأثر والنبي يعرف أن الأعداء بارعون في اقتفاء الأثر، إذن فلابد من أن يحتاط القائد العسكري المسلم لهذا الأمر فعبد الله بن أبي بكر لابد له أن يذهب ويجيء نهاراً بلا شُبهة، ثم أسماء بنت ابي بكر تذهب نهاراً تحمل إليهما الطعام والشراب، وحتى يستبعد احتمال أن يعرف أثرهما وهما يذهبان إلى الغار كان هناك من هو مكلف بتتبع الأثر بالأغنام لكي يعفى ويمحي هذه الآثار، وهو عامر بن فهيرة، مولى أبي بكر، وهو مسلم أمين، ثم إن إزالة الأثر عن طريق الغنم تُعد أنسب وسيلة، لأن آثار الغنم في تلك البقاع ، أمر مألوف لدى قريش، فلا

يثير شكا ولا ريبة عندها إذا رأوا عامر بن فهيرة ، يرعى ويسير بها حتى الغار، ويرجع فلا يشكُّون في أمره.

سادساً: الإمداد بالتموين والإقامة ثلاثة ايام .. فكيف ولماذا..؟

من المسلّمات أن الجوع والعطش قد يسببان انهياراً للإنسان، وخاصة بعد هذا التعب، كما أن الركب المبارك في الغار سيمكث مدةً بالغار فلابد له أن يأكل ويشرب فالأكل والشراب عماد الحياة والطعام والشراب يحتاج إلى أدوات طهي وغيره.. وهما ليس لهما القدرة على ذلك، إذن فلابد أن يحتاجا إلى زادٍ معدٍ وجاهزٍ، لأنّ أي محاولة لإشعال نار أو غيره مما لابد منه لإعداد الطعام تعتبر قرينة قوية ربما تقود قريش إلى الغار، كما أنهما لو خرجا ليحتطبا فقد يراهما أحد على هذه الحالة فيعرف المكان (الغار) والنار ينبعث منها دخان نهاراً ويخرج منها الضوء ليلا، وهذا يشكل خطراً كبيراً وبخاصة أن العرب يمتازون بقوة الملاحظة، لذلك فمن الأفضل ما كانت تفعله السيدة أسماء أنها كانت تأتيهما بالطعام معداً جاهزاً من بيت أبي بكر، كما أن عامر بن فهيرة كان يجلب لهما اللبن من غنم أبي بكر فيشربان ويأكلان بدون أن يشعر بهم أحدٌ أبداً.

أمّا لماذا أقاموا ثلاثة أيام في الغار؟

فيقول: ابن الأثير في تاريخه

".... فأقاما في الغار ثلاثة أيام..!" وهذا تصرف أمني له وزنه، وقد اقتضته الظروف المحيطة بهم في الغار، فالخروج إلى مكان في الأيام الأُولى يجعلهما عرضة للوقوع في قبضة الأعداء ، كما أن المدة الزمنية هذه ربما كانت مرتبطة ارتباطا

وثيقا بالمعلومات التي قدمها لهما عبدالله بن أبي بكر والتي تشير إلى خفة الطلب لهما بعد هذه المدة التي بلغت ثلاثة أيام، فقد يكون الأعداء من قريش قد كَلّوا وتعبوا مدة ثلاثة أيام، وقبلها مدة التخطيط لقتلهم النبي ﴿ﷺ﴾ فهذه مدة كافية أن يستريحوا حتى يعرفوا أين ذهب هو وصاحبه؟ كما أن الأخطر من ذلك فإنه قد يلفت ويوجه الأنظار من قِبَل قريش وقيادتها، فالمرور والذهاب والإياب من الغار وإليه كثير من عبدالله بن أبي بكر وأسماء وعامر بن فهيرة فقد تتبعهم قريش حتى تصل إلى ما تريد..). أضف إلى ذلك، أن هذه تعد كافية لأن تدرك قريش وقيادات الكفر أن محمداً قد أفلت منهم فيكُفّوا عن الطلب، ولو بعض الوقت، كما أنها كافية أيضا لابتعاد النبي ﴿ﷺ﴾ وصاحبه عن الكفار بمسافة بعيدة تمكنه من الوصول إلى مأمن ـ أي مكان آمن ـ أو الإلتحاق بقبيلة لها مكانتها فتحميه ولو قليلا، مما يجعل اليأس يدب في نفوس الكفار فيتراخون عن مطاردته، وبالتالي تكون الفرصة سانحة للركب المبارك أن يفلت منهم، وهذه خطط محكمة تدل على الخبرة الكبيرة بالواقع عنده ﴿ﷺ﴾ وصاحبه الكريم فلم تكن قريش تظن قط أن محمدا سيفلت من يدها، وأنها ستخفق في العثور عليه بعد ما بذلت كل جهد ممكن في البحث عنه، فقد أمضى الكفار الأيام الثلاثة الأُول من اختفائه ﴿ﷺ﴾ وهي جادّة كلّ الجد في البحث عنه قد أسهرت ليلها وأشقت نهارها، وأقضت مضاجعها، ودست عيونها في كل مكان تشتَمّ أي شئ لعلها تعثر عليه، وأرسلت خبراءها في كل مكان وناحية يتلمّسون آثاره ويتحسّسون أخباره.. ولكنها على الرغم من ذلك لم تظفر من جهودها بطائل، فلما انقضت الأيام الثلاثة

الأُول وهي على هذه الحالة من الثورة والاضطراب بدأ يدُب عندها اليأس والإخفاق في الطلب ومن الجهد الدائب الذي خاب وفشل، وأخيراً استولى عليها اليأس وقلت عزيمتها، فما كان منها إلا أن كفت عن البحث وأيقنت أنه من المستحيل أن يكون محمد وصاحبه بقيا في مكة حتى الآن ... وهذا ما قدره النبي وخطط له وبنى عليه التنفيذ فقد ظل رابضا في الغار يراقب الحوادث عن قرب حتى تبين له عن طريق فريق الاستطلاع – عبد الله بن أبي بكر–، أن قريشا قد يئست من وجوده بمكة وأنها كفت عن طلبه وتتبعه، وأيقن ﴿ﷺ﴾ أنه قد هدأت العاصفة وسكنت الثورة ولاحت الفرصة للخروج من الغار، أخذ في تنفيذ باقي الخطة، فجاءه الدليل في الموعد المحدد له مسبقاً، وأخذ الجميع أهبتهم لرحلة طويلة شاقة محفوفة بالمخاطر والمصاعب فاسرعوا يجدون في سيرهم إلى المدينة.

مع الركب الميمون من الغار إلى المدينة المنورة:

بعد أن خمدت نار الطلب وتوقفت أعمال التمشيط والمسح الشامل ودوريات التفتيش، وهدأت ثائرة قريش بعد استمرار الطلب والمطاردة الشديدة مدة ثلاثة أيام بدون جدوى، أخذ النبي وصاحبه في التهيؤ للخروج من الغار إلى المدينة حتى يصلها بسرعة وحتى لا يُدرك قبل الوصول، ولقد صاحب هذا التحرك من جهة الركب المبارك عديد من الجوانب الأمنية التي تُظهر مدى الاهتمام البالغ والحذر الذي أتبعه الرسول منذ تحركه من الغار حتى وصوله إلى المدينة المنورة.

أولاً: الحذر أثناء السير

التمويه في التحرك من الغار والجِد في السير؛؛

سلك بهم الدليل عبدالله بن أريقط بعد الخروج من الغار أول سيره في اتجاه الجنوب نحو اليمن ثم غربا نحو ساحل البحر الأحمر، حتىٰ يأخذوا طريقهم غير المعروف لدىٰ الناس، ثم اتجه شمالا بهم علىٰ مقربة من شاطئ البحر الأحمر، ثم سلك طريقا لم يكن يسلكه أحد إلّا نادرا، وما ذلك إلا إمعانا في التمويه ومزيدا من الحيطة والحذر وبيان الحس الأمني عند النبي ورفقته.

كما أن الظروف التي تم فيها التحرك من الغار ، كانت تتطلب الإسراع في السير، وقطع المسافة بين مكة والمدينة في أقصر زمن ممكن، فالعيون تحيط بهم من كل جانب، لذلك أسرع ﴿ﷺ﴾ السير عقب خروجه من الغار واستحثوا رواحلهم وركائبهم ليجِدّوا في السير لقطع أكبر مسافة ممكنة في أقل زمن ممكن.

فقد روىٰ البخاري عن أبي بكر رضى الله عنه قال: (سِرنَا ليلتين ومن الغد، حتىٰ قام قائم الظهيرة، وخلا الطريق لا يمر فيه أحد فرفعت لنا صخرة لها ظل ، لم تأت عليها الشمس ، فنزلنا عندها).

فالسير المتواصل ليوم وليلة يباعد بين ركب الهجرة وبين مكة وأهلها، مما يزيد فرصة نجاح الخطة، كما أن الليل يعد من أنسب الأوقات للسفر في الصحراء، إضافة إلىٰ كونه سترة مناسبة لركب الهجرة المبارك.

ثانياً: مما قام به أبو بكر في الطريق إلىٰ المدينة:

لما كان سيدنا أبو بكر رضى الله عنه معروفا لدىٰ معظم سكان الطريق لاختلافه إلىٰ الشام بالتجارة، فهو من أكابر التجار المعروفين فيركب أبو بكر خلف النبي كلما مر بقوم يسألون من هذا الذي بين يديك يا أبا بكر؟ فيقول لهم "هذا الرجل

هادي يهديني السبيل" وهذا فيه ما فيه من التورية من جهة أبي بكر ـ رضى الله عنه ـ طالما أن رسول الله هو الهدف لقريش، ورصدت لمن يعثر عليه مائة ناقة، وهي ثروة طائلة تجعل كل من يسمع بهذه الجائزة يسيل لعابه، ويجتهد في البحث عنه (ﷺ) بغية الحصول على تلك الثروة، وتقديرا من أبي بكر لقائده (ﷺ)، لم يكشف أبو بكر رضى الله عنه عن شخص النبي بل اكتفى بالتورية وبالتالي كانت الإجابة تنفي التساؤلات التي تحوم حول الركب، دون أن يكذب فلابد للدعاة إلى الله أن يكونوا على قدر من الوعي واللباقة وحضور البديهة وحدة الذكاء، مما يجعلهم قادرين على الخروج من مكايد الأعداء والإفلات منهم[١]. (والضرورات تبيح المحظورات والضرورات تقدر بقدرها) كما هو معلوم

كما يظهر الحس الأمني عند أبي بكر في موضع آخر حين خرجا من الغار في طريقهما إلى المدينة يقول عن نفسه (فضربت بصري هل أرى ظلا آوي إليه فإذا أنا بصخرة فأهويت إليها، فنظرت فإذا بقية ظله فسويته لرسول الله (ﷺ) وفرشت له فروة وقلت له: اضطجع يا رسول الله، فأضجع ثم خرجت أنظر هل أرى أحداً من الطلب فإذا أنا براعي غنم، فقلت لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من قريش فسماه فعرفته، فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم، قلت: هل أنت حالب لي ؟ قال: نعم فأمرته، فأعتقل شاة منها ثم أمرته فنفض ضرعها من الغبار، ثم أمرته فنفض كفيه من الغبار ومعي إداوة فحلب لي كثبة (قليلا) من

[١] انظر المنهج الحركي في السيرة للغضبان ص١٩٤ ، السيرة النبوية للصلابي.

لبن فصببت على القدح حتى برد أسفله قلت: اشرب يا رسول الله فشرب حتى رضيت، ثم قلت: هل آن الرحيل؟ فارتحلنا..؟[1]

أيضا لما رأى أبو بكر الصّديق شخصا يرعى غنما ذهب إليه بنفسه وبادره بالسؤال قبل أن يسأل الراعي من أنت؟ وما حاجتك؟ وهذه مبادرة موفقة من الصديق رضى الله عنه وربما قصدها لمنع الراعي من أي استفسار لمعرفة شخصيته، ثم بادره مرة أخرى حتى لا يتطرق إليه بأي سؤال فطلب منه أن يحلب له بلفظ المفرد لا بلفظ الجمع ولم يقل احلب لنا لبنا ليوهم الراعي بأنه وحده وليس معه أحد.

أما طلبه من الراعي أن ينفض الغبار عن ضرع الشاة مخافة أن يلوث اللبن فيسبب هذا إيذاءً للنبي أو يسبب له ألما كمرض أو نحو ذلك مما قد يعوق الركب عن التقدم إلى المدينة..

وقول أبي بكر للنبي بمجرد انتهائه من شرب اللبن مباشرة: هل آن الرحيل يا رسول الله؟ يدل على الحس الأمني وقمة الحذر عند أبي بكر، حيث لا ينبغي لهذا الركب المطارد أن يطيل الاستراحة والطلب في أثره، كما أنه لابد لهم أثناء سيرهم السريع الاستفادة من وقت القيلولة، وهو وقت يندر فيه مرور الناس، فهو وقت استراحة للجميع، إلا هذا الركب حتى لا يظفر بهم المتربصون بهم من المشركين.

ولم يقل أبو بكر للنبي "هيا بالرحيل " ولكن قال "هل آن الرحيل؟" على سبيل الاستفهام، درس من هذا الجندي حتى لا يجبر القائد على أمر قد يكون هو كارها

---

[1] البداية والنهاية ج٣ وجوانب الحذر والحماية في السيرة النبوية ص١٦٠ وما بعدها.

له أو عالماً به ولكن له حسابات أخرىٰ، أو أنه يريد الاستراحة من التعب لأن السفر (قطعة من العذاب)، علىٰ كلٍ فالجندي كان عنده من التفكير وحسن التصرف ما جعله يكفل لهم الاطمئنان في سفرهم.. [**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ**] {طه: ٥٤}

ثالثاً:اختيار طريق الهجرة، وعدد أفراد الركب.

- طريق الهجرة:

المتأمل في طريق الهجرة يجد أنه من أقصر الطرق الموصلة إلىٰ المدينة ولم يكن من الطرق المألوفة، ولا يخفي ما في ذلك من أبعاد للحماية، فقِصَر الطريق يقلل من زمن الرحلة سواء أكان السير ليلاً أو نهاراً وهذا أمر مطلوب في مثل هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر، كما أن الطريق القصير لا يحتاج إلىٰ كثير من الزاد طعام أو شراب أو حتىٰ الإستراحة فيه بخلاف السفر الطويل وهذا ما فعله النبي ﴿ﷺ﴾.

كما أن الطريق غير مألوف للسير فيه، وفي ذلك زيادة احتياط أمني منه ﴿ﷺ﴾ إذ غالبا ما تكون جهود الأعداء منصبة علىٰ الطريق المألوف للجميع، وربما غاب عن الباحثين وفرق الاستطلاع المعادية هذا الطريق، مما قد يترتب علىٰ هذا ندرة أو عدم المراقبة لهذا الطريق، أو حتىٰ عدم المراقبةأصلاً، الأمر الذي يُسَهل مهمة ركب الهجرة في الوصول إلىٰ بُغيتهم المطلوبة دون أن يُصيبهم أذىٰ.

- عدد الأفراد أربعة بدلاً من اثنين؟؟

كان من المؤكد لدىٰ قيادة الكفار من قريش، أن عدد المهاجرين المطلوبين لديهم لا يزيد عن اثنين النبي ﴿ﷺ﴾ وصاحبه فكل عيونها كانت تنظر بتركيز علىٰ إلقاء

القبض عليهما وهما اثنين فقط، وبالتالي أي ركب يتألف من اثنين فقط فهذا هو الهدف المطلوب لديهم، لذلك ومن حكمة وتخطيط النبي أنه جعل الركب يتألف من أربعة وليس اثنين فلا شك أن هذا العدد يبعد إلى حد كبير الشبهة عن هذا الركب، وهذا حس أمني يدل على دقة التخطيط عند النبي وصاحبه ومدى معرفته وخبرته بالواقع المحيط به، كما ظهر جليّا سياسة إبعاد أي شبهة عنه ﴿ﷺ﴾ تحوم حوله قد تُوصل الأعداء لمعرفته وصاحبه، ومن ثم فشل الخطة، وهذا إخواني في الله تشريع لنا وبيان أن كلّ عمل لابد له من تخطيط وتنظيم يليق به.

ودخل الركب الميمون المدينة

حين دخل الرسول المدينة مر - تقريبا- على جميع بطون قبيلتي الأوس والخزرج، فقد مر ببني عمرو بن عوف، وبني سالم، وبني بياضة، وبين ساعدة، وبني الحارث، وبين عدي بن النجار، وكان يرد عليهم جميعا حين يطلبون منه النزول ويُمسكون بخطام ناقته، فيقول لهم "دعوها فإنها مأمورة".

ولا شك في أن مروره ﴿ﷺ﴾ ببطون الأوس والخزرج يكشف عن بعد أمني هام، كان له دوره الكبير في الحفاظ على تماسك ووحدة الجبهة الداخلية في المدينة المنورة، فأشهر سكانها كانوا من الأوس والخزرج، كما أنه كانت الحروب بينهما تقوم على أسباب واهية - وكان لليهود دور كبير فيها- فلو مر النبي بقبيلة دون الأخرى، ربما يترك هذا الفعل شيئا في النفوس، الأمر الذي يجعل اليهود يستغلون هذا الفعل لإشعال الفتنة، ويشيعون أن النبي ﴿ﷺ﴾ يفضل قبيلة على أخرى، مما يؤدي إلى وجود بغضاء أوحسد في القلوب ولو قليل، وبالتالي تقوم الحرب بينهما،

ويؤدي إلى التفرق وشقّ الجبهة الداخلية عن طريق حرب أهلية في الدولة الوليدة، وحرصا منه (ﷺ) على تفادي هذه الأمور التي قد تحدث، مر على ديار القبيلتين، وهذا يدل على سياسة النبي وحكمته، وإنما جعل أمر نزوله على من سينال هذا الشرف العظيم أمرا ربانياً فقط، وليس اختياراً منه (ﷺ) ، وهذا واضح من قوله "دعوها فإنها مأمورة" فلو كان النزول أمر من الله، فإن الجميع سيرضى به، ولن تحدث أي حساسية في نفوس من الذين لم ينزل عندهم، وبالتالي يكون الرسول بحكمته وحسن قيادته قد فَوّت الفرصة على الأعداء والتي من الممكن أن يستغلوها استغلالاً سيئاً.

وبعد

فهذه بعض ملامح من اليقظة والحذر، ووسائل الحماية للدعوة الإسلامية وتأمينها في الهجرة النبوية المباركة، في هذه الرحلة الشاقة الصعبة المليئة بالصعوبات، وذلك للاقتداء بالمصطفى (ﷺ) في كل ما يفعله فهذا ليس للتسلي أو للحكايات ولكن للتأسي به، وتشريع لنا لنعلم أن دعوة الإسلام لا تقوم على الكُسالى، وأن طريق الدعوة إلى الله ليس مفروش بالورود،**[لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَاليَوْمَ الآَخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا]** {الأحزاب:٢١} **[فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ]** {الأعراف:١٧٦} **[إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ]** {ق:٣٧}

والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

لماذا اختار المسلمون الهجرة مبدأ لتاريخهم؟

نقلت الروايات التاريخية أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو الذي اختار الهجرة مبتدأً للتاريخ الإسلامي، والمتأمل بهذه الواقعة ترد على خاطره أسئلة عدة منها: ﴿ﷺ﴾

١- لماذا كان عمر بن الخطاب هو أو مَن أرّخ بالتاريخ الإسلامي؟ ولماذا لم يعتمد المسلمون على التواريخ التي كانت سائدة في محيطهم الثقافي؟ وما الذي يعنيه هذا الاختيار؟

أما لماذا كان عمر بن الخطاب هو الذي اختار بداية التاريخ الإسلامي للهجرة؟ "لأن ذلك ليس بعيدا عن عمر بن الخطاب إذ هو الملهم الذي نزل بعضاً من القرآن موافقاً لرأيه كما أخبر بذلك سيدنا محمد ﴿ﷺ﴾، ولأنه المؤسس الأول لقواعد الحكم الإسلامي في مختلف المجالات، فقد تمت الفتوحات الكبرى في عهده، وهو الذي أنشأ الدواوين، ونظم القضاء، وأحكم نظام الشورى.. إلخ، حتى أن بعض المؤرخين كتب عن سيدنا عمر مائة أمر كان هو أول من اخترعها وعمل بها في عهده، لهذا فليس بعيدا على عقلية رجل مثله أن يفكر في وضع بداية تميز التاريخ الإسلامي عن غيره، ولأن هذه الخطوة تكون استكمالا للدولة التي وضع عمر بن الخطاب رضى الله عنه قواعد بنيانها، لكن ليس معنى هذا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو الذي انفرد بمثل هذا القرار ، بل هو كغيره من

الصحابة الذين تربوا على مبدأ الشورى في الإسلام ، قد شاور الصحابة في مثل هذا القرار العظيم فكانت حصيلة الشورى اعتماد الهجرة النبوية مبدأ التاريخ الإسلامي وليس غيرها[1]:

أما لماذا لم يعتمد المسلمون التواريخ الموجودة آنذاك؟

ببساطة شديدة لإعتزازهم بشخصيتهم الإسلامية المتميزة، وقد أسهم هذا الاعتزاز في تكوين ثلاثة أمور هي:

الأول: الإيمان بالرسالة المنوطة بهم وأنهم الأمة الوسط الشاهدة على الأمم جميعاً، خير أمة أخرجت للناس، فكيف لها أن تُؤرخ بتاريخ لا يدل على هويتها ومرجعيتها الإسلامية، والمتمثلة في قول الله تعالى [**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ**] {البقرة:١٤٣} وفي قوله تعالى [**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آَمَنَ أَهْلُ الكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الفَاسِقُونَ**] {آل عمران:١١٠} والتي عبر عنها ﴿ﷺ﴾ بقوله (..أنتم شهداء الله على خلقه..) وقوله ".. بلغوا عني ولو آية واحملوا عني يرحمكم الله..)

---

[1] مجلة الوعي الإسلامي محرم سنة ١٤٢٣ هـ ص٢٣ من مقال: (لغازي التوبة).

والتي عبر عنها ربعي بن عامر رضى الله عنه عند مواجهته لرستم قائد الفرس في قوله "نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العالمين ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة" والتي عبر عنها عمر بقوله "كنا أذلاء فأعزنا الله بالإسلام ومهما ابتغينا العزة في غير الإسلام أذلنا الله".

الأمر الثاني: الاعتقاد الجازم بأحقية الدين الإسلامي لقيادة الأمم وأنه آخر الأديان وأن محمداً ﴿ﷺ﴾ هو سيد الرسل وخاتمهم، وأن القرآن هو المعجزة الخالدة والأخيرة للبشر جميعا، ومن هنا فقد استشعروا المسئولية العظمى أمام الله ثم أمام البشرية جميعاً أن لابد من تميُز لهده الأمة عن غيرها [**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ*إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ**] {الأنبياء: ١٠٥:١٠٦} فهم أهل الاستخلاف في الأرض وأنهم هم الشهداء على الأمم جميعاً.

الأمر الثالث: ميز الإسلام المسلمون في عقائدهم وعبادتهم وآذانهم وصلاتهم... وجميع شعائر الدين الإسلامي، وهذه الميزة التي تميز بها المسلمون إنما هي ثمرة من ثمرات تربية النبي ﴿ﷺ﴾ وهي من متطلبات الصراط المستقيم الذي يوجب مخالفة أصحاب الجحيم..

وهذه الأمور الثلاثة السابقة قد وَلَّدت في نفوس المسلمين ثقة في المنهج الرباني، وطاعة للقيادة، وتميّزاً في السلوك، وإحساسا بالدور التاريخي الجديد الذي يجب أن يكون من أصوله وأسسه تاريخ متميز عن كل تاريخ.

أما لماذا لم يختر الصحابة مولد النبي (ﷺ) مبدأً للتاريخ الإسلامي؟.. الراجح هنا أن هذا ما هو إلا تشريع للأمة وأن هذا كان ثمرة من ثمرات تربية النبي لهم، والتي قدم فيها المربي الأول (ﷺ) المنهج على الشخص، وتقديم الرسالة على الرسول، وقد رسخ الإسلام هذا المبدأ في نفوس أتباعه وأقرهم عليه، وذلك بأمور منها:

- أن الله قد سمّى دينهم الإسلام وليس الدين المحمدي، وليس الرسالة المحمدية وسماهم الله بالمسلمين وليس بالمحمديين ، وتقديم قول النبي على فعله، وهي قاعدة أصولية تقول: (إذا تعارض القول مع الفعل يقدم القول) ومنها تأكيد القرآن الكريم على بشرية الرسول في آيات كثيرة منها قوله تعالى ([**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**] {الكهف:١١٠}، فإن تقديم الرسالة على الرسول، والمنهج على الشخص، لا يعارض بحال من الأحوال مدى تعلق المسلمين بالرسول وحبهم له حبا فاق الخيال والوصف لذا فإن ما فعله عمر والصحابة في التأريخ بالهجرة، كانت نقلة نوعية في تاريخ البشرية لأن معظم الضلال الذي وقعت فيه الأمم التي سبقت الإسلام، أنما كان من تعظيم الأشخاص وتقديمهم الأشخاص على المنهج الذي جاءوا به، ثم وقعوا في تأليههم وعبادتهم بعد ذلك، لهذا اختار الصحابة الهجرة النبوية وليس ميلاد النبي (ﷺ) هو مبدأً للتأريخ، إذن فالهجرة كانت جزءاً من حركة الرسالة على الأرض كما

كانت منعطفاً مهمّاً في حياة المسلمين، نقلة مهمّة في المجتمع الإسلامي إذ نقلتهم من الاستضعاف إلى التمكين ومن الدعوة إلى الدولة ،ومن الجماعة إلى الأمة،

أمّا لماذا بداية التاريخ الهجري بشهر المحرم وليس في ربيع الأول الذي تمت فيه الهجرة؟ لأن التشاور الذي تم بين الصحابة وسيدنا عمر وجدوا أن الأمور التي يمكن أن يؤرخ بها أربعة.

١- مولد المصطفى (ﷺ). ٢- البعثة. ٣- الهجرة ٤- الوفاة.

ففكروا فيها فوجدوا أن سنة (المولد والمبعث) لا يخلوان من النزاع في تعيينهما بدقة كيف وهذا سيكون تاريخا فيما بعد للناس جميعا. لذا أعرضوا عن التأريخ بهما.

أما وفاته(ﷺ) فأعرضوا عن التأريخ بها نظرا لما تثيره من الحزن والأسى عند المسلمين، إذن فلم يبق إلا الهجرة المباركة.. لأن ابتداء العزم على الهجرة إلى المدينة كان في المحرم لأن بيعة العقبة الثانية كانت في شهر ذي الحجة وهي المقدمة العظمى للهجرة النبوية، فكان أوّل هلال استهل بعد البيعة المباركة والعزم على الهجرة، هو هلال شهر الله المحرم مناسب أن يكون مبتدأ للتاريخ، وهذا ما مال إليه ابن حجر العسقلاني يقول"... ولهذا كان أول شيء وقعت عليه من مناسبة الابتداء با لمحرم[١].

وبهذا الحدث الإداري المتميز اشتهر الفاروق رضى الله عنه في إحداث وحدة شاملة بكل ما تحمله الكلمة من معنى في شبه الجزيرة، حيث ظهرت وحدة

[١] فتح الباري (جـ٧/ صـ٢٦٨) نقلا عن عمر بن الخطاب شخصيته وعصره للصلابي.

العقيدة بوجود دين واحد، ووحدة الأمة بإزالة الفوارق، ووحدة الاتجاه باتخاذ تاريخ واحد،

ومن المفارقات التاريخية العجيبة التي قلما تتكرر، أن رسول الله قد ولد يوم الخميس وقيل الاثنين(١٢/ ربيع الأول، من عام الفيل الموافق ٢٣/ أبريل سنة ٥٧٠م)، وأنه عليه الصلاة والسلام قد هاجر من مكة إلى المدينة في شهر ربيع الأول، ووصل إلى قباء يوم الاثنين (١٢ من ربيع الأول عام ١٤ من البعثة الموافقة ٢٤ سبتمبر سنة ٦٢٢م) وانتقل إلى الرفيق الأعلى يوم الاثنين (١٢وقيل الثاني من ربيع الأول عام ١١) من الهجرة.

نعود إلى العبقري عمر بن الخطاب، في السنة الثالثة من خلافته جمع رضى الله عنه ـ الصحابة السابقين الأولين، وقال لهم: إن الأموال قد كثرت وما قسم منها غير مُؤقّت (أي غير محدد بتاريخ ينضبط به) فكيف التوصل إلى ما يضبط ذلك؟ فيذكر المؤرخون كالإمام الذهبي في "تاريخ الإسلام" ابن كثير في "البداية والنهاية" وغيرهما من المؤرخين ، كالحاكم في المستدرك" أنه قد رُفع إلى عمر رضى الله عنه صكٌّ من الصكوك ، وكان هذا الصك موعده شعبان فسأل: أي شعبان هو؟ أهو الذي مضى؟ أم هو الذي سيأتي ؟ أم الذي نحن فيه؟ أيها الناس ضعوا للناس تاريخا يعرفون به المواقيت".

وبدأ الصحابة يتشاورون في هذا الأمر، فمن قائل : اكتبوا على تاريخ الروم، وقائل: اكتبوا على تاريخ الفرس، فرفض عمر كل هذا وقال لابد أن نجعل تاريخ الإسلام بحدث من الإسلام، فأشار بعضهم أن يجعلوه مولد النبي ﷺ

وبعضهم أن يجعلوه بوفاته وغير ذلك من الأراء التي طرحها الصحابة، فاشار على بن أبي طالب بأن يجعله خروج النبي من مكة للمدينة، فاستحسن هذ الرأي الخليفة عمر بن الخطاب وسائر الصحابة رضى الله عنهم أجمعين[1] .

بين التاريخ الهجري والميلادي

التقويم الهجري: هو جزء أساسي من تكوين الشخصية الإسلامية والتقويم الميلادي مزيج من الهوى والأساطير.

كان التاريخ الهجري هوالتاريخ الفرد الذي نسجل به وقائعنا، ونثبت به أحداثنا، ونرتب عليه شئوننا ردحاً طويلا من الزمن، حتى زاحمه التاريخ الإفرنجي وزحزحه عن مكانته بسبب تقصير المسلمين فيه، وما زال به حتى جعله في حياتنا أمراً ثانوياً.

والمتأمل في تاريخ التقويم الإنساني منذ أدخل كسرى وحدات الزمن ـ وهي سنين الحساب ـ، نجد أنه أحدث ثلاثة أنواع من السنين اختلف حظها من الشيوع والانتشار.

التقويم القمرى: هو السنة القمرية ، والتي أخذ منها العرب تقويمهم الذى ارتبط بهم على مدار التاريخ، والعرب حينما استخدموا هذا التقويم لم يصبغوه بأساطيرهم، ولم يلطخوه بخرافاتهم، ولم يدنسوه بأسماء آلهتهم الوثنية ولم يخضعوا عدة الشهور لأهوائهم وأمزجتهم كما فعل غيرهم بتقويمهم، ويعدّ التقويم العربى أصح التقاويم وأقومها وأضبطها وأكثرها اعتماداً على السنن الكونية والإلهية.

---

[1] مجلة الوعي الإسلامي محرم سنة ١٣٩هـ للأستاذ/ عبدالله الكبير.

ومن هنا كان اعتماد الإسلام على هذا التقويم دون غيره من التقاويم الأخرى، ويكفيه أن الله يقول فيه "إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهر في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم" (سورة التوبة: ٣٦)

وهذا يعنى أن التقويم العربى هو أقدم التقاويم على الإطلاق لسبب بسيط هو: أنه يعتمد على رصد حركة القمر بالعين المجردة دون انتظار لتقدم علوم الفلك وعلم الحساب، ولهذا لم يذكر التاريخ أن هناك أى تعديل قد طرأ على التقويم العربى كما حدث في التقاويم الأخرى بعد أن اكتشفوا خطأ الحسابات القديمة [1] ولم يثبت أن شيئا مثل هذا حدث في التقويم العربي، أضف إلى ذلك أنه ليست هناك قاعدة علمية يمكن الاعتماد عليها في تحديد بداية الشهور ونهايتها وعدة أيامها في التقويم النجمي والشمسى ، بينما ميلاد القمر في التقويم العربي هو الذي يحدد بداية الشهر كما يحدد عدد أيامه، وهو أمر ليس لبشر سلطان عليه، ولهذا فإن اختيار الإسلام لهذا التقويم دون غيره لم يجئ بناءً على رغبة شخصية من الرسول ﴿ﷺ﴾ أو من عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذي حدد بداية التقويم العربى الإسلامي بالهجرة النبوية ، فلعلّ الله قد صرف البشر عن تحديد بدايته لحساب السنين القمرية قبل ذلك حتى ترتبط بهذا الحدث الكبير في تاريخ البشرية.

رجوع إلى القرآن

[1] انظر قطوف مباركة من الحج والهجرة ص١١٨ وبعدها بتصرف ، أحمد رجب.

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم لنتعرف على المنطلق الذي ينبغي أن ننطلق منه في عدد السنين وحسابها، جاءتنا الآية الخامسة من سورة يونس لتحسم كل خلاف من هذه النقطة في صراحة ووضوح، قال تعالى: "هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون" (سورة يونس:٥) وفي سورة البقرة يتحدد الأساس العلمي الصحيح للتوقيت في قوله تعالى "يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج " مواقيت للناس في عباداتهم ومعاملاتهم هكذا فهم المسلمون الأوائل وعلى هذا ساروا في جميع حساباتهم ، ومن يرجع إلى صفحات التاريخ الإسلامي يجد أن التقويم الهجرى هو المسيطر على كل حسابات الأفراد والجماعات وكل ما يتعلق بشئون الحياة جليلها وحقيرها، كما نجده مستخدماً في العبادات كلها من صيام وحج وزكاة وعدة طلاق أو وفاة، وبه تعرف تواريخ الميلاد والوفاة، بل وقيام دولة وسقوط أخرى، وجلوس حاكم على العرش ونزول آخر منه، وقيام حروب وفتح بلاد وعقد صلح،... الخ؛؛؛ ألا هل يرجع المسلمون إلى تاريخهم؟ ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا.

الإستعمار والتقويم الهجرى

وظل الحال على هذا، وأصبح التاريخ الهجرى جزءاً أصيلاً من الشخصية الإسلامية، حتى جاء الاستعمار الغربي حاملاً معه حضارته المسيحية بكل أسسها ومكوناتها، والتاريخ الشمسى جزء أساسى من هذه الحضارة، على الرغم من تغلغل الأساطير الرومانية فيه، ولما نجح الاستعمار في فرض حضارته على العالم

الإسلامي، أدخل معه التقويم الميلادى ليصبح جزءاً أساسياً من نسيج الحياة اليومية في البلاد الإسلامية، ولم يترك للتقويم الهجرى إلا زاوية صغيرة جداً من اهتمام الفرد المسلم، حتى لم يعد يهمه من أمر هذا التقويم إلا بداية شهر الصوم ونهايته، وبداية شهر ذى الحجة، وحتى هذه الزاوية الصغيرة لعبت بها الأهواء السياسية والنزعات الفردية، والجدل العقيم بين أنصار الرؤية البصرية أو أنصار الحساب الفلكي العلمي، والذي يتجدد كل عام مع شهر الصوم أو الوقوف بعرفة، كل ذلك دون إضافة علمية واحدة، ودون محاولة لتقريب وجهات النظر التي يبدو أنها مختلفة اختلاف تنوع وليس تضاد(!!). ولم تتوقف الحضارة الغربية عند تثبيت التقويم الميلادى في حضارة البلاد الإسلامية ومستقبلها، ولكنها أيضا حاولت أن ترجع بهذا التقويم القَهْقَرَى لتربطه بالأحداث الهامة في ماضى العالم الإسلامي، فاجتهدت كثيراً في أن توفق بين التواريخ الهجرية للأحداث القديمة وبين التاريخ الميلادى لتلك الأحداث .. رغبة منهم في أن يصبح التقويم الميلادى جزءاً من التكوين الثقافي للمسلمين.

إن المسلمين اليوم أصبحوا في ظل سيادة الحضارة الغربية المسيحية يمجدون آلهة الرومان الأسطورية !!! عندما يحتفلون برأس السنة الميلادية احتفالاً لا تكاد تفرق بينه وبين احتفالات الأوربيين في نفس الليلة، وأصبحوا يُمجدّون بعض قادة الرومان بترديد أسمائهم دون وعى، بعد أن أصبحت جزءاً من نسيج الشهور الشمسية، وأصبحوا يمجدون الأساطير والخرافات، وتحكم النزعات والأهواء، حينما يعتمدون في تقويمهم على شهور لا يعرفون سببا

لبدايتها ولا علّة لنهايتها، ولا مبرراً لاختلاف عدد أيامها، ومعنى هذا أن المسلمين يطرحون المنهج القويم، ويتمسكون بمنهج لاسند له من العلم ولا من اليقين في كثير جوانبه[1] .

إن العالم الإسلامي مطالب بأن يعود إلى التاريخ الذي رضيه الله ورسوله لنا، والذى ارتبطت به الأحداث الكبرى والصغرى في تاريخ الإسلام كبدر وأحد والخندق ووفاة الرسول والفتوحات الإسلامية وغيرها، والذى ثبت أنه أنقى وأدق تقويم عرفته البشرية[2]

سلطان

[1] خطب الغزالى جـ٢

[2] بتصرف من مقال: للأستاذ عبده زايد مجلة الدعوة.

أخيراً شيئ من فضائل الأنصار

قال: الله تعالىٰ (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) (سورة الحشر:٩)

١- عن البَرَاء رضى الله عنه قال: قال: ﷺ "الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله ، ومن أبغضهم أبغضه الله" رواه الشيخان والترمذىٰ.

٢- وعن أنس رضى الله عنه قال: قال: ﷺ "آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار"

٣- وعنه قال : جاءت امرأة من الأنصار إلىٰ رسول الله ﷺ فخلا بها وقال "والذىٰ نفسىٰ بيده إنكم لأحب الناس إليّ " ثلاث مرات . رواه الشيخان.

٤-وعن أبىٰ هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: لو أن الأنصار سلكوا وادياً أو شعباً ، لسلكت في وادىٰ الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار" رواه البخارىٰ والترمذىٰ.

٥-وقيل لأنس ـ رضى الله عنه "أرأيت اسم الأنصار أكنتم تسمون به أم سماكم الله؟ قال: بل سمانا الله عز وجل".

٦-وعن أبى هريرة رضى الله عنه قالت الأنصار للنبى (ﷺ) "أقسم بيننا وبينهم النخل. قال: لا؛ قال: تكفونا المؤونة وتشاركون في التمر قال المهاجرون: سمعنا وأطعنا"

٧-وعن زيد بن أرقم عن النبي (ﷺ) أنه قال "اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار ولأبناء أبناء الأنصار" رواه مسلم والترمذى ولفظه: كتب زيد بن أرقم رضى الله عنه تعزية لأنس فقال: "إنى أبشرك من الله، سمعت رسول الله (ﷺ)

٨-يقول "اللهم اغفر للأنصار ولذرارى الأنصار ولذرارى ذراريهم".

ولمسلم أن رسول الله (ﷺ) استغفر للأنصار، ولذارارى الأنصار ولموالى الأنصار"

٩-وللترمذى رضى الله عنه أن رسول (ﷺ) "اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ولنساء الأنصار".

١٠- وعن أبى أسيد رضى الله عنه عن النبي (ﷺ) قال: "خير دور الأنصار بنو النجار، ثم بنو عبد الأشهل ، ثم بنو الحارث بن الخزرج ، ثم بنو ساعدة ، وفي كل دور الأنصار خير" ، فقال سعد بن عبادة رضى الله عنه : ما أرى النبي (ﷺ) إلا قد فضل علينا، فقيل : قد فضلكم على كثير، وفي رواية : فقال سعد: يا رسول الله خيرت دور الأنصار فجعلتنا آخرهم، فقال: أو ليس بحسبكم أن تكونوا من الخيار". رواه الشيخان والترمذى.

١١- وعن أنس رضى الله عنه قال: "مر أبو بكر والعباس رضى الله عنه بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون، فسألهم فقالوا : ذكرنا مجلس النبى (ﷺ) منا

فدخل على النبي فأخبره، فخرج النبي ﴿ﷺ﴾ وقد عصب على رأسه حاشية بُردِهِ فصعد المنبر، ولم يصعده بعد ذلك اليوم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أوصيكم بالأنصار فإنهم كَرشى وعيبتى[1]، وقد قضوا الذى عليهم وبقى الذى لهم فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم". البخارى

١٤-وعن أنس رضى الله عنه قال: دعا النبي ﴿ﷺ﴾ الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين، فقالوا: لا إلا أن يقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها، قال: أما لا فاصبروا حتى تلقونى، فإنكم سيصيبكم بعدى أثرة" البخارى.

وغير ذلك من الأحاديث التي تحدّثت عن مناقبهم وفضلهم فرضي الله عن الأنصار وجميع الصحابة وجزاهم عما قدموا للإسلام والمسلمين خير الجزاء.

***

ولله الحمد أولا وآخرًا فهو وحده الذي أعان على هذا، والله أسأل الإخلاص والقبول في الدنيا والآخرة وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه، ولا ينساني كل من وقع في يده هذا الكتاب المتواضع من دعوة صالحة بظهر الغيب، وأن يغض الطرف عما فيه من الزلل والخطأ وأن يصحح ما يراه قدر المستطاع فإنما هو جهد بشري يعتريه ما يعتري أي عمل من النقص.

وهنا يروق لي أن أتمثّل قول الشاعر

وما من كاتبٍ إلا سيفنى *** ويُبقَى الدَّهرُ ما كتبت يداهُ
فلا تكتب بخطك غير شيءٍ *** يَسُرّك في القيامة أن تراهُ

[1] الكرش المعدة والعيبة ما يوضح فيه الشئ